

تأليف

طه حسين

أستاذ الآداب العربية بكلية الآداب بالجامعة المصرية

الجزء الثاني

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م

الى الأستاذ الجليـــل

أحمد لطفى السيد بك

مدير الجامعـة المصرية

صديقى الأستاذ الجليل

فى مثل هـذه الأيام من السنة المـاضية قدّمت اليك طرفا من هـذا الحديث ، فأْذن لى فى أن أقدّم اليك الآن بقيته مع تجلة التلميذ المخلص وتحية الصديق الوفىّ ؟

طه حسين

٢٢ مارس سنة ١٩٢٦

فهـــــرس

الجزء الثـانى من حديث الأربعاء

حديث الأربعاء

الجـــــزء الثانى

الغـــزلون[1]

قيس بن الملوح، أو مجنون بنى عامر، أو مجنون ليلى

أعلم أنى مدين لك بطـائفة من أحاديث الأربعاء شغلتنى عنها هذه الرحلة التى انصرفت اليها عن القراءة والكتابة، بل عن التفكير حينا طويلا . ولكنى أعلم أنك تبيح لمن تكلف عناء القراءة والكتابة والتفكير سنة و بعض سنة فى غير راحة ولا ترفيه على النفس أن يستريح شهرا و بعض شهر . وأنا مع ذلك مجتهد فى أن أعوّض عليك ما فقدت من هـذه الأحاديث، وأرجو أن أبلغ من ذلك ما تريد وما أريد . وأعلم أنى أغضبت طائفة من أدبائنا الذين أجلهم وأكبرهم وأقدر رأيهم فى الأدب العربى حين كتبت عن بشّار فلم أحبـه ولم أمل اليه ووصفته بشىء من ثقل الروح ولؤم الطبع وشدّة الغرور والافتتان بالنفس . أعلم ذلك ،وأرانى مع الأسف الشديد مضطرا الى أن أغضب هؤلاء الأدباء مرة أخرى . وأؤكد لهم أنى لا أتعمد ذلك ولا أرغب فيه، وانما يضطرنى اليه البحث اضطرارا وتكرهنى عليه مناهج النقد إكراها . وما زلت منـذ بدأت أحاديث الأربعاء أغضب طبقات من الناس حتى أصبحت لا أدرى أى الطبقات يرضى عما أكتب و يطمئن اليه . أولئك يغضبون لأنى أصف العصر العباسى بالمجون والشدّة، وهؤلاء يغضبون لأنى أقدّم أبا نُوَاس والحسين بن الضحّاك على بشار . وسيغضب قوم آخرون لأنى سأنكر وجود طائفة من الشعراء،أو سأجحد شخصيتهم، وسأزعم أن هؤلاء الشعراء بين اثنتين : إما أن يكونوا أثرا من آثار الخيال قد اخترعهم اختراعا، و إما ألا تكون لهم شخصية بارزة ولا خطر عظيم ، وانما عظّم الخيال أمرهم وأضاف اليهم ما لم يقولوا وما لم يعملوا، واخترع حولهم من القصص

---

(١) نشرت بجريدة « السياسة » فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

ألوانا وأشكالا جعلت لهم فى الأدب العربى هـذا الشأن العظيم الذى لا يكاد يقوم على شيء .

نعم ، سأنكر طائفة من الشعراء أو سأنكر شخصيتهم ، وأنا أعلم أن فريقـا غير قليل من الذين يعنون بالأدب لا يحبون هـذا النحو من البحث الذى ينتهى الى الإنكار أو الى الشك ، وانمـا يريدون أن يكون البحث كله إثباتا و يقينا وأن ينتهى البحث كله الى إثبات ويقين . وليس الباحث الماهر عند هؤلاء أن ينتهى البحث به الى إنكار المجنون أو الشك فيه ، فهذا الباحث هادم للمجد العربى معتد على الأدب العربى ، وانمـا الباحث المـاهر حقا عند هؤلاء هو الذى يسلك كل سبيل وينتهج كل طريق و يتكلف كل حيلة ليثبت وجود المجنون و يزيل أسباب الشك فيـه ، ليضيف الى المجد العربى مجدا وليثبت أن الأدب العربى يمتاز بالألوان الفنية التى لا تحصى .

إن أردت أن ترضى هؤلاء الناس فتملق حبهم للعرب و إسرافهم فى هذا الحب ، وأضف الى العرب ما قالوا وما لم يقولوا وما عملوا وما لم يعملوا ، واجعل أمتهم أشرف الأمم ولغتهم أشرف اللغات وأدبهم أرقى الآداب ، لا تحسب فى ذلك حسابا ولا تنتهى فيه الى مقدار ، ولا تعترف للأمم الحديثة بشيء الا أن تكون قد ورثته عن العرب ونقلته عنها نقلا . أسلك فى الأدب لترضى هؤلاء النـاس مسلك قوم فى السياسة ، واتخذ الحقائق الأدبية موضوعا للتضليل كما يتخذون المنافع السياسية ، تفز بمـا شئت من تصفيق و إعجاب ، و بما أحببت من حمد وثناء ، ولكنك تسيء الى العلم وتعتدى عليه . فاختر بين رضا العلم ورضا الجماهير .

أما أنا فأعترف — لسوء الحظ أو لحسنه — أنى أوثر رضا العـلم والضمير على رضا الناس و إعجابهم وتصفيقهم . ولهذا أتقدم بهذه النظرية فى غير تلطف ولا احتيال ، فأزعم أن هذه الطائفة من الشعراء الذيـن أسميهم « الغزلين » لم يكن لهم فى تاريخ الأدب العربى من الشأن ما يظنـه النـاس الى الآن ، وانمـا هم فى حقيقة الأمر

ينقسمون الى قسمين متمايزين لى فى كل منهما رأى : الأول الشعراء « العذريون » لا لأنهم ينتسبون الى «عذرة» بل لأنهم يتخذون هذا الغزل العذرى مذهبا فى الشعر، ومنهم المجنون ، وقيس بن ذُرَيْح ، وعُرْوة بن حِزَام ، وجميل بن مَعْمَر . والثانى « المحققون » أريد بهم هؤلاء الشعراء الذين انقطعوا للغزل أو كادوا ينقطعون له ولكنهم لم يلتمسوا الحب فى السحاب ، ولم يتخذوا العفة المطلقة مثلهم الأعلى ، وانما عبثوا ولَهَوْا واستمتعوا بالحياة ، وتغنّوا هذا العبث واللهو وقصروا شعرهم عليهما أو جاوزوهما الى فنون أخرى من الشعر ، ولكنهم لم يبلغوا منها ما بلغوا من الغزل . وزعيم هؤلاء الشعراء عمر بن أبى ربيعة ومعه نفر آخرون قد أحدثك عنهم بعد أن أفرغ من العذريين .

لست أشك فى أن عمر بن أبى ربيعة شخص تاريخى ، وفى أن أكثر الشعر المنسوب اليه صحيح صدر عنه حقا ، وفى أن شخصيته كانت فى عصره كما نتمثلها نحن الآن أو على نحو ما نتمثلها الآن ، وكذلك قل فى « كُثَيِّر » وكذلك قل فى عبيد الله ابن قيس الرقيّات . ولكنى أشك الشك كله فى أن يكون قيس بن الملوح شخصا تاريخيا وجد وعرفه الناس واستمعوا اليه ، وفى أن يكون هذا الشعر المنسوب اليه صحيحا قد صدر عنه حقا . وأزعم أن قيس بن الملوح خاصة انما هو شخص من هؤلاء الأشخاص الخياليين الذين تخترعهم الشعوب لتمثيل فكرة خاصة أو نحو خاص من أنحاء الحياة . بل ربما لم يكن قيس بن الملوح شخصا شعبيا « بكحى » وانما كان شخصا اخترعه نفر من الرواة وأصحاب القصص ليلهوا به الناس أو ليرضوا به حاجة أدبية أو خلقية سنعرض لها بعد قليل .

وهنا أعتذر الى الكاتب الأديب الذى خصص فى الشهر الماضى صحيفة من صحف «السياسة» لدرس المجنون وتحليل شعره والبحث عن عواطفه ، فأحسن البحث وأجاد التحليل . أعتذر اليه — بعد الثناء عليه — من أن أقول إنه أجهد نفسه فى غير طائل . ولو أنه سلك مسلكا آخر فى البحث لأفاد وانتفع ، ولاستطاع أن يكتب صحيفة من صحف «السياسة» يقصرها على المجنون ويثبت فيها لا أن المجنون

كان أرق الناس شعرا وأصدقهم حبا وأرقاهم عاطفة بل أنه كان رمزا لطائفة من الآراء وألوان من العواطف وفن من فنون الشعر والنثر ظهر فى العصر الأموى وكاد ينتهى الى غايته لولا أن العصر العباسى أقبل بلهوه وشكه ومجونه فأفسد على الناس كل شىء .

وقبل أن نتعمق فى بسط هذا الرأى و إثباته نريد أن نريح الكاتب الأديب وأصحابه الذين يؤمنون بالمجنون من هذه الخرافة ، ونبين لهم أن النقد الصحيح لا يستطيع أن يؤمن بوجود هذا الشاعر . وماذا تقول فى رجل لا يتفق الناس على اسمه ولا على نسبه ولا على الخطوب التى امتلأت بها حياته ، وانما يختلفون فى ذلك الاختلاف كله ؟ بل ماذا تقول فى رجل لا يتفق الرواة على أنه وجد ولا يروون ما يضاف اليه من الأخبار إلا متحفظين ؟ بل ماذا تقول فى رجل يريد أبو الفرج الأصبهانى أن يروى أخباره لأن شروط كتابه تضطره الى ذلك فيعلن ويبالغ فى الإعلان أنه يخرج من عهدة هذه الأخبار و يتبرأ منها و يضيف هذه العهدة الى الرواة الذين ينقل عنهم . وأنت تعلم ان رواة العرب — لا نتحدث الآن عن رواة السنة وانما نذكر رواة القصص والسير — لم يكونوا يتشددون فى الاحتياط ولا يبالغون فى الحذر . وكثيرا ما كانوا يروون غير الصحيح و يثبتون غير الحق . فاذا كانوا على هذا الإهمال والضعف ينكرون وجود قيس بن الملوح أو يشكون فيه أو لا يتفقون على اسمه وصفته وصروف حياته ، أفلا يكون من الحق علينا أن نتحفظ كما تحفظوا ونشك على نحو ما شكوا ، اذا لم يكن من الحق علينا أن نتخذ تحفظهم وشكهم دليلا على أن أخبار قيس بن الملوح انما هى نوع من الأساطير !

الرواة يختلفون فى وجود قيس ، فأما الثقات منهم فقد أنكروا وجوده أو تحفظوا فيه . ولست أريد أن أطيل عليك فى هذا وانما أحيلك الى كتاب الأغانى فى جزئيه الأول والثانى لترى من ذلك ما يغنيك . ولقد بالغ بعض الرواة فى إنكار وجود قيس حتى زعموا أن بنى عامر أغلظ أكبادا من أن يعبث بهم الحب الى هذا الحد ، وانما ذلك شأن اليمانية الضعيفة قلوبهم ، السخيفة عقولهم ؛ أما النزارية فلا . وتحدث

راوية آخر أنه مرّ ببنى عامر بطنًا بطنًا وسألهم عن المجنون فأنكروه ولم يعرفوه . وتحـدّث راوية آخر أنه سأل أعرابيا من بنى عامر عن المجنون فذكر طائفة كثيرة من المجانين وروى لكل واحد منهم شعرا إلا قيس بن الملوّح فانه أنكره ولم يعرفه .

ثم اختلف الرواة الذين آمنوا بوجود المجنون فى تسميته، فهو قيس عند بعضهم ومهدى عند بعضهم الآخر وهو الأقرع عند فريق والبحترى عنـد فريق آخر . ثم اختلفوا فى نسبه واسم أبيه . ثم اختلفوا فى أنه كان مجنونا حقا، فزعم ذلك منهم فريق وأنكره فريق آخر . وقال الأصمعى لم يكن مجنونا وانمـا كانت به أُوثة كأوثة أبى حَيَّة النُّمَيْرِى . ثم اختلفوا فى السبب الذى من أجله دعى المجنون، فزعم بعضهم أنه كان مجنونا حقا، وزعم بعضهم الآخر أنه دعى المجنون لشعر قاله وفيه لفظ المجنون، كما دعى النابغة بهذا الاسم لشعر قاله، وكما دعى فريق من الشعراء بأسماء وردت فى أشـعارهم ولم تكن أسماءهم . ثم اختلفوا فى سبب جنونه، فزعم بعضهم أنه الحب، وزعم بعضهم الآخر أن الله انتقم منه لأنه اعترض على قضائه فى قوله :

قضاها لغيرى وابتلانى بحبها * فهلّا بشىء غير ليلى ابتلانيا !

وزعم قوم أن هذا البيت لم يجر عليه الجنون وانمـا جرّ عليه البرص .

ثم أخذ الرواة يجتهدون فى تعليل هـذه الأخبار التى تنسب الى المجنون فرووا فى ذلك أحاديث مختلفة، منها — وهو أهمها — ما ذكره ابن الكلبى من أن فتى من فتيان بنى أميـة أحب فتاة من بنات أعمامه وقال فيهـا شعرا وكره أن يشتهر ذلك فاخترع شخص المجنون وصنع أخباره وأضاف اليه ما كان يقول من شعر .

وهناك قوم من الرواة لم تكن لهم صناعة إلا تلهية الناس والتسلية لهم؛ فكانوا يصنعون لذلك الأخبار والأشعار ويذيعونها فى البصرة والكوفة وبغداد من أمصار المسلمين، وكانوا يفيدون بذلك مالا كثيرا . بل هناك طائفة من ثقات الرواة أو من الذين تعدّهم ثقات كانوا قد برعوا براعة لاحدّ لها فى انتحال الأشعار والأخبار؛ وكان الناس قد آمنوا لهم ووثقوا بهم فكانوا يأخذون عنهم ما يروون على أنه حق لا شك

فيه . ولم يكن يشك فى روايتهم إلا نفر قليلون قد علموا علمهم وشاركوهم فيما كانوا فيه من عبث ولهو . ولست أذكر من هؤلاء الرواة إلا اثنين : أحدهما حمّاد الراوية ، والآخر خَلَف الأحمر . كلا هــذين الرجلين انتحل على العرب أخبارا وأشعارا لا تحصى ، وكلاهما كان يتكلم العربية و يجيدها خيرا مما يتكلمها و يجيدها الأعراب ، وكلاهما كان متّهما فى دينــه محبا للهو عاكفا على العبث . وكان من الشعراء المعاصرين لهما من يشاركهما فى اللهو والعبث والمجون فيضطلع بأسرارهما و يشــك فى صدقهما . ومن هنا كان كثيرا من الشعراء يلحّ على هذين الراو يتين وأمثالهما فى أن يستشهدوا بشعرهما كما يستشهدون بشعر القدماء ، وكانوا يعلمون أن شعر القدماء هذا لم يكن من القدماء فى شيء ، وانما كان يصنعه الرواة صنعة و ينتحلونه انتحالا . وقل مثل ذلك فى الأنساب ، وقل مثل ذلك فى السير وأخبار الفتوح والغزوات . وانظر الى سيرة ابن هشام والى هذا الشعر الكثير الذى يروى فيها وصفًا للغزوات والذى يرويه ابن هشام حتى اذا فرغ منه أضاف اليه هذه الجملة «قال ابن هشام : وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرون هذه القصيدة » .

(وجملة القول أن بين العرب والرومان من جهة و بين الفرس واليونان من جهة أخرى تشابها شديدا : انتصر العرب على الفرس انتصارا عسكريا ، وانتصر الفرس على العرب انتصارًا أدبيا ، وكذلك انتصر الرومان على اليونان انتصارًا حربيا ، وانتصر اليونان على الرومان انتصارًا أدبيا . وكان مظهر هذا الانتصار الأدبى فى روما وفى بغداد واحدا ، وهو أن اليونان والفرس أخذوا الرومان والعرب بآدابهم وحضارتهم . ولم يكتفوا بذلك بل عبثوا بالآداب اللاتينية والعربية فأدخلوا فيها وأضافوا اليها مالم يكن لهـا به عهــد . وكذلك صنعوا بالأنساب ، وكذلك صنعوا بالتاريخ والسـير . اذن فمن الحق علينا أن نشك فى أخبار هؤلاء الرواة حين يروونها واثقين ، وأن نبالغ فى الشك حين يروونها متحفّظين ، وأن نشتدّ فى المبالغة حين نراهم يختلفون فيما بينهم اختلافهم فى أمر المجنون .)

وطريقة أخرى نثبت بها هذا الرأى ، ولكنها طريقة فنية ليست من التاريخ فى شىء . وهى طريقة أدبيـة خالصة نرجو أن يلتفت اليها القارئ وأن يجـد فيها مقنعا . نعتمد فى هذه الطريقة على شعر المجنون أو على الشعر الذى ينسب الى المجنون ، فيثبت لنا الشعر نفسه إحدى اثنتين : إما أنه مصنوع متكلف قـد اختُرع اختراعا فهو لا يعبّر عن عاطفة صادقة ولا عن حب صحيح ، و إما أنه قد صدر عن أشخاص مختلفين ، ثم خلطه الرواة عمدا أو سهوا وأضافوه الى شاعر واحد هو المجنون . ولعل الجاحظ لم يخطئ حين قال : ماترك الناس شعرا فيه ليلى إلا نسبوه الى قيس بن الملوح ولا شعرا فيه لبنى الا نسبوه الى قيس بن ذريح . وفى الحق أن شعرا كثيرا ينسب الى المجنون وليس من المجنون فى شىء ، وانما قاله شعراء آخرون لم يكونوا مجانين ولم يعبث بهم الحب عبثه بهذا المجنون .

واذا أردت أن تدرس شاعرا من الشعراء فعلى أى قاعدة تعتمد فى هذا الدرس؟ على شخصية الشاعر قبل كل شىء . ذلك أن هـذا الشاعر يجب أن يتمثل فى شعره الى حد ما . فاذا كان شاعرا مجيدا حقا فشعره مرآة نفسه وعواطفه ومظهر شخصيته كلها بحيث تستطيع أن تقرأ قصائده المختلفة فتشعر فيهـا بروح واحد ونفس واحد وقوة واحدة . وقد يختلف هذا الشعر شدة ولينا و يتباين عنفا ولطفا ، ولكن شخصية الشاعر ظاهرة فيه محققة للوحدة الشاعرية التى تمكنك من أن تقول هـذا الشعر لفلان أو هو مصنوع على طريقة فلان . نظن أن هذه القاعدة لاتقبل الشك فى فن من فنون الأدب ولا سيما الشـعر الغنائى الذى هو مرآة النفس ومظهر العاطفة . فهل نستطيع أن نجد للمجنون شخصية ظاهرة بينة فى هـذه الأشعار الكثيرة المختلفة التى يرويها له أبو الفرج وغيره من الرواة ؟ أما أنا فأزعم أن ليس الى ذلك من سبيل . ولا أطيل فى إثبات هذا الرأى وانما ألخص لك خلاصة ما انتهيت إليه بعد البحث :

كل هذا الشعر الذى يضاف الى المجنون لا يخلو من أن يكون شعرا قد قاله شاعر معروف وأخطأ الرواة فأضافوه الى المجنون ، أو قاله شاعر مجهول ووجد الرواة فيه ليلى

فأضافوه الى المجنون، أو انتحله الرواة أنفسهم، أو انتحله المغنّون وأصحاب الموسيقى وأضافوه الى المجنون . ولقد أجهدت نفسي في البحث عن شخصية ظاهرة مشتركة تظهر في هذا الشعر كله أو بعضه فلم أوفق من ذلك الى شيء .

وطريقة أخرى نثبت بها رأينا في وجود المجنون، وهى اختلاف الرواة اختلافا شديدا فى هذه الصلة التى وجدت بين قيس بن الملوح و بين ليلى فنشأ عنها هذا الحب الذى ذهب بعقل قيس . يزعم قوم أنهما تعارفا طفلين وكانا يرعيان البهم فنشأت بينهما مودة استحالت مع السن حبا ، ثم شبّت الفتاة فحجبت عن الفتى ، فأصابه ما أصابه . و يزعم قوم آخرون أنهما لم يتعارفا طفلين،وانما مرّ قيس ذات يوم بفتيات فسلم فرددن السلام ودعونه الى الحديث، فنزل وتحدّث وصنع صنيع امرئ القيس فعقر ناقته وأطعمهن، ولكن فتى آخر أقبل مع المساء فتلاهين به عن قيس ؛ فانصرف قيس مغضبا وقال فى ذلك شعرا، ثم أصبح فتعرّض لهن فلم يجدهن وانما وجد ليلى فدعته الى الحديث فنزل وتحدّث وصنع كما صنع بالأمس ؛ وأظهرت ليلى إعراضها عنه فاغتمّ لذلك، ورأت ليلى هذا منه فرفقت به وأعلنت اليه حبها فى شعر لم يسمعه حتى خرّ مغشيا عليه . وزعم آخرون أن قيسا كان زير نساء ، وأن ليلى كانت أملح النساء قدًّا وأجملهن منظرا وأحسنهن حديثا ،وأن فتيات الحيّ كن يختلفن اليها ويجاذبنها أطراف الحديث، فسمع بها قيس فاختلف الى مجلسها فكان الحب . ورووا غير ذلك من الروايات . ولكني أكتفى بهذه الروايات الثلاث لأرى منها أن شخصية ليلى ليست أقل اختلافا وتفاوتا من شخصية قيس ، فهى فى إحدى الروايات راعية، وهى فى رواية أخرى فتاة بدوية تتعرّض للشبان وتميل الى حديثهم، وهى فى الرواية الثالثة أديبة ذات مكانة وصوت يختلف اليها الفتيان كما كانوا يختلفون الى مجالس النساء الأديبات فى الحواضر العربية . ألا ترى أن هذا الاختلاف وحده يكفى لحملك على الشك فى شخصية ليلى، كما أن الاختلافات الأخرى تكفى لحملك على الشك فى شخصية قيس !

ثم لا يقف الأمر عند هـذا الحد ، وانما هناك ألوان من السخف والتكلف تنتهى بنا الى هذا الرأى الذى أحاول إثباته . منها هـذه الرواية التى تزعم لنا أن أبا ليلى كره تزويج ابنته من عاشقها لا لشىء إلا لأنه أحبها وذكر ذلك فى شعره ، فكره الرجل أن يفتضح وأن يفضح ابنته . ونلاحظ أننا نجد هذا المذهب فى أخبار طائفة من هؤلاء العشاق تختلف قبائلهم وأخبارهم وأوطانهم . ويقول الرواة لنا إن هـذه كانت خصلة من خصال العرب . ولست أدرى : أحق هذا؟ ولكنى أرجح أن هذا مذهب اخترعه الرواة ليخلقوا منه أشخاص القصص الغرامية التى كانوا يضعونها لتلهية الجمهور وتسليته، على نحو هذه المذاهب التى نجدها فى أحاديث العامة وأقاصيصهم. فقلما تقرأ أحدوثة من هذه الأحاديث أو طائفة من هـذه الأحاديث إلا رأيت فيها مذهبا معيّنا منه اخترعت القصة . ولأضرب لك مثلا أمر الغول فى أحاديث هؤلاء الشبان الذين يرتحلون الرحلات الطويلة يسعون الى أمر عظيم فلا يكادون يجاوزون أوطان الناس حتى تعترضهم غول أو وحش يشبه الغول . وهلم جرا ...

ومن ذلك مايتحدّث به الرواة من أن السلطان أهدر دم قيس اذا تعرّض لليلى بعد أن حجبت عنه . وهـذا مذهب نجده أيضا فى أخبار قيس بن ذريح وغيره من هؤلاء العشاق . ويحق لنا أن نتساءل : أكان الخلفاء قـد فرغوا من أعمالهم العامة المختلفة لهؤلاء العشاق يهدرون دمهم حينا ثم يعصمونه حينا آخر؟ وعلى أى نحو من أنحاء الشرع كانوا يعتمدون فى إهدار هـذه الدماء لا لشىء إلا لأن رجلا أحب فى عفة وتغنى حبه فى عفة؟ انما هو مذهب فى القصص الغرامى كهـذا المذهب الذى نقدّم. ومن ذلك مايذكرون من توحش قيس وإمعانه فى التوحش حتى ألف الظباء وألفته الظباء فعايشهن وعايشنه . واضطر مخترع هذه الأحدوثة الى أن يحتال حتى يبلغ أراكة كان قيس قد أنس فيها الى سرب من الظباء؛ فلما بلغ هذه الأراكة على غير حسّ من قيس ولا من سربه احتال حتى ارتقى واختفى بين أغصانها ثم أخذ يحدّث قيسا فنفرت الظباء وكاد ينفر قيس لولا أن محدثه ذكر اسم ليلى، فأنس له قيس ومضى فى حديثه حتى سنحت له ظبية فتبعها . كل هذا من سخف الرواة، مانحسب

أن له ظلا من الحق وانما هو ضرب من المبالغة فى تأثير الحب كان الرواة يحتاجون اليه حين تفرغ أحاديثهم المعقولة . وهو آية على أن المخترع ضعيف الحظ من القصص الغرامى يعييه المعقول فيلجأ الى المحال .

وعلى هذا النحو من النقد استطاع مؤرخو الآداب اليونانية أن يفرقوا بين فصول «الإلياذة» وأناشيدها المختلفة . فما كان منها محالا مفعما بالمبالغات أضافوه الى شاعر ضعيف قليل الحيلة، وما كان منها معقولا أو كالمعقول لا يلتمس اللذة الفنية فى الإحالة والإغراق أضافوه الى شاعر بارع واسع الحيلة .

أظن أن هذا كله يكفى للشك فى شخصية المجنون إن لم يكف لإنكار هذه الشخصية . ولكن الشك والإنكار عقيمان بطبعهما . وليس من الخير أن ينتهى عندهما الباحث الا اذا اضطر الى ذلك اضطرارا . وبين يدينا أخبار وأحاديث تصف عاشقا آلمه العشق وأودى بعقله وحياته، بل تصف عشاقا مختلفين عبث بهم الحب هذا العبث . وهذه الاخبار والأحاديث تشترك فى أشياء وتختلف فى أشياء . تشترك مثلا فى أن الأشخاص جميعا من أهل البادية ، وفى أن حبهم كان عفيفا بريئا ، وفى أنهم قد لقوا فى هذا الحب جهدا عظيما ، وفى أنهم قد تغنوه فى الشعر الجيد، وتتفق فى وصف هذا الحب وأساليبه والمصاعب التى قامت دونه وتدخُّل الخلفاء أو الولاة فيه الى حد ما . وتختلف فى أشخاص العشاق والعشيقات وقبائلهم وأساليبهم فى الحب والشعر وألوان العناء الذى تكلفوه، كما تختلف فى انتهائها، فمنها ماينتهى الى شر ومنها ماينتهى الى خير . فلا بد من أن يكون هناك مصدر لهذا الاتفاق، ومصدر لهذا الاختلاف ، ولا بد للباحث المحقق الذى ينتهى به البحث الى إنكار قيس ابن الملوح والغض من شخصية قيس بن ذريح من أن يقيم مكان هؤلاء الأشخاص أشخاصا آخرين أو أشياء أخرى ، وإلا كان بحثه عقيما وكانت نتائجه أثرا من آثار التحكم الذى لاخير فيه . وأنا أريد أن أقيم مكان قيس بن الملوح وقيس بن ذريح

وجميل بن معمر وعروة بن حزام أشياء لا أشخاصا، أو بعبارة أدق : أريد أن أقيم مكانهم شيئا واحدا هو فن القصص الغرامى الذى أعتقد أنه ظهر أو على أقل تقدير قوى وعظم أمره أيام بنى أميـة، وأخذ ينظّم شيئا فشيئا حتى كاد يكون فنا مستقلا على نحو ما نرى من فنون القصص الغرامى فى الأدب الحـديث . فليس يعنينى أن يكون شخص قيس بن الملوح تاريخيا أو غير تاريخى، وانما الذى يعنينى أن هناك قصة غرامية هى قصة قيس بن الملوح، وقصة غرامية أخرى هى قصة قيس بن ذريح، وقصة غرامية ثالثـة هى قصة جميل بن معمر وهـلم جرا ... أنا اذن بإزاء قصص غرامية اخترعها الخيال لا بإزاء عشاق . فاذا أردتُ أن أبحث فلست أبحث عن هؤلاء العشاق فهم لا يعنوننى، وانما أبحث عن واضع هذه القصة وقيمته ومقدرته فى الشعر والنثر . أبحث عن هذا الفن الأدبى الذى لم يكن للعرب به عهد قبل الإسلام والحضارة الإسلامية، والذى ظهر بعـد الإسلام وحين أخذت الحضارة الإسلامية تزهر وتبسط سلطانها على العقول .

نعم ! أنا أعلم حق العلم أن هناك صعوبات كثيرة تحول بينى و بين إتقان هذا البحث . أوّل هذه الصعوبات أن هذه القصص الغرامية لا تنسب الى كاتب بعينه ولا الى كتّاب معروفين . فلسنا ندرى من واضع قصة المجنون، أو قصة قيس بن ذريح . و إذن فقد نتكلف كثيرا من العناء فى البحث عن شخصية هؤلاء القصاص دون أن ننتهى الى نتيجة . وقد يكون كل ماننتهى اليه أننـا أنكرنا أشخاصا معروفين دون أن نصل الى أشخاص آخرين . أنكرنا أشخاص الشعراء دون أن نصل الى أشخاص القصّاص . ومع ذلك فلِمَ نتكلف البحث عن أشخاص القصاص اذا لم يكن اليهم سبيل ؟ أليس يكفينا أن نثبت ما بين هذه القصص من التفاوت والاختلاف وما يمتاز به بعضها من بعض من الجودة والإتقان والمهارة القصصية والبراعة الشعرية ؟ أليس يكفينا أن نصل بوجه ما الى تحديد هذا الفن الأدبى وتبيين صفاته الخاصـة التى تميزه من غيره من الفنون ؟ ثم أليس يكفينا ما قد نوفّق اليه من إظهار الأسباب

الأدبية والخلقية والسياسية التى دعت الى ظهور هذا الفن أيام بنى أمية، ومن إظهار الأسباب الأخرى التى دعت الى ذبوله ثم الى فنائه أيام بنى العباس ؟ ألسنا إن وُفّقنا الى هذا كله أو بعضه نكون قد استكشفنا فى الأدب العربى فنا كان الناس يجهلونه و يغفلون عنه؟ ثم ألسنا باستكشاف هذا الفن و وصفه و إظهار خصاله أنفع للأدب العربى ومجد الأمة العربية من هؤلاء الذين يقصرون بحثهم على الأشخاص ولا يتخذون لبحثهم غاية إلا تملّق أنفسهم وتملق الجمهور ؟ نعتقد أن فى هـذا النحو من البحث نفعا عظيما، ولهذا نريد أن نمضى فيه حتى نتمه فى الفصول الأخرى .

البوليجين، فى ٢٠ أغسطس سنة ١٩٢٤

الغزلون والغزل[1]

نشأته وأسبابها — فن القصص الغرامى

لذيذة جدا قراءة الأغانى فى أرض ما أحسب أنه قرئ فيها قبل اليوم، فى أقصى الغرب الفرنسى . نعم ! فقد اصطحبت معى هذا الكتاب وما قرأت فيه يوما إلا ذكرت قصة ذلك القديم الذى كان كلما ارتحل اصطحب أجمالا تحمل له ما يحتاج اليه من الكتب فى رحلته ، فلما ظهر كتاب الأغانى استغنى عن تلك الأجمال وما كانت تحمل من أسفار واكتفى باصطحاب هذا الكتاب . أذكر هذه القصة كلما قرأت فى كتاب الأغانى، وليس يعنينى أن تكون القصة صحيحة أو غير صحيحة، ولكنى أؤكد أن فى هذا الكتاب ما يغنى عن الأجمال وعما يمكن أن تحمل من أسفار ، وأن من اليسير جدا أن يستغنى به الباحث عن كثير من كتب الأدب والتاريخ . ولكن شأن الأغانى فى هذه الأيام كشأن غيره من كتب الأدب والتاريخ التى تركها لنا القدماء، فهو — كهذه الكتب — فى حاجة شديدة جدا الى أن يقرأ والى أن يفهم والى أن يستخلص منه العلم على النحو الذى يلائم العقول فى هذا العصر الذى نعيش فيه . ولقد يكون من الحق أن كثيرا من الشبان والشيوخ فى مصر وفى غيرها من البلاد الشرقية يستطيعون أن يقرءوا هذا الكتاب وغيره من كتب الأدب والتاريخ دون أن يستفيدوا منها فائدة قيمة، بل ربما كانت قراءة هذه الكتب بعيدة كل البعد عن أن تنفعهم أو تجدى عليهم . ذلك أن اختلاف العصور شديد الأثر فى العقول وفى حاجاتها وفى استعدادها للفهم والدرس، فقد كان القدماء يجدون فى أخبار أبى الفرج وفى أخبار الطبرى ما يكفيهم ويسد حاجتهم الى الحفظ والرواية، وكان

---

(١) نشرت بجريدة « السياسة » فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

ما كتب أبوالفرج والطبرى وغيرهما من الأدباء والمؤرخين ملائما كل الملاءمة لعقول هؤلاء الناس الذين كانوا لا يبتغون من الأدب والتاريخ مثلما نبتغى نحن الآن، والذين كانوا يستطيعون أن يتركوا عقولهم ومنطقهم اذا عرضوا لقراءة مثل هذه الكتب، وألا يعتمدوا على هذه العقول ولا على هذا المنطق إلا اذا عرضوا للفلسفة أو الكلام أو الفقه أو نحو ذلك من العلوم التى تحتاج الى النظر وتدعو الى الجدال. كانوا يعتمدون فى قراءة الأدب والتاريخ على الرواية من جهة وعلى الذوق من جهة أخرى، وكانوا يرضون الرضا كله اذا رويت لهم الأخبار عن هؤلاء الثقات الذين اعتمد عليهم القدماء فى نقل السير والأخبار، كما كانوا يرضون الرضا كله اذا وقعت اليهم القصيدة الجيّدة أو المقطوعة المختارة فلاءمت أذواقهم ومثلهم الأعلى فى الفن .

أما نحن فأشدّ من هؤلاء القدماء طمعا وأكثر منهم تحفّظا ، لا تكفينا أسماء الثقات من الرواة ولا يكفينا جمال القصيدة وجودة المقطوعة، وانما نريد أن نتخذ كل شىء موضوعا للبحث والنقد والتحقيق والتحليل، ولا نكاد نفرق فى ذلك بين الأدب والعلم . ونحن محقون، لأننا لا نبتغى من الأدب والتاريخ رواية الأعاجيب والعظات ولا إرضاء الذوق والميل الفنى، وانما نتخذ الأدب والتاريخ مرآة للأمم وسبيلا الى فهم حياتها العقلية والشعرية والى فهم ماخضعت له من ألوان النظم المختلفة . واذن فنحن أشد طمعا من القدماء وأكثر منهم حرصا على التحقيق وميلا الى التحليل. واذن فليس يكفينا أن نقرأ الأغانى وتاريخ الطبرى ، وانما نريد أن نفهم هذين الكتابين وأمثالها على الوجه الذى يلائم طريقتنا فى الفهم ومنهجنا فى الدرس والتحليل . ومن هنا لا يجد القرّاء جميعا لذة ولا مقنعا فى قراءة كتب القدماء، لأنهم جميعا لا يملكون مناهج البحث القيّم عن آثار القدماء . ومن هنا كان من الحق أن نقول : إن كتاب الأغانى وتاريخ الطبرى وأمثالها ليست كتب أدب وتاريخ وانما هى مصادر للأدب والتاريخ . ومن هنا نستطيع أن نقول : إن اللغة العربية تخلو الى اليوم وستخلو من كتب الأدب والتاريخ الى أن يتيح لها الله كتبا فى هذين الفنين تلائم عقولنا الحديثة وتحقق أطماعنا الحديثة وترضى حاجاتنا العلمية والفنية .

ولكن مالى ولهـذا النحو من الكلام وأنا انما ابتدأت هذا الفصل لأتحدث اليك عن الغزلين وأخبارهم، أو لأتحدث اليك عن القصص الغرامى أيام بنى أمية! وكيف استبحت لنفسى أن أجاوز هذا الموضوع المحدّد الى هذا النحو من نقد كتب القدماء والحكم عليها أوْلها! ذلك أنى أريد أن أنتقل من هذا النقد الى تفسير هذه المواقف المختلفة التى أقفها من كتب القدماء وآداب القدماء وأحكام القدماء، والتى يدهش لها كثير من المعاصرين ويسخط عليها كثير من المتعصّبين. فأنا لا أفهم الأدب العربى كما كان يفهمه القدماء وكما لا يزال يفهمه أنصار القديم من أدباء اليوم. وأنا لا أحكم على الظواهر الأدبية كما كان يحكم عليها القدماء وكما لا يزال يحكم عليها شيوخ الأدب فى أيامنا، وانما أفهم الأدب العربى وأحكم على ظواهره كما ينبغى أن يفهمه ويحكم على ظواهره رجل يعيش فى القرن العشرين، ويفهم كما يفهم أهل هذا القرن، ويطمع فى مثل مايطمع فيه أهل هذا القرن، ويرى كيف يفهم الأوروبيون أدب اليونان والرومان وغيرهم من الأمم القديمة. وهو لا يقلدهم تقليدا ولا يتكلّف محاكاتهم، وانما كذلك فُطر وعلى هذا النحو وحده يستطيع أن يفهم. فليس عليه لوم ولا جناح اذا لم يستطع أن يأخذ روايات القدماء كلها على أنها نقد رائج كما يقول الفرنسيون، ولا أن يصدّق هذه الروايات، لا لشىء إلا لأن الثقات قد رووها. فهو يعتقد أن هؤلاء الثقات قد يخطئون فى الرواية وقد يخطئون فى الفهم. وقد يكون من الحق أنهم عاشوا فى عصرهم دون أن يفهموه، كما يعيش كثير منا فى عصرنا دون أن يفهموه. واذن فمن حق عليك ألا تسرف فى لومى اذا رأيتنى أنكر ما يروى من أخبار المجنون وقيس بن ذريح وجميل وغيرهم من الغزلين، بل الحق عليك أن تمضى معى فى هـذه السبيل التى أنتهجها والتى ينبغى أن تكون سبيلك اذا أردت أن تعيش فى عصرك حتى ننتهى معا الى أقصاها، فإما أن نتفق واذن فهو الخير، وإما أن نفترق واذن فلا بأس عليك ولا علىّ.

أنا اذن أرى فى العصر الأموى رأيا يخالف آراء النـاس، كما رأيت فى العصر العباسى رأيا يخالف آراء الناس. أرى أن الرواة والأدباء لم يفهموا عصر بنى أمية

على وجهه وانما تورّطوا بالقياس اليه فى ألوان من الخطأ مصدرها فى أكثر الأحيان أنهم لم يحكّموا العقل والنقد ، وانما اكتفوا بالذوق وعدالة الرواة . ولست أريد أن أجاوز موضوع البحث الى أكثر من هذا الحدّ . فلنعد اذن الى حيث ابتدأنا من أمر الغزلين .

أذكر أنى عرضت فى السنة الماضية للغزل أيام بنى أمية فقسمته ثلاثة أقسام مختلفة، أحدها غزل العذريين الذين كانوا يتغنون فى شعرهم هذا الحب الأفلاطونى العنيف ، كجميل وعروة وقيس بن ذريح والمجنون . والثانى غزل الإباحيين الذين أسميهم « المحققين » وهم الذين كانوا يتغنون الحب ولذاته العملية كما يفهمها الناس جميعا . وزعيم هؤلاء عمر بن أبى ربيعة . والثالث الغزل العادى الذى ليس هو فى حقيقة الأمر إلا استمرارًا للغزل القديم المألوف أيام الجاهليين، أريد به الغزل الذى لايقصد لذاته كما يقول أصحاب المنطق ، وانما يتخذ وسيلة الى غيره من فنون الشعر : الى المدح والهجاء والوصف ونحوها، أريد به هذا الغزل الذى كان يبتدئ به الجاهليون قصائدهم والذى ظل يبتدئ الإسلاميون به قصائدهم الى اليوم ، وهو الغزل الذى نجده فى شعر جرير والفرزدق والراعى وغيلان وغيرهم من شعراء هذا العصر . وما أزال أحتفظ بهذا التقسيم دون أن أغير منه شيئا . ولكنى لست فى حاجة اليوم لأعرض لهذا الغزل العادى الموروث، فقد يكون خضع للتطور فى العصر الاسلامى كما خضع للتطور غيره من فنون الشعر . وقد نعرض لهذا فى يوم من الأيام، وانما أُعْنَى عناية خاصة بالقسمين الأولين : غزل «العذريين» من جهة، وغزل « المحققين » من جهة أخرى . وأحاول أن ألتمس الأسباب المختلفة التى أنشأت هذين الفنين فى أيام بنى أمية . فألاحظ شيئا أحب أن يلتفت اليه القرّاء وهو أنا لانجد هذين النوعين من الغزل فى الشام ولا فى العراق ولا فى مصر، وانما نجدهما فى الحجاز وما يليه من البلاد العربية الخالصة . أما الشام والعراق وهما الإقليمان اللذان كانا مجتمع الحياة السياسية الأموية، اذ كانت الشام مستقر الخلافة وكان العراق مستقر المعارضة، أقول أما الشام والعراق فلا نجد فيهما إلا نوعين من الشعر :

أحدهما الشعر العادى من مدح وهجاء ووصف . والثانى الشعر السياسى الذى كانت تتناضل فيه الأحزاب . وإذن فما تفسير هذه الظاهرة؟ وما بالنا لا نجد الغزل بقسميه إلا فى الحجاز وما يليه من البادية ؟

ثم هناك ملاحظة أخرى أحب أن يلتفت اليها القرّاء أيضا ، وهى أن هذين القسمين من الغزل كانا متقاربين لا متجاورين ، أريد أن العذريين والإباحيين كانوا جميعا فى الحجاز وما يليه . ولكنهم لم يكونوا يعيشون فى بيئة واحدة وانما كان فريق منهم يتحضّر وفريق منهم يبدو . فأما المحققون أو الإباحيون فكانوا يتحضرون يعيشون فى مكة والمدينة . وأما العذريون فكانوا يبدون يعيشون فى بادية الحجاز أو نجد . ((وفى الحق أن عمر بن أبى ربيعة كان مكيا قضى حياته كلها فى مكة، وأن الأحوص ابن محمد كان مدنيا قضى حياته فى المدينة . وفى الحق أيضا أن جميلا كان بدويا يعيش فى وادى القرى ، وأن قيس بن ذريح كان بدويا يعيش فى بادية المدينة ، وأن المجنون — إن صحت أخباره — كان نجديا يعيش فى بادية نجد . وإذن فالغزل بقسميه عربى خالص. ولست أريد بهذا اللفظ معناه العام، وانما أريد معناه الجغرافى، أى أن هذا الغزل بقسميه قد نشأ فى جزيرة العرب خاصة ؛ فاما عفيفه فكان فى البادية، وأما القسم الآخر فكان فى الحاضرة .))

وملاحظة أخرى أحب أن يلتفت اليها القرّاء أيضا ، وهى أنا اذا درسنا أخبار الغزلين المحققين أو الإباحيين رأيناهم كلهم أو أكثرهم من أبناء المهاجرين والأنصار أو من المتصلين اتصالا قويا بأبناء المهاجرين والأنصار . واذا درسنا أخبار العذريين رأيناهم من قبائل أعرابية ليس لها شأن عظيم فى الإسلام، وانما هى محتفظة احتفاظا شديدا ببداوتها القديمة وعاداتها الجاهلية الموروثة . أفلا نستطيع أن نستخلص من هذه الملاحظات كلها شيئا ؟ بلى ! ولكنى أريد أن أضيف اليها قبل الاستنتاج ملاحظة أخرى، وهى أنا نجد فى الحجاز وفى مكة والمدينة خاصة فنا آخر نشأ مع هذا الغزل الإباحى وهو فن الغناء . ولست فى حاجة الى أن أثبت لك أن الغناء نشأ فى الحجاز وأنه أزهر فى مكة والمدينة وأنه لم يكن فى دمشق إلا غريبا، كان يرتحل

اليها من الحجاز حين كان يطلبه الخلفاء . فماذا نستطيع أن نستنتج من هذا كله ؟ نستطيع أن نستنتج أن بلاد العرب — بعد أن تم الفتح للمسلمين وبعد أن جاهدت فى الاحتفاظ بالسلطان السياسى وفشلت فى هذا الجهاد فشلا شنيعا وانتقل مركز الحكم منها الى الشام كما انتقل مركز المعارضة منها الى العراق — انصرفت أو كادت تنصرف عن الاشتراك فى الحياة العامة، وفرغت للحياة الخاصة فانكبت على نفسها وأحست شيئا من اليأس والحزن غير قليل . فهى كانت مهد الإسلام ومصدر قوته ، ومنها انبعثت الجيوش الفاتحة التى أخضعت الأرض وأزالت الدول ، وفيها نشأت الخلافة، ومنها امتد سلطان الخلافة على الأرض . ثم هى ترى نفسها جردت من كل شيء،فانتقلت عاصمة الخلافة الى الشام،وانتقل جهاد الأحزاب السياسية الى العراق، وأساء خلفاء الشام ظنهم ببلاد العرب فعاملوها معاملة شديدة قاسية وأخذوها بألوان من الحكم لا تخلو من العنف .

ثم لم تكن هذه البلاد العربية خاضعة لليأس وحده،وانما كانت خاضعة لشيء آخر يناقض اليأس أشد المناقضة، أو قل يلائم اليأس أشد الملاءمة، نريد به الثراء ووفرة المال (فقد كان أبناء المهاجرين والأنصار فى مكة والمدينة مثرين، وكانت أيديهم ممتلئة بما ورثوا من هذا الفيء الذى أفاءه الله على آبائهم أيام الفتح ، ثم كانوا يحتفظون بمكانتهم ويمثلون الأرستقراطية العربية، ثم كان الخلفاء يصانعونهم وإن كانوا يعاملونهم معاملة قاسية، كانوا يكرمونهم إكراما ماديا، كانوا يدرون عليهم الأموال ويوسعون عليهم فى العطاء مراعاة لمكانتهم واصطناعاً لهم، وكانوا فى الوقت نفسه يمسكونهم بمعزل عن الحياة السياسية العملية . واذا اجتمع اليأس من الحياة العملية الى الثروة والغنى فماذا عسى أن ينتجا ؟ اللهو والإسراف فيه والعكوف عليه . وكذلك أنتج اليأس والثروة فى مكة والمدينة ، فلها هؤلاء الشبان الأشراف الأغنياء اليائسون: وأسرفوا فى اللهو وتعزوا به عن هذه الخيبة التى أصابتهم فى الحياة العامة . ومن هنا نشأ عمر بن أبى ربيعة وأمثاله فى مكة ، ونشأ الأحوص بن محمد وأمثاله فى المدينة، ونشأت حولهم هذه الطوائف من المغنين وأهل المزاح .)

والى جانب اليأس والثروة وآثارهما فى مكة والمدينة نستطيع أن نضيف مؤثرا آخر عمل فى بادية الحجاز وما يليها من البلاد العربية . ونحن قبل أن نذكر هذا المؤثر نعلن أنه فى حاجة شديدة الى الدرس، وأنه قد أظهر آثاره فى مظاهر مختلفة ، وأنه قد يجد صعوبة شديدة من شيوخ الأدب فى هذه الأيام . وما نحسب أنهم يقرون رأينا فيه ، ولكنه مع ذلك حق لا سبيل الى الشك فيه ، وهو نتيجة اليأس مع الفقر، نريد به الزهد وشيئا يشبه التصوف .

كان أهل مكة والمدينة يائسين ولكنهم كانوا أغنياء، فلهَوْا كما يلهُو كل يائس . وكان أهل البادية الحجازية يائسين ولكنهم كانوا فقراء فلم يتح لهم اللهو ، وقد حيل بينهم وبين حياتهم الجاهلية، وقد تأثروا بالاسلام وبالقرآن خاصة، فنشأ فى نفوسهم شيء من التقوى ليس بالحضرى الخالص وليس بالبدوى الخالص ، ولكن فيه سذاجة بدوية وفيه رقة إسلامية . وانصرف هؤلاء الناس عن حروبهم وأسباب لهوهم الجاهلى كما انصرفوا عن الحياة العملية فى الإسلام الى أنفسهم فانكبوا عليها واستخلصوا منها نغمة لاتخلو من حزن، ولكنها نغمة زهد وتصوّف . وأنا أعلم أن لفظ التصوّف هنا لا يؤدّى معناه الذى أريده، فقل إنهم انصرفوا الى شيء من المثل الأعلى فى الحياة الخلقية . وظهر هذا الزهد أو هذا الميل الى المثل الأعلى مظهرين مختلفين اختلافا شديدا : أحدهما الزهد الدينى الخالص الذى قد تجد له صدى فى أشعار هؤلاء الخوارج الذين كانوا يتركون هذه البوادى لينضموا الى جيوش الخوارج فى بلاد الفرس، والذين يظهر فى شعرهم شيء من الزهد والتقوى وشدّة الإيمان وسذاجته لاتجده فى شعر غيرهم من الشعراء . والثانى هذا الغزل العفيف الذى هو فى حقيقة الأمر مرآة صادقة لطموح هذه البادية الى المثل الأعلى فى الحب من جهة ، ولبراءتها من ألوان الفساد التى كانت تغمر أهل مكة والمدينة من جهة أخرى . اذن فهذان القسمان من الغزل أثر من آثار الحياة السياسية فى أيام بنى أمية . اضطرت هذه الحياة السياسية أهل الحجاز الى الابتعاد عن العمل وأوقعت فى قلوبهم

اليأس ، ولكنها أغنت قوما فلهوا وفســقوا ، وأفقرت قوما آخرين فزهدوا وعفّوا وطمحوا الى المثل الأعلى . كذلك أفسّر ظهور هذين الفنين من الغزل .

ثم لاينبغى أن أنسى مؤثّرا آخر أثّر فى هذين الفنين تأثيرا عظيما وهو الغناء. فليس من شك فى أن المغنين كانوا يتخذون أشعار الإباحيين من أهل مكة والمدينة ، والعذريين من أهل البادية موضوعا للحن والغناء . ولكن هــذه الأشعار التى كانت تصدر صدورا طبيعيا عن الفريقين كانت بطبيعتها أقل من أن تكفى حاجة المغنين وهــذه الألوان المختلفة التى كانوا يتخذونها من اللحن والغناء . واذن فقد كان هؤلاء المغنون أنفسهم يصطنعون ضروبا من الشعر الإباحى والعذرى يغنّون فيها . وربمــا كان هناك شعراء يصنعون لهم هذه الضروب من الشعر ويضيفونها الى أهل البادية حينا والى أهل الحاضرة حينا آخر . ومن هنا تجد فى هــذه الأشعار التى تضاف الى الفريقين من الغزلين ألوانا مختلفة من الشعر ، منها ما لا تشك فى أنه فطرى قد صدر عن الطبيعة دون تكلّف ولا تصنّع ، لأنه يصف عاطفة قوية أو يمثّل شعورا حادًّا أو يحتفظ ببــداوة لا تحتمل الشك . ومنها ماتظهر فيــه الصنعة ويلمس فيه التكلف لمسا، وتشعر حين تقرؤه أو تسمعه أنه قد عمل ليغنًّى فيه لا ليصف عاطفة ولا ليمثل شعورا .

نحسب أنا قد وصفنا مع ما تحتمله صحيفة ســيارة من الوضوح نشأة النسيب أيام بنى أمية والأسباب التى دعت اليها . وقد أطلنا فى هذا وتعمدنا الإطالة، لأنه سيعيننا على فهم الموضوع الذى ندرسه، وهو القصص الغرامى أيام بنى أمية .

نعتقد — ونرجو ألا يغضب المحافظون من الأدباء — أن القصص الغــرامى أثرمن آثار الغزل بقسميه لا أن الغزل أثر من آثار هذا القصص . نعتقد أن الشعراء من أهل البادية والحاضرة فى البلاد العربية تأثروا بكل هذه المؤثرات التى ذكرناها، فقالوا ما قالوا من الشعر العفيف وغير العفيف وغنّى فيه المغنون ، ثم كثر هذا الشعر واحتاج الناس الى تفسيره ووصل بعضه ببعض؛ فنشأت لإرضاء هذه الحاجة هذه

الأقاصيص الغرامية التى يمتلئ بها كتاب الأغانى وغيره من كتب الأدب . وقد يميل الباحث الى أن يفترض عكس ماقدمنا فيقدر أن هذه الأقاصيص أنشئت بادئ بدء لتلهية الناس وتسليتهم ، وأن القصّاص انتحلوا هذا الشعر الغرامى على اختلاف ألوانه تحليةً لقصصهم ومبالغة فى تعظيم شأنها . ولكن هذا الافتراض بعيد عن أن يلائم الحق . فهو يستلزم أن يكون كل شيء فى هذه القصص وفى هذا الشعر متكلفا مصنوعا . وقد قدّمنا أن هذا الشعر ظاهرة طبيعية فى البلاد العربية . والأشبه هو ماذهبنا اليه من نشأة الغزل بقسميه أوّلا ، ثم نشأة القصص حول هذا الغزل ثانيا .

على أننا لاننكر أن كثيرا من هذا الشعر قد انتحله القصّاص وتكلفوه تحلية لقصصهم وتزيينا لها وتعليلا لما ورد فيها من الأخبار . ويكفى أن تقرأ أخبار هؤلاء الشعراء فى الأغانى وغيره لتتبيّن من هذا الشعر شيئا كثيرا .

وخلاصة القول فى هذا الموضوع أنا لانشك فى أن شعراء من أهل البادية والحاضرة فى الحجاز قد انقطعوا لهذين النوعين من الغزل فأجادوهما وأكثروا منهما . ثم نشأت حول أشعارهم قصص ليس لها غرض إلا تفسير هذه الأشعار ووصلها واتخاذها وسيلة الى تسلية الناس . واذن فلسنا ننكر وجود جميل ، بل لسنا ننكر أنه أحب بثينة . ولسنا ننكر وجود قيس بن ذريح ، بل لسنا ننكر أنه تغزل فى لبنى . ولكنا نزعم أن هذه الأخبار التى تروى عن حب جميل وقيس لبثينة ولبنى مصنوعة متكلفة فى أكثر الأحيان ، وأن تكلفها أحدث الى جانب هذين الفنين الشعريين اللذين ذكرناهما فنا نثريا جديدا هو فن القصص الغرامى .

والآن يحسن أن نتخذ هذه القصص أنفسها موضوعا للبحث فى فصل نقارن فيه بينها ونبيّن مالها من مزايا ومالها من عيوب ، حتى اذا فرغنا من ذلك عمدنا الى الشعر الغزلى نفسه فاتخذناه موضوعا للبحث . وسيكون هذا كله موضوع الأحاديث المقبلة م

البوليجين ، فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٤

الغزلون وأخبارهم [1]

تحدث الأصمعى قال: « سألت أعرابيا من بنى عامر بن صعصعة عن المجنون العامرى فقال: عن أيهم تسألنى ؟ فقد كان فينا جماعة رُمُوا بالجنون فعن أيهم تسأل ؟ فقلت : عن الذى يشبّب بليلى ؛ فقال : كلهم كان يشبب بليلى ؛ قلت : فأنشدنى لبعضهم ؛ فأنشدنى لمزاحم بن الحارث المجنون :

ألا أيها القلب الذى لجّ هائمـا * وليـدًا بليلى لم تُقَطَّعْ تمائمـه
أَفِقْ قد أفاق العاشقون وقد أَنَى * لك اليوم أن تلقَى طبيبا تلائمه
أجدّك لا تنسيك ليـلى ملمةٌ * تُـلِمُّ ولا عهـدٌ يطول تقادُمه

قلت : فأنشدنى لغيره منهم ؛ فأنشدنى لمعاذ بن كليب المجنون :

ألا طالما لاعبتُ ليلى وقادنى * إلى اللهو قلبٌ للحسان تَبُـوعُ
وطال امـتراء الشوق عَيْنَيَّ كلما * نزفت دموعًا تستجِدّ دموع
فقد طال إمساكى على الكبد التى * بها من هوى ليلى الغداةَ صُدُوع

قلت : فأنشدنى لغير هذين ممن ذكرت ؛ فأنشدنى لمهدى بن الملوح :

لَوَ آنّ لك الدنيا وما عدلت به * سواها وليـلى حائلٌ عنك بَيْنُها
لكنت إلى ليـلى فقيرا وإنما * يقود إليهـا وُدّ نفسك حَيْنُها

قلت له : فأنشـدنى لمن بقى من هؤلاء ؛ فقال : حسبك ! فوالله إن فى واحد من هؤلاء لمن يوزن بعقلائكم اليوم !

ولو سأل الأصمعى أعرابيا آخر غير هذا الأعرابى من قبيلة أخرى غير قبيلة بنى عامر عن شاعر من شعراء قومه نسب بليلى أو ببثينة أو بلبنى أو بعزّة أو بريّا ، لأجابه

---

(١) نشرت بجريدة « السياسة » فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

الأعرابيّ نفس هذا الجواب أو شيئا يشبهه ، ولأنشده شعرا كثيرا لشعراء كثيرين كلهم ينسب بفتاة من فتيات قومه وُجدت حقا أو اخترعها خياله اختراعا .

ذلك أن الأمر كما قلت لك في الفصلين الماضيين من أن عصرا قد مرّ على الحجازية بدوهم وحضرهم تأثروا فيه بتلك المؤثرات التي فصلتها ، فظهر فيهم الغزل بقسميه : العفيف وغير العفيف . ومهما يقل القائلون فلن يستطيعوا أن يغيّروا رأيي في هذا الأمر ، وهو أن الكثرة من هؤلاء الشعراء ومن الفتيات اللاتي كانوا يتغزلون بهنّ إنما هم جميعا رموز لا حقائق . فقيس بن الملوح أو المجنون مثل من أمثلة هؤلاء الشعراء الذين كانوا يتغزلون ؛ لأن مؤثرات مختلفة عبثت بنفوسهم وعواطفهم فأحدثت فيها شيئا من الرقّة واللين لم يكن مألوفا ، وأحسّت هذه النفوس حاجتها الى الحب والى تغنّي الحب فنطقت بهذا الشعر العذب الذي نسميه النسيب .

ولستُ أدري، أوُجدت ليلى العامرية حقا أم لم توجد ؟ ولكني أعلم أن ليلى عند العرب في ذلك العصر كانت شيئا يشبه " هيلانة " عند اليونان في عصر الأبطال ، وكذلك قل في لُبْنَى وبثينة وعزّة وريّا وغيرهنّ من النساء اللاتي ألهمن هؤلاء الشعراء المجهولين غزلهم ونسيبهم . على أني مضطر أن ألاحظ حقيقتين متناقضتين ولكن فهمهما يسير :

(الأولى) أن هذا الشعر العذري الذي وصفت لك أسباب ظهوره في العصر الأمويّ جيد في جملته حقا يمتاز بخصلتين : إحداهما البداوة التي تكسب لفظه رصانة في غير عنف ولا جفوة ، وتكسب معناه سذاجة في غير سخف ولا إسفاف . والثانية الصدق في وصف العاطفة وتمثيلها ، بحيث لا تكاد تقرأ هذا الشعر حتى تتأثر به ، وتقطع بأن قائله لم يكن متكلفا ولا منتحلا ، و إنما كان رجلا يألم حقا ويصف ألمه وصفا صادقا ، أو قل : كان رجلا يألم وكان ألمه يصف نفسه . وانظر الى هذه الأبيات :

ولم أر ليلى بعد موقف ساعةٍ * ببطن مِنًى ترمي جِمارَ المُحَصَّبِ

ويبدى الحصى منها اذا قذفتْ به * من البُرْد أطرافَ البنان المخضَّب
فأصبحتُ من ليـلى الغداةَ كناظر * مع الصبح فى أعقاب نجم مُغَرِّب
ألا إنمـا غادرتِ يا أمّ مالك * صَدًى أينما تذهَبْ به الريح يذهب

وحدّثنى ، أتجد فى هـذا الشعر لفظا حُوشِيًّا أو مبتذلا ؟ أتجد فيــه معنى جافا أو سخيفا؟ ألست تحسّ فى لفظه جلالا وفى معناه رقة ولينا وفى روحه ألمـا ولوعة؟ أُنظر الى هذا الشاعر كان يحج ، وما أحسب أنه كان يعرف ليلى هذه أو يتعشّقها من قبل ، ولكنه ذهب يؤدّى الفريضة الدينية وفى نفسه ما تعلم ممـا وصفت لك من هذا الشوق الى الجمال ، والطموح الى المثل الأعلى ، والميل الذى أسميه تصوّفا ؛ لأنى لا أجد لفظا آخر أطلقه عليه .

ذهب هـذا الشاعر الى الحج وكان المجتمع بمنى ، فرأى فيمن رأى هذه المرأة الجميلة التى خلبته وصادفت هوى نفسـه الى الجمـال وطموحها الى الأنس ، ولكنه لم يستطع أن يدنو منها ، ولا أن يتحدّث اليها ، ولا أن يتبين من أمرها شيئا . ثم انصرف النـاس فلم يبق فى نفسه من هذه المرأة أو قل من هـذا الأمل القوىّ الذى هزّ نفسه إلا ذكرى أعقبته يأسا ولوعة ، وردّته الى ما كان فيه قبل أن يراها من غُلّة يتحرّق لها دون أن يستطيع لهـا شفاء . أليس هذا هو الذى تحسّه فى هذا الشعر ؟ ألست تعجب معى بهذا القصد فى اللفظ والمعنى ؟ لم ير ليلى بعـد موقف ساعة بمنى حين كانت ترمى الجمـار ، أو حين كانت حركاتها الحلوة الرقيقـة المحتشمة تعبث بنفســه ، حين كان رميها الجمار يظهر أطراف أصابعها الحسان ، وقد طمع فى هذه المرأة وطمحت نفسه اليها ، ولكنها فائته فليس له فيها أمل ، فهو ينظر اليها كما ينظر الى النجم يهوى آخر الليــل وليس من سبيل الى إدراكه ، وقد وقع من نفسه اليأس موقعا شديدا فسلبها قوتها وثباتها وقدرتها على المقاومة ، فهى أداة تعبث بها الأهواء وتتنازعها العواطف والميول :

ألا إنمـا غادرت يا أم مالك * صدى أينما تذهب به الريح يذهب

وانظر معي الى هذه الأبيات :

وخبّرَكِ الواشون أن لن أُحبّكم * بلى وستورِ الله ذاتِ المحارمِ

أصدّ وما الصدّ الذى تعلمينه * شفاءً لنا إلا آجتراعُ العلاقم

حياءً وبُقْيَا أن تشيع نميمة * بنا وبكم، أُفٍّ لأهل النمائم

فما تقول فى هذا اللفظ الجيد، وفى هذه العاطفة الصادقة، وفى هذا المعنى الذى برئ من كل إسراف، وفى هذه الصراحة التى برئت من كل نفاق ؟

زعموا لكِ أنى لا أحبّك لأنى لا أزورك ولا أصلك . كذبوا، وإنك لتعلمين أنهم كاذبون، وإنك لتعلمين أنى أتكاف هذا الصدّ وأتجشّم فيه الأهوال إبقاء عليك وعلىّ وحرصا على شرفك، فأفٍّ لأهل النمائم . مثل هذا الشعر لا يمكن أن يوصف بالكذب، ولا أن يعاب بالغموض أو الابتذال . ثم انظر الى هذا الشاعر نفسه يمضى فى قصيدته، تجد تصديق ما قدّمت لك من أن سلطان المرأة على نفوس هؤلاء الأعراب كان قد آنتهى الى منزلة لا تعدلها منزلة :

وإنّ دمًا لو تعلمين جنيتِه * على الحىّ جانِى مثله غيرُ سالمِ

أمَا أنه لو كان غيرَكِ أرقلتْ * اليه القنا بالراعفات اللهازم

ولكن لعمرُ الله ما كلّ مسلم * كغُرّ الثنايا واضحاتِ المعاصم

اذا هنّ ساقطن الحديث لذى الهوى * سِقاطَ حصى المرجان من كفّ ناظم

رَمَين فأقصدنَ القلوب فلم نجد * دمًا مائرا إلّا جوًى فى الحيازم

أُنظر الى هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة التى يقسم فيها الشاعر ما أهدر دماء المسلمين شىء كما يهدرها الحب . وانظر الى هذين البيتين الأخيرين اللذين يمثّلان تأثير حديث النساء فى نفوس الفتيان : إذا تحدّثن الينا قتلننا بهذا الحديث الذى ينثرنه كما ينثر اللؤلؤ من العقد، قتلننا ولكنهن لم يسفكن دماءنا، فأنت لا ترى هذه الدماء تسيل، وإنما أيقظن جوى يضطرم بين الضلوع .

ولو أني أردت أن أضرب لك الأمثـال التي تثبت جمال هـذا الشعر وبهجته وروعته وصدقه لأطلت وأسرفت في الإطالة . على أني سأعود فأخصص له فصلا أو فصولا . وإنما ضربت ما ضربت من هذين المثلين لأثبت إحدى هاتين الحقيقتين اللتين ذكرتهما ووصفتهما بالتناقض منذ حين . قلت إن هذا الشعر العذريّ جميل جيد . ولكن هناك حقيقة أخرى ، وهي أن أخبار العذريين أو القصص التي نسجت حول أشعارهم ليست شيئا يذكر بالقياس الى هذه الأشعار . فبينا تجد في هذه الأشعار من صدق اللهجة وحرارة العاطفة وحدّة الشعور ما يملك عليك نفسك، لاتجد في هـذه الأخبار التي تروى حول هـذا الشعر إلا تكلّفا وتصنعا وإسرافا في المبالغة وانتهاء الى السخف . فكيف تستطيع أن تفسر هذا؟ كيف تستطيع أن تلائم بين سخف هـذه الأخبار وجودة هذا الشعر؟ وهـل يمكن أن تلهم الحوادث السخيفة الفاترة شعرا جيدا حارّا ؟ كلا ! ... انما أنت مضطر الى أن تذهب مذهبي، وهو أن هذا الشعر قد صدر صدورا طبيعيا عن قوم كانوا يشعرون ويألمون ، ويصفون آلامهم ويمثلون شعورهم ؛ وأن هـذه القصص قد أنشئت فيما بعد ، أنشأها رواة هادئون لم يكونوا يجدون في أنفسهم ما كان يجد هؤلاء الشعراء من لوعة وأسى ومن ألم وحسرة على آمال يطمعون فيها ويطمحون اليها دون أن يظفروا منها بشيء . وبعبارة واضحة : كان شـعر هؤلاء الغزلين يصف نفوسهم ، وكانت أقاصيص هؤلاء الرواة لا تصـف شيئا إلا طمع أصحابهـا في إرضاء الجماهير . ومع ذلك فإنا نجد بين هذه القصص ضروبا من الاختلاف وضروبا من التشابه، لا بأس بالوقوف عندها حينا، فقد نستفيد منها أشياء كثيرة .

وأحب أن ألاحظ قبل كل شيء أن هذه القصص جميعا تشـترك في خصلة واحدة لا تمتاز بها عن غيرها من الأخبار ، وهو هذا الجمال الفني اللفظي الذى تجده في القصص وفي سياق الرواية . ولست أغلو إن قلت إنّ قطعا من هـذه الأخبار تصلح نمـاذج يحسن أن يتأثرها الكتّاب الذين يحرصون على الإجادة . وسأروى لك من هـذا أمثالا . ولكني أعود فأقول : إن هذه ليست ميزة لهـذا النوع من

القصص، وانما هى لغة الرواة فى ذلك العصر كان لها حظ من الصفاء والجودة والسذاجة البدوية والخلو من التكلف اللفظى قلما تجـده عند الكتّاب المتأخرين . وأحسب أن من خير ما ينبغى أن يقرأ الكتّاب الذين يحرصون على الإجادة نثر هؤلاء الرواة فى الأغانى و فى تاريخ الطبرى وما يشبههما من كتب الأدب والتاريخ .

لا أعرض فى هذا الفصل إلا لثلاث من هذه القصص، قصة المجنون، وقصة قيس بن ذريح، وقصة جميل . و إذا أردت أن أحكم على هذه القصص فأنا مضطر الى أن أسجل أن أشدّها سخفا وأكثرها غلوّا و إحالة، وأخلاها من المغزى النافع أو المعنى المفيد قصة المجنون . فلست تجد فى هذه القصة شيئا يبين لك شخصية هذا الرجل الذى اتخذ لها بطلا ، بل كل ما تجـده ألوان من المبالغات وضروب من الإسراف .

* * *

قيس بن الملوح رجل أحب ليلى حين كانا طفلين، أو أحبها حين كانا على حظ من الشباب، ولكن هـذا الحب يظهر دائمـا مظاهر غريبة غير مألوفة ولا ملائمة للطبيعة الانسانية حتى طبيعة العشاق المدلّهين . فلست أعرف عاشقا أُغمى عليه كما أُغمى على قيس بن الملوح . ولست أعرف عاشقا شهق وزفر كما شهق قيس بن الملوح وكما زفر . كان يكفى أن تحدث اليه ليلى بحديث يشعره أنها تحبه ليسقط على وجهه مغشيا عليه . وكان يكفى أن يذكر له شىء عن ليلى يدل على أنها تحبه ، أو يدل على أنها تعرّضت لمكروه ليسقط على وجهه مغشيا عليه . بل كان يكفى أن تحدّث اليه عن ليلى ليسقط على وجهه مغشيا عليه . كان يقضى حياته كلها أو أكثرها ساقطا على وجهه مغشيا عليه . أو قل إنه كان يقضى حياته كلها إما ساقطا على وجهه و إما هائما على وجهه ، فهو لم يعرف أو لم يكد يعرف الحياة الهادئة العاقلة، وانمـا حياته كلها آضطراب، حياته مقسمة بين إغماء وجنون .

هذه هى الصورة التى تستطيع أن تستخلصها من قصة المجنون . واذا كان المجنون قد أنفق حياته بين الجنون والإغماء، فليس يسيرا أن نتبين شخصيته ولون نفسه ولا

أن تميز عواطفه وخصاله . فليست له عاطفة ولا خصلة ، و إنما هو مريض إما مغشيّ عليه و إما مجنون ؛ أو قل : إن الجنون والمرض هما اللونان اللذان يميزان نفسه ويحدّدان شخصيته . مثل هذا الشخص لا يمكن أن يكون حقيقة . و إن كان حقيقة فلا يمكن أن يصدر عنه شعر متقن كبعض هــذا الشعر الذى نقرؤه ، ولا يمكن أن يكون بطلا لقصــة صادقة ، و إنمـا هو رجل خليق بالبيمارستان ؛ بل هو لا يصلح بطلا لقصة خيالية متحلة . فمن الخير أن يخترع الكاتب وأن يتخيّل ، ولكن من الحق عليه أن يجتهد فى ألا يكون خياله سخفا وآختراعه محالا . ذلك أنه يتعرض بهذا الى أن يكذبه الناس و يسخروا منه ومن خياله . وقد سخر الناس من واضع قصة المجنون وكذبوه ، فقد ذكرت لك فى غير هــذا الفصل أن الثقات من الرواة ينكرون وجود المجنون أو يشكون فيه أو يختلفون فى أمره اختلافا عظيما . والغريب ــ أو المعقول ــ أنهم لا ينكرون قيس بن ذريح ولا جميلا ولا يشكون فيهما ولا يكادون يختلفون فى أمرهما . فلم هذا؟ لأن قصة المجنون سخيفة ضعيفة مملوءة بالإحالة والمبالغة لا يستطيع الناس أن يؤمنوا لها أو يطمئنوا اليها مهما يكن حظهم من السذاجة . وكيف تريدنى على أن أومن لهــذا الخبر الذى يزعم أن المجنون وقف يتحدّث الى ليــلى وفى يده نار فأخذت النــار تحرق بُرده حتى أتت عليه ونالت من جسمه وهو لا يشعر ! ثم كيف تريدنى على أن أصدّق أن هــذا الرجل جُنّ وآنتهى به الجنون لا الى أن يهيم على وجهه ، بل الى أن يستأنس الوحش و يعيش معها كما كان يعيش مع الإنسان ! ... أما أن يؤثر هذا الوحش فقد نفهمه ، ولكن من فيلسوف لا من مجنون ؛ وأما أن تؤثره الوحش وتأنس اليه فشىء يحسن أن نسأل عنه علماء الحيوان . ومع هذا فأحب أن تقرأ من أخبار هــذا المجنون القصة التى يرويها رجل من بنى مُرّة و يصف فيها موت المجنون وأثر موته فى قومه . فستجد فى هــذه القصة لفظا عذبا وأسلوبا متينا ؛ وتجدها فى الجزء الثانى من الأغانى (صحيفة ١٤ جزء ثان طبعة بولاق) .

*
* *

أما قصة جميل فلست أدرى بم أصفها؟ فيها سخف كثير، وفيها إحالة كثيرة. وما أحسبها أصدق من قصة المجنون. ولكن جميلا رجل تاريخى وجد حقا وشعره واضح الدلالة على شخصيته، ولم يكن مجنونا ولا مذهوبا به، بل لم يكن ذاهلا. ومن هنا خلت قصته من هذه الألوان التى ننكرها فى قصة المجنون؛ خلت من هـذه الألوان وآمتلأت بألوان أخرى أقل ما توصف به أنها تناقض الحب العـذرى، ولا تلائم هـذا الهوى الذى يحزن النفس ويملأ القلوب حسرة. ولست أذكر لك من هذه الألوان إلا لونين آثنين: أحدهما يدل على أن واضع القصة كان رجلا متكلفا ميالا الى المحاجاة؛ فإنك تجد فى غير موضع من أخبار جميل ضروبا من الرمز والألغاز بين هذين العاشقين حين كانت تتصل بينهما الرسائل. وأرى أن أروى لك أحد هذه الألغاز لتشعر معى أنه متكلف من غير شك ولتغنينى عن الاستدلال. تحـدّث كُثَيِّر قال:

« لقينى مرة جميل فقال لى: من أين أقبلت؟ قلت: من عند أبى الحبيبة، أعنى بثينة؛ فقال: والى أين تمضى؟ قلت الى الحبيبة، أعنى عزة؛ فقال: لابدّ من أن ترجع عودك على بدئك فتستجدى لى موعدا من بثينة؛ فقلت: عهدى بها الساعة وأنا أستحيى أن أرجع؛ فقال: لابد من ذلك؛ فقلت له: فمتى عهدك ببثينة؟ فقال: فى أول الصيف وقد وقعت سحابة بأسفل وادى الدوم فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابها فلما أبصرتنى أنكرتنى، فضربت بيديها الى ثوب فى المـاء فالتحفت به، وعرفتنى الجارية فأعادت الثوب فى المـاء، وتحدثنا حتى غابت الشمس؛ وسألتها الموعد فقالت: أهلى سائرون؛ وما وجدت أحدا آمنه فأرسله اليها؛ فقال له كثير: فهل لك فى أن آتى الحىّ فأنزع بأبيات من شعر أذكر فيها هـذه العلامة إن لم أقـدر على الخلوة بها؟ فقـال: ذلك الصواب؛ فأرسله اليها فقال له: انتظرنى؛ ثم خرج كثير حتى أناخ بهم؛ فقال له أبوها: ماردّك؟ قال: ثلاثة أبيات عرضت لى فأحببت أن أعرضها عليك؛ قال: هاتها؛ قال كثيّر: فأنشدته وبثينة تسمع:

فقلت لها ياعزّ أُرسِـلُ صاحبي * اليك رسولا والموكّل مرسَـلُ
بأن تجعلى بيني وبينك موعدًا * وأن تأمريني ما الذى فيه أفعل
وآخرُ عهـدى منـك يوم لقيتنى * بأسفل وادى الدوم والثوب يُغْسَل

قال : فضربت بثينة جانب خدرها وقالت : اخسأ اخسأ ! فقال أبوها : مهيم[1] يابثينة ؟ قالت : كلب يأتينا اذا نوّم الناس من وراء الرابية ، ثم قالت للجارية : ابغينا من الدومات حطبا لنذبح لكثيّر شاة ونشويها له ؛ فقال كثيّر : أنا أعجل من ذلك . فراح الى جميل فأخبره ؛ فقال له جميل : الموعد الدومات ... ...» (الأغانى ص ٨٦ جزء ٧ طبعة بولاق) .

فما رأيك فى هذه القصة وفى هذه المصادفة البديعة التى أتاحت لكثيّر أن ينصرف من عند أبى حبيبة جميل الى حبيبته هو وأن يلقى جميلا فى هذه الساعة؟ ثم فى هذه الأبيات السخيفة المتكلفة؟ ثم فى جواب بثينة "كلب يأتينا اذا نوّم الناس من وراء الرابية"؟ جعلت صاحبها كلبا ، ثم فى صمت أبى بثينة وانخداعه الى هذا الحدّ؟ أظن أنى لست فى حاجة الى أن أقول : إن هذه القصة نوع من هذه النوادر التى كان يتندّر بها الناس على الأعراب .

اللون الثانى : شيء من الغدر لا يمكن أن يصدر عن حبيب عذرى كما نفهمه ، ولا كما كان يفهمه القدماء . زعموا أن أهل بثينة أذاعوا فى الناس أن جميلا لا ينسب بابنتهم وانما ينسب بأمة لهم ، فغضب جميل لهذه القالة وأراد أن يكذبها ، فواعد بثينة والتقيا ذات ليلة فتحدّثا ، ثم عرض عليها جميـل أن تضطجع ، فـانعت ثم قبلت فاضطجعت وأخذها النوم ، فلما استوثق جميـل من ذلك نهض الى راحلته فمضى وأصبح الناس فرأوا بثينة نائمة فى غير بيتها فلم يشكّوا فى أنها كانت مع جميل . وقال جميل فى ذلك شعرا . أتظن أن مثل هذا الخبر يمكن أن يكون حقا ، وأن رجلا كجميل كان يحب بثينة حبا كالذى نجده فى شعره يستطيع أن يعرّضها لمثل هذه الفضيحة ؟

---

(١) مهيم : كلمة يراد بها الاستفهام عن الحال ، فمعناها : ما الخبر ، أو ما وراءك .

وهناك لون آخر يحسن أن أشير اليه ، وهو أن صانع هذه القصة كان فيما يظهر متأثرا بشعر امرئ القيس من جهة، وعمر بن أبى ربيعة من جهة أخرى . فأنت تذكر قصيدة امرئ القيس التى أولها :

* ألا عِمْ صباحًا أيها الطللُ البالى *

وأنت تذكر أن امرأ القيس يحدثنا فى هذه القصيدة بقصته مع صاحبته حين زارها فقضى معها الليل وذكر زوجها فسخر منه واعتز بسيفه وسهامه فقال :

يغُطّ غطيط البَكْرِ شُدَّ خِناقُه * ليقتلنى والمرء ليس بقتّالِ
أيقتلنى والمشرفىّ مضاجعى * ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنياب أغوال

وأنت تذكر قصيدة عمر بن أبى ربيعة التى أولها :

أَمِنْ آل نُعْمٍ أنت غادٍ فمبكرُ * غداةَ غدٍ أم رائحٌ فمهجّرُ

والتى ذكر لنا فيها قصته حين زار صاحبته فقضى معها الليل ثم أسفر الصبح وأراد أن ينصرف فأشفقت عليه صاحبته من الحىّ فقال :

فقلت أباديهم فإمّا أفوتُهم * وإما ينالُ السيفُ ثأرًا فيثأرُ

ولكنها أشفقت عليه وكرهت هذه المخاطرة ودعت أختيها وتشاور القوم وانتهوا الى أن اقتنع عمر وخرج بينهن كأنه إحداهن وقال :

فكان مِجَنّى دون ما كنت أتقى * ثلاث شخوص كاعبان ومُعْصِرُ

كان واضع هذه القصة متأثرا بشعر هذين الرجلين، فهو يمثل لنا جميلا فى أكثر الأحيان عند بثينة ليلا ، ثم يسفر الصبح أو يكاد فتشفق بثينة وتأمر صاحبها أن ينصرف خوفا عليه، فيأبى معتزا بسيفه وسهامه ، ولكن بثينة تلح عليه وتذكر أنها تخشى الفضيحة، وحينئذ ينصرف جميل .

والغريب أن جميلا مثّل فى هذه القصة ما ذكره عمر بن أبى ربيعة ولكن فى صورة أشدّ إنجالا وخزيا مما ذكره عمر . زعموا أنه لقى حىّ بثينة فى بعض

سفرهم، وكان الليل قد تقدّم فرمى حصاة لينبه بثينة، فأصابت الحصاة صاحبة لهـا فاضطربت وجزعت وما شكّت فى أنه جنى، وأقرّتها بثينة على ذلك وهى تعلم أن هذا الجنى هو جميل . فلما انصرفت هذه المرأة خلت بثينة الى جميل فتحدّثا ليلهما ثم اضطجعا فأخذهمـا النوم وأسفر الصبح وأقبل غلام زوجها يحمل اليها صبوحها من اللبن فرآها مضطجعة الى جانب جميل، فانصرف مذعورا يريد أن ينبىء سيّده، ولقيته صاحبـة لبثينة فاستوقفته وعلمت علمه — وكانت صديقة لبثينة شفيقة على حبها — فاحتجزت الغلام وتلطّفت فى إرسال جارية لهـا لبثينة تحذرها ، وفعلت الجارية وأُتمرت بثينة وجميـل ماذا يصنعان . فأما جميل فأراد أن يلقى القوم واعتز بسيفه وسهامه . وأما بثينـة فأشفقت عليـه من سيوف قومها وخافت على نفسها الفضيحة ،وما زالت به حتى أقنعته ،فنام ووضعت عليه من الوسائد والأحمال ما أخفاه، ثم جاءت صاحبتها فاضطجعت الى جانبها وأظهرتا النوم وأقبل زوجها وأبوها وأخوها فلم يروا جميلا وانما رأوا امرأتين مضطجعتين فانصرفوا مستخذين ؛ وقضى جميل يومه مع بثينة .

وأخبار جميل من هذا النحو كثيرة وهى لا تدل إلا على أن واضع هذه القصة كان مقـلّدا قليل البضاعة يلتمس أخباره حيث وجدها دون أن تكون له شخصية قـــوية .

وفى الحق أن قصة جميل تخلو خلوّا تاما من النفع والفائدة . أحب جميل بثينة وخطبها فأبوْها عليه وزوّجوها غيره . واشتد هيامه بهـا وهيامها به فكانا يتواعدان ويلتقيان ، وأمضى هو حياة يقول فيها الشعر . وبطبيعة الحال تدخّلت الحكومة فى أمر جميل كما تدخلت فى أمر هؤلاء العشاق جميعا ، فأهدرت دمه ، فاضطر الى أن يضرب فى الأرض فذهب الى اليمن وذهب الى الشام وذهب الى مصر وفيها مات .

والغريب من أمر جميل أن الرواة يذكرون اتصاله بالخلفاء من بنى أمية، فيزعم بعضهم أنه اتصل بمروان بن الحكم، ويزعم آخرون أنه اتصل بالوليد بن عبد الملك،

ويقول قوم إن بثينة نفسها دخلت على عبد الملك وكان بينها و بينه مزاح . فكيف مع هـذه الصلات أهدر السلطان دم جميل حتى اضطر الى أن يهـرب فى أقطار الارض ويموت غريبا ! ...

كل هذه الأخبار متكلفة متحلة قد وُصــل بعضها ببعض تفسيرا لشعرٍ جميل وتلهية للناس .ولكن هذه القصة كما قلت لاتدل كقصة المجنون على براعة صاحبها أو أصحابها . وانما هناك قصة أخرى هى خير هذه القصص، لها قيمتها . وليست هذه القيمة قليلة ولا ضئيلة . وأحسب أن هــذه القصة هى خير ما حفظنا من القصص الغرامية أيام بنى أمية : أريد بها قصة ابن ذريح . ولكنى لا أحدثك عنها اليوم فربما احتاجت لفصل خاص .

الغزلون[1]

قصة قيس بن ذُرَيْح

أما هذه فقصة جيدة حقا ، لا ينبغى أن تقرن الى هذا السخف الذى تحدّث الرواة به عن المجنون، ولا الى هذا الفتور الذى ذكروا به حب جميل .

وما أظن إلا أنّ واضع هذه القصة قد آمتاز من الذين وضعوا أنواع القصص الغرامية بشىء من الإجادة والبراعة لم يسبق اليه ولم يلحق فيه . فيها ما فى غيرها من القصص من هــذه الصفات المشتركة التى لا يكاد يخلو منها حب عذرى ؛ فيها مثلا تدخُّل الحكومة بين العاشقين أو بين العاشق وبين حبيبته . وفيها هذه المبالغات التى لا بدّ منها والتى تشرف بالعاشق على الموت وتكلفه ألوانا من الخطوب وتعرّضه لضروب من المرض . ثم فيها هــذه الأحاديث الكثيرة التى لا رأس لها ولا ذيل كما يقول الفرنسيون والتى إنما آخترعت آختراعا لتفسير شعرٍ جميل وقع الى الراوية فأراد أن يجد له تأويلا فيها كل هذا . فهى من هــذه الناحية تشبه قصة المجنون وتشبه قصة جميل وتشبه غيرهما من القصص .

ولكن فيها شيئا تمتاز به وتستمد منه قيمتها ونفعها وآنفرادها بالجودة والإتقان، وهو أنها قصة إنسانية ؛ أريد أن الخيال لم يخترعها آختراعا وإنما ألفها تأليفا . والفرق بين الاختراع المطلق والتأليف واضح ، فقد يستطيع الكاتب أن يخترع أشياء يضيف بعضها الى بعض دون أن يكون لهذه الأشياء أصل فى الحياة الواقعة ؛ وهو إذن سخيف حقا . وقد يستطيع أن يؤلف بين أشياء مختلفة يأخذها من الحياة الواقعة ولكنه لا يوفق إلى موضع الصلة بين هذه الأشياء فتخطئه الإجادة

[1] نشرت بجريدة « السياسة » فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

ويتورّط فى الخطأ أو سوء الذوق أو رداءة التأليف . وأنت تجد هذين النوعين فى قصة المجنون وفى قصة جميل .

أما هذه القصة التى نحن بإزائها فقد وفّق صاحبها الى حسن التأليف وحسن الذوق ، ووصف فيها أشياء تجدها فى الحياة اليومية الواقعة وأتقن وصفها، حتى إن قصته لتجد فى نفسك صدًى قويا وتحملك على أن تقول : إن هذا لحق، وإن هذا لجيّد . ذلك أنه لم يلتمس أخباره وحوادثه فى السماء ولا فى الهواء،وإنما التمسها بين الناس فى حياتهم اليومية وفى صِلاتهم المألوفة وفى عواطفهم التى تمثل ما يجدون من حس وشعور .

وأىّ شىء غريب أو محال فى أن تنشأ العداوة بين آمرأة وزوج آبنها ! وأىّ شىء غريب أو محال فى أن تغضب الأم أشدّ الغضب لأن آبنها قد شُغل عنها بامرأته ! ثم أىّ شىء غريب أو محال فى أن تفتن هذه الأم المحزونة المحنَقة وتلتمس الوسائل المختلفة لتفسد الصلة بين آبنها وزوجه وتنغّص الحياة على هذه المرأة الغريبة التى أقبلت فآحتكرت الأبن آحتكارًا وصرفته عن أمه وأبيه وآختصت نفسها بوقته وصفوه وعنايته ! ثم أىّ شىء غريب أو محال فى أن يشتدّ حقد الأم وحنقها كلما أحست ضعفها وقصورها عن الإفساد بين الزوجين فيبعثها ذلك على أن تحتال فى قطع الصلة بينهما : تسلك إلى ذلك مااستطاعت من سبيل، رفيقة حينا وعنيفة حينا آخر، ناصحة مرة وغاشّة مرة أخرى ! ليس فى ذلك شىء من الغرابة ولا الإحالة ، وإنما هو أمر مألوف يسير الفهم والتفسير .

ونحن نعلم أن الخصومة قديمة عنيفة بين الأمهات وزوجات أبنائهم . فالأم بطبيعتها شديدة الميل الى أن تستأثر بحب آبنها ووده، وحريصة كل الحرص على ألا ينازعها فى ذلك منازع . وهى تتردّد بين عاطفتين متناقضتين، لا تكاد ترى آبنها شابا قويا يستقبل الأيام فى روعة شبابه وعنفوان قوته حتى تشعر بالميل الشديد إلى أن تراه زوجا وزعيم أسرة، فتسعى فى تزويجه وتجدّ فيه؛ وهى بذلك سعيدة حقا مغتبطة

أشدّ الاغتباط؛ حتى إذا تمّ لها ما تريد ورأت آبنها زوجا، وأحسّت أنه بهذه الحياة الجديدة سعيد، انتقلت من هـذه العاطفة الأولى الى عاطفة أخرى تنـاقضها أشدّ مناقضة؛ فندمت على ما كان من تزويج آبنها، وأسفت على ما فاتها من عطف هذا الآبن ووده، وكرهت هذه المرأة الجديدة التي أقبلت فشاركتها في حب آبنها وعطفه ومودته . ثم لا تلبث أن تحسّ الميل الى الخصومة وأن تجد فى سيرة هذه المرأة الجديدة ما تنكره عليها وتنقمه منها . و يجب أن ننصف الأم ، فهذه العاطفة عندها ليست قائمة على الأَثَرة وحدها و إنما هى قائمة على الإيثار أيضا . فالأم تريد أن تنفرد بحب آبنها والعطف عليه، تريد أن تكون هى الوحيدة التى ترأم آبنها وتحسن إليه. هى أَثِرة فى إيثارها . ثم يجب أن ننصفها من جهة أخرى، فليست الزوج أقل أَثَرةً من الأم، بل هى أشدّ منها أثرة وأقل منها إيثارا . ولا تكاد الزوجة تستقرّ فى حياتها الجديدة حتى تنزع بطبيعتها الى الآستئثار بزوجها والانفراد بحبه وعطفه، وحتى تجتهد — عالمة أو جاهلة — فى صرفه عن كل إنسان غيرها وعن كل شىء سواها . و إذن فليست الأم وحدها هى الراغبة فى الخصومة الميّالة اليها ، و إنمـا الزوج أيضا تعين على هذه الخصومة وتزيد نارها اضطراما .

كل هذا شىء مألوف لاينكره الناس ولا يعجبون له ،و إنما يعجبون أن تحسن الصلة بين الأم وزوج آبنها، كما يعجبون أن تحسن الصلة بين الزوج وأم آمرأته . فعـداوة الأحماء والأصهار شىء يوشك أن يكون طبيعيا . وهذا الشىء الذى يوشك أن يكون طبيعيا هو الذى آتخذه واضع هـذه القصة أساسا لقصته ، فأحسن وأجاد و بلغ من الإتقان حظًّا عظيما .

ثم يجب أن نلاحظ شيئا آخر وهو أن الرجال يختلفون فى مثـل هـذا الموقف آختلافا شديدا، فنهم الرجل القوىّ الأَسْر الذى لايفكر إلا فى نفسه وسعادته، والذى يستطيع أن يقاوم هـذا التنازع بين آمرأتين مخلصتين فى حبـه، ولكنهما مختلفتان لإخلاصهما نفسه . يستطيع أن يقاوم فيعدل بين أمه وزوجه، وينصف هذه وتلك دون أن ينحاز الى إحداهما، ودون أن تستطيع إحداهما أن تأخذه من قِبَـل الحب

الزوجى فتصرفه عن أمه وتضطره إلى العقوق، ودون أن تستطيع الأخرى أن تأخذه من قِبَل الأمومة فتستغلّ ضعفه من هذه الناحية وتفسد عليه حياته المنزلية، وتضطره إما الى أن يسيء العشرة فى بيته و إما الى الطلاق . ولكن هذا الرجل ليس مثلا شائعا و إنما هو مثل نادر . والكثرة مع الأسف ضعيفة من إحدى الجهتين، فإما أن يحاز الرجل الى زوجه فيتورط فى العقوق و يسيء إلى أبو يه مؤثرا المستقبل على الماضى ، مؤثرا نفسه على من منحه هذه النفس . و إما أن يضعف فينحاز الى أبو يه و يشقى بأسرته وتشقى به الأسرة .

وقد كان بطل هذه القصة من هؤلاء؛ فقد آستطاع أبواه أن يغلباه على أمره و يضطرّاه إلى الطلاق .

من هذا كله تتبين أن قصة قيس بن ذريح أبعد القصص عن الإحالة والمبالغة، وأنها قصة إنسانية كما قلت آنفا . ولكن هذه القصة تمتاز بما آختص به بطلها من عاطفة قوية، وحب لا يعدله حب، وحرص على الوفاء شديد. وحول هذه العاطفة وهذا الحب وهذا الوفاء تدور القصة من أوّلها الى آخرها . فإذا أردنا أن نختصرها أو أن نتلمس لها صيغة تقوم عليها آستطعنا أن نقول: إنها جهاد بين البرّ والحب ... رجل يريد أن يكون برًّا بأبو يه ووفيًّا لزوجه، فيستحيل عليه التوفيق بين هاتين الخصلتين فيضحّى بإحداهما فى سبيل الأخرى . ولكن هذه التضحية تنغّص عليه حياته كلها، وتضطره إلى ألوان من الهول، وضروب من الألم لا تكاد تحصى. فقصتنا إذن قصة نفسية خلقية بالمعنى الحديث لهاتين الكلمتين .

تمتاز هذه القصة أيضا بأن أشخاصا ممتازين قد لعبوا فيها دورًا كما يقولون، فاكتسبت من هؤلاء الأشخاص شيئا من الجلال غير قليل، ثم آكتسبت من هؤلاء الأشخاص أيضا شيئا يحملك على أن تنزلها منزلتها الحقيقية، وتعتقد أنها قصة خيالية مخترعة أكثر من أن تكون قصة حقيقية واقعة . فليس من اليسير أن نتصور تدخّل الحسين والحسن ابنى على رضى الله عنهم فى عشق فتى من فتيان البادية لفتاة من

فتيات البـادية . وليس من اليسير أن نتصوّر تدخّلهما مع نفـر من أشراف قريش في التفريق بين الزوجين ليرضوا عاشقا مُلتاعا .

* * *

أَحَبّ قيس بن ذريح لبنى لأنه رآها وتحدّث إليها في بعض أسفاره، وأراد أن يتخذها زوجا له فوجد من أبيه ممانعة شديدة، لأن أباه هذا كان مثريا، وكان يكره أن تنتقل الثروة من قومه إلى قوم آخرين،وكان يريد أن يُصهر ٱبنُه إلى شريف من أشراف قومه . فلما أيس منه قيس لجأ إلى الحسين بن علي — وكان أخاه في الرضاعة — فتوسّل اليه أن يتوسط بينه و بين أبي لُبْنَى في هذا الزواج،وقبل الحسين ذلك وأسرع إليه،فركب مع قيس إلى البادية حيث كان حيّ لبنى . فلما رأى الشيخ ٱبن رسول الله قد أقبل يزوره، أكرمه وٱحتفى به . وتحدّث الحسين اليه بهذه الخِطْبة، فقبل الشيخ ولكنه ذكر للحسين أنه عربي وأن للعرب عادات وأخلاقا ليس من اليسير تجاوزها، وأن الوجه في هذا الأمر أن يأتي أبو قيس فيخطب إليه ٱبنته، وأنه يكره أن يزوج ٱبنته من هذا الفتى الغني الشريف على غير رضا من أبيه، فتتحدّث العرب بما لا يحب؛ وقبل الحسين من الشيخ هذا العذر فرجع أدراجه مع قيس، ثم ٱرتحل مرة أخرى إلى البادية حيث كان يقيم حيّ قيس .

فلما رأى أبو قيس ٱبن رسول الله مقبلا اليه نهض فأكرمه وأجل مكانه . وتحدّث الحسين إليه بأمر هذه الخِطبة، فأذعن الشيخ وكره أن يردّ لٱبن رسول الله أمرا . وما هي إلا أن ٱرتحل إلى حيث أبو لبنى، فخطب إليه ٱبنته لٱبنه وكان الزواج .

وكان قيس بهذا الزواج سعيدا مغتبطا أحسن حظا من المجنون وجميل وغيرهما من أبطال هذه القصص الغرامية . ذلك أن الدهر قد أتاح له ما لم يُتح لهؤلاء الأبطال فلم يحـل بينه و بين حبه، ولم يستطع أهل لبنى أن يقولوا مقالة أهل ليلى و بثينة، ولا أن ينكروا هذا الزواج مخافة العار . فأيّ الفريقين نصدّق ؟ أنصدق الذين كانوا يزعمون أن العرب كانوا من القسوة والغلظة في عاداتهم ونُظُمهم البدوية بحيث يحولون

بين المحبين إذا ظهر حبهما مخافة الفضيحة وسوء القالة ، أم نصدق الذين تحدثوا الينا أن حيّ لبنى لم يكره تزويج هذه الفتاة من حبيبها رغم هذا الحب الذى ظهر وتحدث به الناس ؟ نعم ! إن هناك سبيلا للتوفيق بين هذين الوجهين المتناقضين ، وهو أن تدخّل الحسين بن على فى هذه الخطبة وفى هذا الزواج هو الذى أتاح لقيس سعادته ، وأكره أهل لبنى على أن يقبلوا هذا الزواج ويخالفوا ما توارث العرب من عادة ونظام .

ومهما يكن من شيء فإن واضع هذه القصة قد وفّق الى اختراع بديع حين اخترع تدخّل شخص عظيم المكانة كالحسين بن على فى هذا الزواج ليجتنب هذه العقبة الكؤود التى أقامها القصاص حتى أصبحت سنّة لا تبيح للعاشقين أن يلتقيا .

كان قيس بن ذريح سعيدا بهذا الزواج حقا ، ولم تكن لبنى أقل منه سعادة واغتباطا ، فقد كان العشق بينهما مشتركا ، كما كان مشتركا بين جميل وبثينة ، وكما كان مشتركا بين قيس بن الملوح وليلى العامرية .

ولست فى حاجة الى أن أحدثك بأن هذين العاشقين لم يكادا يلتقيان حتى انصرفا إلى عشقهما عن كل إنسان وعن كل شيء . وقد ذكرت لك أن هذا الزواج قد وقع على كره من أهل قيس ، لأنهم كانوا يأبون أن تنتقل الثروة إلى حى أجنبى . فليس غريبا ألا يتلقوا لبنى لقاء حسنا . وليس غريبا أن تنزل منهم منزلة البغيض . وأنت تعلم الخصومة بين الأمهات وزوجات أبنائهن . فإذا أضفت إلى ذلك أن الزوجين كانا مسرفين فى حبهما منصرفين به عن كل شيء وعن كل إنسان فهمت فى سهولة ويسر ما تحدّث به الرواة من أن أم قيس نكرت ابنها ونقمت منه أنه أهملها وقصّر فى ذاتها ولم يمض فى ملاطفتها ومودّتها على ما كان عليه قبل الزواج ، فوجدت على لبنى وأضمرت لها الشر . ولكنها امرأة ، وكيد النساء عظيم ، وهى أمهر وأحذق وأشدّ فطنة من أن تجاهر ابنها بالأمر فتعاتبه وتلومه وتنكر عليه تقصيره فى ذاتها . فهى إن فعلت ذلك لم تصل إلا إلى إحدى اثنتين : فإما أن ينصفها فيعود الى برّها وملاطفتها ويمسك لبنى ، وهى لا تريد ذلك وإنما تريد

الطلاق . و إما أن يكون ابنها جافيا عاقّا ، فلا يزيده عتاب أمه وتعللها إلا حبا للبناه وحرصا عليها ، وهى لا تريد ذلك و إنما تريد الطلاق . لهذا آنصرفت الأم عن آبنها فلم تلمه ولم تتعال عليه ولم تظهر له شيئا ، و إنما أقبلت إلى الشيخ والترمت أذنه ، فما زالت به تحرضه وتؤنبه حتى وصلت إلى ما كانت تريد . ولم يكن هذا عسيرا ، فأنت تعلم أن الشيخ قد خطب هذه الفتاة كارها . وأنت تعلم أنه كان يضنّ بثروته الضخمة على حى لبنى ، فأخذته زوجه من هــذه الناحية الضعيفة ، وزيّنت له أن هذه المرأة عقيم ، وأن قيسا إذا أمسكها وحدها فلن يعقب ؛ و إذن فستنتقل الثروه بعــد قيس إلى لبنى وحيها ، وسينقطع نسل الشيخ و يصبح وجوده عقيما لغوا لا خير فيــه ، فإما أن يطلق لبنى و يتخذ له زوجا أخرى تعقب له ؛ و إما أن يمسك قيس لبناه إذا كان يهواها إلى غير حدّ ؛ ولكن على أنــ يتزوج أخرى تعقب له حتى لا ينقطع النسل ولا تنتقل الثروة .

وقبل الشيخ من الشيخة هذا الكلام واطمأن إليه . وكيف لا يقبله ولا يطمئن اليــه ! أليس طبيعيا أن يحرص الإنسان على الخلود وآتصال النسل! أليس طبيعيا أن يحرص الإنسان على أن يحتفظ بثروته فى قومه و يكره آنتقالهـا إلى قوم آخرين ! قبل الشيخ كلام آمرأته ودعا آبنه وجمع له مشيخة قومه وتحدّث إليه بمـا أوحت به اليه آمرأته . وكان قد آنتهز لذلك فرصة صالحة ؛ فقد كان قيس آعتل وأشرف على الموت ، فلما برئ تحدّث إليه أبوه هذا الحديث بمحضر قومه : ذكر له علته و إشرافه على الموت وأنه لا عقب له وأن هذه المرأة غير ولود ، وطلب إليه أن يتزوج آمرأة أخرى لعل الله يرزقه منها ولدا يرثه و يرث ثروته ؛ فأبى قيس عليه ذلك وكره أن يسوء آمرأته أو يتخذ لها ضرّة ؛ قال أبوه : فتسرَّ بالإماء ؛ فأبى قيس وكره أن يسوء آمرأته بهذا النوع الآخر من الزواج . هنـالك غضب أبوه وآنتهى من الأمر الى أقصاه ، فأقسم على آبنه ليطلق آمرأته وأبى عليه قيس ذلك . وآشتدّ الخصام بينهما حتى أعلن الشاب إلى أبيه أنه يؤثر الموت على الطلاق . ثم أخذ يخيّر أباه بين خصال ثلاث : عرض عليه أن يتزوج هو لعل الله أن يرزقه ولدا آخر يخلد آسمه و يرث ثروته ؛ قال

الشيخ : فما فى فضلة ؛ فعرض عليه قيس أن يرتحل عنه ومعه لبنى ، وأن يفترض هو أن ابنه قد مات فى علته التى برئ منها ؛ قال الشيخ : لا أرضى ؛ قال قيس : فأترك عندك لبنى وأرتحل وحدى لعلى أسلوها ؛ فأبى الشيخ وأقسم لا يكنّه سقف بيت أبدا حتى يطلقها .

وهذا أول مظهر من مظاهر الجهاد العنيف بين البر والحب . أُنظر إلى قيس تتنازعه هاتان العاطفتان القويتان : حب زوجه والبر بأبيه .

وقد مثّل الرواة لنا هذا الجهاد قويا عنيفا حقا ، فزعموا أن الشيخ كان إذا أضحى تعرّض للشمس لا يظلّه منها شيء ، وأقبل ابنه فأظله بردائه وتلقّى هو حرّ الشمس ، ولم يزل كذلك حتى يفيء الفيء ؛ حينئذ ينصرف إلى لبنى فيعتنقان ويبكيان ويتبادلان ألفاظ التشجيع وتقول له لبنى : احذر يا قيس أن تطيع أباك فتهلك نفسك وتهلكنى ؛ فيؤكد لها وفاءه وولاءه وصبره ومضيّه فى المقاومة .

كم أنفق قيس من الدهر فى هذا الجهاد وهذه المقاومة ؟ يختلف الرواة . والغريب أن أبا الفرج ينكر أقرب الروايات إلى الحق وأدناها من المألوف . ذكر بعض الرواة أن قيسا قاوم أربعين يوما ثم ألقى السلاح . ولكن أبا الفرج لا يرضى ، لأن أربعين يوما ليست شيئا يذكر وهو أميل إلى إحدى الروايتين الأخريين اللتين تزعمان أن قيسا قاوم سنة أو سبع سنين .

مهما يكن من شيء فإن البرّ انتصر على الحب ، ولم يستطع هذا الشاب أن يمضى فى عقوق أبيه . ولا تنس أن قيسا كان أخا الحسين فى الرضاعة ، أى أنه كان يعيش فى أول عهد الناس بالإسلام ، فكان شديد التأثر بالدين ووصاياه . وأمر الدين فى البر بالوالدين صريح قاطع لا يحتمل ترددا ولا التواء . فضحّى قيس بامرأته ابتغاء مرضاة أبيه . انتصر البر ، ولكن انتصاره لم يكن كاملا ، بل قل إنه لم يكن إلا هزيمة منكرة . فلم يكد قيس يطلق لبنى حتى طلق معها عقله وأمنه وسعادته وكاد يطلق الحياة . أصابه أول الأمر ذهول أو شيء يشبه الذهول ،

فلم يصدّق أنه طلق لبنى، وخيِّل اليه أنه لم ينطق بهذه الكلمة التى أراد الله أن تقطع أوثق الأسباب وأمتن العرى . فلما قضت لبنى عدتها وأقبل أهلها فاحتملوها أنكر قيس ذلك ، وكأنه حاول ممانعة أهلها فرُدّ الى الصواب . ثم أخذ يتبع ركبها حتى أُنذر فوقف وأخذ يتبعها ببصره حتى غابت عنه . ثم عاد إلى بيتها وأخذ يتلمس آثارها فيقبّلها ويمرّغ خدّه فى ترابها ويسكب دموعه عليها وينشىء فى ذلك أجمل الشعر وأعذبه وأرقّه .

من ذلك الوقت أخذت قصة قيس تشبه قصة المجنون ، ولكن دون أن تبلغ السخف أو المحال . وتشبه قصة جميل ، ولكن دون أن تبلغ التكلف أو الغدر أو الإلغاز الذى أشرت اليه فى الفصل الماضى ، وإنما هى قصة إنسانية مؤلمة ينفطر لها القلب حزنا ولوعة ؛ لأنها لاتبعث على عجب ولا تحمل على دهش ، وإنما بين أيدينا إنسان أُكره على طلاق من يحب ، ثم تبعت نفسه هواه وقد حيل بينه وبينه ؛ فهو يبكيه ويتحسّر عليه ويلتاع له ، وهو يجتهد كما يجتهد كل عاقل أريب فى أن يسلو ويتعزّى دون أن يجد إلى السلو أو العزاء سبيلا ؛ بل كلما حاول سلوا أو عزاء ناله من الحب لون لم يكن يعرفه من قبل .

وانظر إلى هذه الأبيات ولا تقل : إنها مصنوعة متكلفة ، فأنا أيضا أرى أنها مصنوعة متكلفة . ولكن ألم أقل لك إن القصة كلها موضوعة مصنوعة ! وإذن فهذه الأبيات التى أرويها لك تمثل ما أشرت اليه من عجز قيس عن السلوّ ، وافتنانه فى ألوان من الحب كلما قضى منها لونا أقبل عليه منها لون آخر . وهذه هى الأبيات :

أحبُّكِ أصنافًا من الحبِّ لم أجد ❊ لها مَثَلًا فى سائر الناس يُوصَفُ
فمنهن حبٌّ للحبيب ورحمة ❊ بمعرفتى منه بما يتكلَّف
ومنهن ألّا يعرِضَ الدهرَ ذِكْرُها ❊ على القلب إلا كادت النفس تُتلَف
وحبٌّ بدا بالجسم واللون ظاهرٌ ❊ وحبٌّ لدى نفسى من الروح ألطف

وقد عرض عليه أهله ، كما عرض أهل المجنون على المجنون وأهل جميل على جميل ، أن يتزوج فأبى ، كما أبى المجنون وكما أبى جميل . وقد أصابه ما أصاب المجنون

من مرض لم يبلغ به الجنون ولكن أشرف به على الموت . وآجتهد أهله كما آجتهد أهل المجنون فى تسليته وشفائه، فأغروا به النساء والفتيات ودعوا إليـه الأطبّاء، فعجز النساء والفتيات عن آستصبائه، وعجز الأطباء عن شفائه . ولم يبلغ منه وعظ أبيـه إياه شيئا . وقد آجتهد فى الرحلة والتسلِّى عنها بالأسفار فلم يظفر من ذلك بشىء، و إنما كان كما قال المجنون أو جميل أو كثيِّر أو هو :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما ٭ تمثّـلُ لى ليلى بكل سبيلِ

ثم أخذ فيما كان قد أخذ فيه المجنون و جميل وغيرهما من العشاق من طلب ليلى والتعرض لحيها وآختلاس الأوقات والفرص يخلص فيها اليها، فكره أهلها ذلك كما كره ذلك أهل ليلى وأهل بثينة، وشكوا ذلك إلى السلطان كما شكاه أهل ليلى و بثينة، وتدخّل السلطان كما تدخّل فى أمر ليلى و بثينة، فأهدر دم قيس بن ذريح كما أهـدر دم قيس بن الملوح، وكما أهدر دم جميل .

ولكن القصة هنا تثب وثبة لم نألفها فى قصة جميل ولا فى قصة قيس بن الملوح، فقد نجد فى هاتين القصتين وغيرهما أمرا عجيبا، نجـد هؤلاء العشاق يكلفون بنساء يكلفن بهم أيضا، ولكن هؤلاء النسـاء قد خضعن لأهلهن فتزوجن وهنّ وفيّات لأزواجهن يصلنهـم ويُنلنهم ما يحترق عليه العاشقون حسرة ولوعة، حتى كان أهل هؤلاء العاشقين يتخذونهم موضوعا للهزؤ والسخرية، و يعيِّرونهم الحب والألم لنساء يخدعْنهم و يمنحن حبهن وودّهن لرجال آخرين، وحتى آستطاع المجنون أن يقول هذا البيت الذى يختصر هذه الحال العجيبة :

قضاها لغيرى وآبتلانى بحبِّها ٭ فهلّا بشىء غير ليلى آبتـلانيا !

•

أما قصة قيس فلم يكن بدّ من أن تنتهى الى هذا الموقف الذى توارثته القصص الغرامية، أى لم يكن بدّ من أن تتزوج لبنى رجلا غير قيس، حتى يصبح قيس كجميل والمجنون هائما بامرأة يتسلّط عليها رجل آخر . ولكن واضع هـذه القصة آمتاز من سعة الحيلة ولطف المدخل بما لم يمتز به أصحاب المجنون وجميـل . ذلك أنه تخيّل

هذه الحيلة، وهى أن معاوية أهدر دم قيس، فأخذ قيس يضرب فى الأرض يلتمس العزاء والسلوان، فمرّ بحىّ من بنى فزارة ورأى فتاة صبيحة وضيئة تشبه لبنى فتحدّث اليها وسألها فإذا آسمها لبنى، فاضطرب لذلك وآلتاع له. وكان لهذه الفتاة أخ لم يلبث أن عرف قيسا فألح عليـه فى أن يتزوج أخته، وما زال به حتى ظفر منه بالرضا. وتزوج قيس هذه الفتاة متورّطا من جهة، ومحاولا أن يجد فيها لبناه من جهة أخرى. ولكنه لم يكد يتم الزواج ويخلو الى آمرأته الجديدة حتى قامت لبناه القديمة بينه وبين زوجه، فلم يستطع أن ينظر اليها ولا أن يدنو منها. ثم آرتحل وتركها على أن يعود اليها ولكنه لم يعد.

أريد قبل أن أنتقل من هـذه الحيلة البديعة أن ألفتك الى أن هـذا الآختراع كثيرا ما تجده فى القصص الغرامى الحديث، وكثيرا ما تجد فى الفن الحديث عشّاقا حيل بينهـم وبين عشيقاتهم، فأخذوا يلتمسونهن فى نساء أُخَر يشبهنهن شبها قليلا أوكثيرا. ومهما يكن من شىء فقد وصل خبر هذا الزواج الى لبنى، وكانت لبنى من الألم والوجد والحـرمان على مثل ما كان عليـه قيس، وكانت قد رفضت الزواج كما رفضه قيس، فامتازت بهذا من ليلى وبثينة.

قال الرواة: إن معاوية لمـا أهدر دم قيس أشار على أبى لبنى أن يزوّج آبنتـه من رجل سماه له، وكانت لبنى تأبى الزواج. فلما بلغها ما كان من أمر قيس مع الفزارية أخذتها الغيرة والحنق فأرادت أن تجزيه بمثل خيانته فقبلت وتزوّجت هذا الرجل، وآرتحلت معه الى المدينة فأقامت فيها. وبلغ الخبر قيسا فاضطرب له واعتلّ وأخذه من أجله حزن شديد.

فأنت ترى كيف تلطّف واضـع القصـة فى الآنتهاء بقيس الى هـذا الموقف الموروث، موقف من يعشق آمرأة متزوجة. ومن ذلك الوقت تغير وجه قيس فأخذ لا يطلب لبنى فى البادية وإنمـا يطلبها فى المدينة.

وللرواة فى ذلك أحاديث لذيذة، منها قصة الناقة . فقد زعموا أن قيسا أراد أن يدنو من لبنى فاقتطع قطعة من إبل أبيــه وزعم لأهله أنه مرتحل الى المدينــة فبائع هذه الإبل فممتار لهم . وعرف أبوه دخيلة أمره فلامه ، ولكن قيسا لم يسمع له ، وذهب الى المدينة . فبينا هو يعرض إبله أقبل عليه رجل فساومه ناقة فاشتراها منه وواعده بيته ليقبض ثمنها ، وقبل قيس ، وكان هذا المشترى زوج لبنى ، وكان قيس لا يعرفه ولم يكن هو يعرف قيسا . فلما كان من الغد ذهب الى دار صاحبه يلتمس ثمن الناقة فصوّت بالخادم لتنبىء سيِّدها بمكانه .

قال الرواة : وعرفت لبنى نغمته . فلما دخل أمرت الخادم أن تسأله ما باله أشعث أغبر؟ فأجاب قيس : هذه حال من فارق الأحبة وآختار الموت على الحياة ؛ قالت لبنى للخادم : سليه يحدّثنا حديثه ؛ فأخذ قيس يقص قصصه ؛ وما هى إلا أن رفعت لبنى سترها وقالت : حسبك قد عرفنا حديثك ! قالوا : فبُهِتَ قيس ، ثم آنفجر باكيا ونهض مسرعا فاغترز رحله ومضى لا يلوى على شىء ، وصاحب البيت يدعوه فلا يجيب . قالوا : فقالت لبنى لزوجها : ويحك ! هذا قيس ؛ قال : ما عرفته .

ومنها قصة هذه المرأة التى تسمى بريكة ، والتى كانت زوجا لرجل من قريش شريف فى المدينة ، فقصد اليها قيس وتوسّل اليها أن تصل بينه وبين لبنى ؛ فتلطفت فى ذلك حتى جمعت بينهما ؛ فتحدّثا وتعاتبا وأقسم قيس لصاحبته أنه لم يملأ عينه من الفزارية ولا كانت بينه وبينها صلة ؛ ثم تركته على أن تعود إليه ، ولكنها لم تفعل فانصرف عن المدينة .

وأخبار أخرى كثيرة تصف لنا حال قيس وحال لبنى لا أذكر منها إلا خبرا واحدا يمثل لنا وفاء لبنى لصاحبها بعد الزواج ، كما كانت وفية له قبل الزواج . زعموا أن شعر قيس شاع وتناقله الناس وتغنّى فيه المغنون فى المدينة فأكثروا ، وتأذّى لذلك زوج لبنى فتنكر لآمرأته ولامها . قال الرواة : فأجابته جوابا عنيفا ولفتته الى أنها لم تتزوجه

رغبة فيه ولا فيما عنده ، وإنما تزوجته حين أهدر السلطان دم قيس مخافة على قيس أن يعرض فيقتل. ثم ذكرت له أنها لم تخف عليه من أمرها شيئا وأنه يستطيع فراقها متى أحب. قالوا : فأخذ منذ ذلك الوقت يتلطف لها ، ويترضّاها ، وبالغ فى ذلك حتى لقد كان يُحضر الجوارى يغنِّينها شعر قيس فيها .

كل ذلك يمثل لك ما تمتاز به قصة قيس بن ذريح من الجودة والإتقان والفائدة . فأولها قيم ، لأنه يعتمد على أساس متين . وسياقها كله قيم ، لأنه بعيد من المبالغة يكاد يخلو مما لا يقبله العقل . أما آخرها ففيه قولان ، كما يقول الازهريون . ذلك أن من الناس من أراد أن تكون آخرة قيس بن ذريح كآخرة جميل والمجنون . وأنت تذكر أن المجنون وجد ميتا فى بعض الأودية ، وأن جميلا مات غريبا فى مصر . كلاهما قتله الحب ، فيجب أن يقتل الحب قيس بن ذريح ، كما قتل صاحبيه وكما قتل عروة بن حزام من قبله . ومنهم من أراد أن تنتهى هذه القصة آنتهاء آخر ، فيه انتصار الحب وظفر العدل ، وفيه اطمئنان الإنسان إلى أن العشق الطاهر البرئ ليس كمدا كله .

وقد آتفق أولئك وهؤلاء على أن قيسا بعد أن لقى لبنى وتحدّث إليها آنصرف عن المدينة فارتحل الى الشأم يريد أن يطلب إلى السلطان إلغاء الأمر الذى أهدر به دمه . قالوا : فتلطف الى يزيد بن معاوية حتى لقيه وطلب اليه ما كان يريد ؛ فظفر له يزيد من أبيه بإلغاء هذا الأمر .

ومن الرواة من زعم أن يزيد بالغ فى الرفق بقيس حتى عرض عليه أن يكتب الى والى المدينة ليحمل زوج لبنى على تطليقها ؛ ولكن قيسا أبى ذلك . وقد ألغى السلطان إهدار دمه ، وأباح له أن يذهب وأن يقيم حيث شاء .

وهنا يختلف الرواة ، فأما أكثرهم فيزعم أن قيسا قضى بقية حياته يتتبّع لبنى فيدنو من المدينة حينا وينأى عنها حينا حتى ماتت لبنى وتبعها حزنا عليها أو مات قبلها . وأما غير هؤلاء فيزعمون أن آبن أبى عتيق — ولا بد من أن نخصص فى يوم من

الأيام فصلا لآبن أبي عتيق — سعى بعد تأمين قيس الى الحسن والحسين وعبد الله ابن جعفر و جماعة من أشراف قريش فقال لهم : إن لى حاجة عند رجل أخشى أن يأباها علىّ وأريد أن أتوسّل إليه فيها بجاهكم وأموالكم ؛ قالوا : ذلك لك منا مبتذل ؛ فواعدهم يوما آجتمعوا اليه فيه . ثم ذهب معهم الى زوج لبنى وهم لا يعرفون ما يريد، فتلقّاهم الرجل لقاء حسنا وقالوا له : إن هذا يتوسل بنا اليك فى حاجة له عندك ؛ قال : هى مقضية كائنة ما كانت ، فاستعاده آبن أبي عتيق ؛ فأعاد قوله ؛ قال آبن أبي عتيق : فحاجتى أن تطلق لبنى ؛ فطلق الرجل آمرأته وآستخزى هؤلاء الأشراف من قريش ، لأنهم ما كانوا يقدرون أن آبن أبي عتيق يتوسل بهم للتفرّق بين الزوجين .

وتزوّج قيس لبناه وقال يمدح آبن أبي عتيق :

جزى الرحمن أفضلَ ما يجازِى * على الإحسان خيراً من صديق
فقد جرّبتُ إخوانى جميعًا * فما ألفيتُ كآبن أبى عتيق
سعى فى جمع شَمْلِى بعد صدعٍ * ورأيٍ حدتُ فيه عن الطريق
وأطفأ لوعةً كانت بقلبى * أغصّتنى حرارتُها بريق

فقال له آبن أبى عتيق : يا حبيبى ، أمسك عن هذا المديح ، فما يسمعه أحد إلا ظننى قوّادا .

شعر الغزلين [1]

وانما أقصر حديث اليوم على هؤلاء الغزلين من أهل البادية لا أجاوزهم الى أولئك الغزلين من أهل الحاضرة كعمر بن أبى ربيعة والأحوص وغيرهما. بل لست أتناول فى هذا الحديث طائفة من شعراء البادية قالوا الغزل وتأنقوا فيه وظفروا بإجادته وإتقانه. ولكنهم لم يكونوا عشاقا أو لم يريدوا أن يكونوا عشاقا، كما كان جميل وقيس ابن ذريح والمجنون أو كما أرادوا أن يكونوا، وانما كانوا أصحاب لذة وعبث وأهل دعابة ومجون. فلم يقصر الله اللذة والعبث والدعابة والمجون على أهل الحاضرة، وانما وفر منها حظوظا مختلفة لأهل البادية. فاذا كان عمر بن أبى ربيعة ممثلا للهو شبان الحضر فى الحجاز فقد نرى فى يوم من الأيام أن يزيد بن الطثرية كان يمثل لهو شبان البدو.

وخلاصة القول أنا نستطيع أن نقسم الغزل فى ذلك العصر الى ثلاثة أقسام : (الأول) هذا الغزل العفيف الذى يمثله شعر جميل وقيس بن ذريح والمجنون، والذى هو بدوى خالص، والذى نتخذه موضوعا لحديثنا اليوم. (الثانى) هذا الغزل الذى يمثل لهو الحضر وعبث أهله، والذى يمثله عمر والأحوص والعرجى وغيرهم من شعراء مكة والمدينة. (الثالث) هذا الغزل الذى ليس بالعفيف إلا فى لفظه والذى يمثل لهو أهل البادية وعبث شبابهم على نحو من البداوة والسذاجة يذكّر بالعصر الجاهلى ويخالف أشدّ المخالفة ما نجد فى مكة والمدينة بعد الإسلام. ومن زعماء هذا الغزل يزيد بن الطَّثَريّة وغيره ممن سأحدثك عنهم فى غير هذا الفصل.

أما هذا الفصل فقد قلت إنى أريد أن أقصره على شعراء القسم الأول من الغزل، على العذريين وأصحاب النسيب العفيف. وفى الحق أن ليس من اليسير أن

---

(١) نشرت بجريدة « السياسة » فى أول أكتوبر سنة ١٩٢٤ م .

تتبين لهؤلاء الشعراء شخصيات ممتازة متباينة . فكلهم قد نسى نفسه أو فنى فى موضوعه فناء محا شخصيته وأخفاها على مؤرخى الآداب إخفاء تاما . ومن هنا اختلط أمرهم على الرواة اختلاطا شديدا ، فهم يضيفون الى المجنون شعر جميل وقيس بن ذريح ، وهم يضيفون الى قيس بن ذريح شعر جميل وشعر المجنون ، وهم يضيفون الى جميل شعر ابن ذريح وابن الملوح . ماذا أقول ! بل هم يضيفون الى كل واحد من هؤلاء الشعراء شعر كثير من أولئك الشعراء الذين لم يُتَحْ لأسمائهم الخلود ولم يعرف عنهم إلا بعض ما قالوا من الشعر . ولعلك تذكر مارويت لك فى حديث مضى عن الجاحظ من أنه كان يقول : ما ترك الناس شعرا مجهول القائل ذكرت فيه ليلى أو لبنى إلا نسبوه الى المجنون أو الى قيس بن ذريح . وتستطيع أن تقول أنت : ما ترك الناس شعرا مجهول القائل فيه ذكر بثينة أو عزة إلا نسبوه الى جميل أو الى كثيِّر . بل تستطيع أن تقول : ما ترك الناس شعرا مجهول القائل فيه ذكر عفراء إلا نسبوه الى عروة بن حزام . وعلى هذا النحو تستطيع أن تمضى .

والحقيقة التى ما أحسب أنها تتعرض للشــك هى أن ليلى ولبنى وعزة وبثينة وعفراء وهندا ودعدا وســعاد كل هذه أسماء ما أظن أنها تعيّن مسميات ممتازات ، وإنما هى أسماء نساء اتخذها الشعراء لهذا المثل الأعلى الذى كانوا يلتمسونه ويطمحون اليه حين كانوا يتغنّون الحب سواء منهم فى ذلك الشــعراء المعروفون والشعراء المجهولون . ليلى ولبنى وبثينة بالقياس الى هذا النوع من الغزل أسماء تشبه «هيلانة» بالقياس الى القصّاص من شــعراء اليونان المتقدمين ، لسنا ندرى أُوجدت حقا ؛ بل أكبر الظن أنها لم توجد وإنمــا هى المثــل الأعلى فى الجمال والحب واللين والرقة والدعة وغير ذلك من هذه الخصال التى يتغنّاها الغزلون .

هنالك حقيقة أخرى ما أحسب أنها تتعرض للشك أيضا وهى أن المجهولين من هؤلاء الشعراء الذين اصطنعوا الغزل العفيف وأكثروا القول فيــه وظفروا بإجادته وإتقانه أكثر من المعروفين . بل أكاد أعتقد أنهم لا يكادون يحصون . بل أكاد أعتقد أن الكثرة من شباب الأعراب فى ذلك العصر كانوا يصطنعون هذا النوع من الغزل فيتغنّون الحب وحسان العذارى . ولكن دواوين الرواة وذاكرتهم ضاقت

بهذه الأسماء الكثيرة التى لا يبلغها الإحصاء، فلم تثبت منها الا قليلا . وليس من شك أيضا فى أن هذا الفن الذى ظهر ظهورا طبيعيا فى هذا العصر، لأنه كان يترجم عن ميل عام وعواطف مشتركة لهؤلاء البدو، أقول ليس من شك فى أن هـذا الفن لم يكد يظهر و يُفْتَنُ به الناس حتى تخصص له شعراء قصروا حياتهم عليه واتخذوه لأنفسهم صناعة وحرفة . فهؤلاء الشعراء هم الذين أخفوا غيرهم من الأعراب المجهولين، وهم الذين بقيت أسماؤهم لحفظها الرواة واجتهدوا فى أن يخلقوا حولهـا من القصص والأحاديث ما كان موضوعا لبحثنا فى الفصول المـاضية . اذن لم يكن جميل وقيس ابن ذريح والمجنون وغيرهم من هؤلاء الشعراء عشّاقا بالمعنى الذى يريد الرواة أن يخيّلوه الينا، وانمـا كانوا شعراء، أو كان الذين وجدوا منهم شعراء قد اختصوا بهذا النوع من الشعر ووقفوا عليه حياتهم؛ لأنه كان فنا رائجا فى البادية حينئذ . اختصوا به كما اختص غيرهم بالهجاء لأن الحياة الاجتماعيـة كانت تدعو الى أن يختص به شعراء، وكما اختص غيرهم بالمدح لأن الحـاجة كانت تدعو الى أن يختص به شـعراء، وكما اختص غيرهم بالشعر السياسى وكما اختص غيرهم بوصف الخمر وهلم جرا .

ومن هنا كان من الحق أن نلاحظ أن الحياة الأدبية ليست من السهولة واليسر والسذاجة بحيث نظن أو بحيث كان يعتقـد الرواة، وانما هى معقدة أشدّ التعقيد، غامضة أشدّ الغموض، محتاجة الى ألوان من البحث والعناء فيه لنستخلص شيئا من حقائقها المجهولة . فمن الخطأ الفاحش أن نظن أن أكثر هذا الشعر الذى يروى لنا عن شعراء العصر الأموى والإسلامى قد صدر عن الفطرة والسليقة صدورا طبيعيا من غير تكلف ولا صنعة، كما يتفجّر الينبوع عن المـاء دون أن يكون للإنسان فى تفجيره عمل . ليس هـذا حقا، وانمـا الكثرة المطلقة من هؤلاء الشعراء كانوا عمالا صنّاعا يجـدّون فى فنونهم و يكدحون ويخضعون لمـا يخضع له غيرهم من العمال والصـناع وأهل الفن من هذه القوانين الطبيعية والاجتماعية المختلفة .

(ومهما يكن من شيء، فنحن مضطرون الى أن نقسم هذا الغزل العفيف نفسه الى قسمين : أحدهما هذا الغزل الذى قاله شعراء مجهولون ذهبت أسماؤهم، إما لأنهم

لم يكثروا من الشعر ولم يتخذوه صناعة، وإما لأن حظهم من الإجادة لم يكن كحظ غيرهم من هؤلاء الذين بقيت أسماؤهم . والثانى شعر هؤلاء الشعراء المعروفين الذين اتخذوا الغزل صناعة وفنا

ولا بد من أن نجتهد فى بيان الأسباب التى نشأ عنها هذا الفن فى البادية العربية . ولعلك لم تنس ما قدمناه فى غير هذا الفصل من حال هؤلاء الأعراب بعد أن استقر الأمر للسلمين . فقد قلنا إنهم كانوا فى شىء من اليأس والفقر غير قليل، وإن هذا اليأس والفقر قد أحدثا فى البادية مثل ما أحدث اليأس والغنى فى الحاضرة من نشأة هذا الفن الشعرى . ولكن يأس البادية وفقرها أحدثا هذا الغزل العفيف حينما يأس الحاضرة وغناها قد أحدثا هذا الغزل العابث الماجن .

يكفى أن تقارن بين حياة البدو بعد الإسلام وقبله، لترى أن هناك فروقا عظيمة بين هذين النوعين من الحياة . ولكن هذه الفروق تكاد تقتصر على الحياة المعنوية وحدها . فلم تكد الحياة المادية تتغير عند هؤلاء الناس بعد الإسلام، وانما كانوا فى ظل الخلفاء كما كانوا فى عصر الجاهلية : يخضعون لقوانين البداوة ويقاسون من شظفها وخشونتها مثل ما كانوا يقاسون فى العصر الجاهلى . وربما أتيح لهم شىء من سعة الحياة، ولكنه لم يكن كثيرا ولا موفورا . ذلك لأنهم لم يكونوا يشتركون فى الحياة السياسية . فإن فعلوا فلم يكونوا يحتفظون بالحياة البدوية . أريد أن البدويين الذين كانوا ينتظمون فى الجيش أو يتصلون بالخلفاء والأمراء والعمال لم يكونوا يحتفظون بحياة البداوة، وانما كانوا يتحضرون فيستقرون فى العراق أو الشأم أو مصر أو فارس أو غيرها من بلاد المسلمين . أما الذين كانوا يبقون فى الجزيرة العربية فقد كانوا لا يكادون يستمتعون بشىء من هذه الثروة الضخمة التى أفاءها الإسلام على المسلمين.

وربما كان من الحق أن نلاحظ أن هؤلاء الناس من أهل البادية كانوا قد احتملوا أعباء فى الإسلام لم يكونوا يحتملونها فى الجاهلية، أريد أعباء الصدقة والزكاة . فقد كانوا قبل الإسلام أحرارا لا يؤدون إتاوة ولا يخضعون لنظام إلا ما اصطنعوا

لأنفسهم من نظمهم الخاصة فيما بينهم . أما بعد الاسلام فقد ضُربت عليهم الضرائب وأُخذوا بالصدقات فى سائمتهـم . ولعل ما كانوا يظفرون به بعـد الكد من ثمرات الأرض لم يكن بمأمن من العشر . واذن فقـد ضيّقت الحياة الجديدة عليهـم بعض التضييق . أضف الى هذا شيئا آخر وهو أن الإسلام قد أخذ على هؤلاء النـاس شيئا من طرق الكسب التى كانت مألوفة فى الجاهلية ، لأن الاسلام أقر السلام بين القبائل البدوية وحال بينها و بين ما كانت تتخذه مجـدا وشرفا ومكسبا من الغزو وضروب الإغارة . فلم يكن يُتاح للقبائل بعـد الإسلام أن تتغازى و يغير بعضها على بعض ، كما كانت الحال فى الجاهلية . واذن فهذا نوع آخر من التضييق أحدثه الإسلام لهؤلاء النـاس . ثم لا تنس أن الإسلام قد أدخل النظام فى الحياة العر بيـة فقيد حرية الفرد والجماعة بهذه القيود المعروفة . واذن فقد كانت الحياة المـادّية عند أهل البادية بعد الإسلام شرا مما كانت عليه قبل الإسلام . ولهذا لم تدم الحياة الإسلامية المنظمة فى البادية عصرا طو يلا . ولم يكد يضعف سلطان الخلفاء أو لم يكد الخلفاء ينصرفون الى تدبير البـلاد المفتوحة حتى انتهز أهل البادية هـذه الفرصة فاستأنفوا ما كانوا فيه أيام الجاهلية من غزو و إغارة وحرب وخصومة . بل لم يدع أهل البادية فرصة تمكنهم من الفرار من أداء الصدقات والضرائب إلا انتهزوها واستفادوا منها . ور بمـا كان من اللذيذ أن ندرس فى يوم من الأيام أثر هذا فى شعر أهل البادية .

لم تتغير إذن حياتهم المـادّية فى جملتها ، بل ظلوا يلقون من الضيق و يقاسون من الشظف مثلما كانوا يلقون و يقاسون فى العصر الجاهلى . أما حياتهم العقلية والمعنوية بنوع خاص فقد تغيرت تغيرا شديدا . وحسبك أن تقارن حياة بدو ية متأثرة بهذه الطائفة من الآراء التى كان يتأثر بها الجاهليون ، بحياة بدو ية أخرى متأثرة بالقرآن الكريم وما فيه من دين وخلق وأدب وحكمة ونظام ، لتشعر بالفرق بين نفسية البدوى المسلم فى أول عهد الناس بالإسلام ونفسية البدوى الجاهلى . كان هذا الفرق عظيما وكان التوازن مختلا بين الحياة العقلية والحياة المـادّية ؛ تغيرت الأولى تغيرا تاما ولم تتغـير الثانية أو لم ينلها من التغير إلا شىء قليل .

ومن هنا نشأ فى نفوس هؤلاء الناس شيء من اليأس الذى أشرت اليه آنفا ووصفته وصفا مفصلا فى غير هذا الفصل : شيء من اليأس فى الحياة المادّية تبعه شيء من الأمل فى حياة أخرى ليس واضحا فى هذه النفوس الساذجة وضوحه فى نفوس أهل الحضر . ومن هذا اليأس والأمل تكوّن لهؤلاء البدو مزاج خاص لا هو بالبدوى الغليظ ولا هو بالحضرى الرقيق، وانما هو شيء بين بين .

ولعل أوضح ما يمتاز به هـذا المزاج ميله إلى أن ينكبّ على نفسـه انكبابا خاصا فيتعرف أسرارها ودخائلها، ويحاول أن يستكشف فيها هذه الحاجات الغريبة التى تشعر بها دون أن تستطيع لها إرضاء أو شفاء. لعل أوضح ما يمتاز به هذا المزاج شيء من الحزن الساذج المؤثم غير المحدود ولا البين، هذا الحزن العام الغامض الذى نستطيع نحن بوجه من الوجوه أن نتبين أسبابه فى هذا اليأس وفى هذا الفقر وفى هذه العزلة التى كانت تحول بين هؤلاء الناس وبين العمل السياسى وغير السياسى . نستطيع نحن أن نتبين أسباب هذا الحزن فنفهمه ونفسره . أما أولئك الناس فلم يكونوا يتبينون هذه الأسباب ولا يشعرون بها . بل لعلهم لم يكونوا يشعرون بهذا الحزن نفسه، مثلهم فى ذلك مثـل غيرهم من الشعوب المختلفة التى أحدثت أعظم الأحداث وخضعت لضروب من الثورات المـادّية والعقلية العنيفة حتى اذا هـدأت العاصفة وأخذت الأمور تستقر فى نصابها ، نظرت هـذه الشعوب فاذا هى لم تجن من هذه الثورات والاضطرابات العنيفة شيئا أو لم تكد تجنى منها شيئا . فـما أسرع ما يأخذها اليأس ويملكها الحزن وتنشأ فيها فنون أدبية جديدة ما كانت لتنشأ فيها لولا هذه الثورات وما أحيت من أمل قوىّ تبعه يأس قوى . وما لنا نذهب بعيدا والمثل قائم بين أيدينا لا تزال له حياته وقوّته، أريد الشعب الفرنسى بعد الثورة، والأدب الفرنسى بعد أن فشلت الثورة والامبراطورية الأولى، والعقل الفرنسى فى هذا العصر الذى يقع بين الامبراطورية الأولى والامبراطورية الثانية والذى أنتج هذا النوع من الأدب الحزين البائس بل اليائس الذى نقرؤه فى (شاتو بريان) و(لا مارتين) و(موسيه) و(فينى). أتظن أنا كنا نقرأ هذه الآثار المحزونة المؤلمة التى تركها هؤلاء الكتاب والشعراء لو لم

يُحدث الشعب الفرنسى هـذه الثورة العنيفة التى كانت على روعها وفظاعتها مفعمة بالآمال ثم آنجلت عن « واترلو » ؟ كلا ! وما كنا لنقرأ شعر جميل والمجنون وابن ذريح لو لم تحدث الأمة العربية هذه الثورة العنيفة التى اضطرب لها العالم القديم وتغير لها فيـه كل شيء، والتى كانت مملوءة أملا والتى استتبعت ألوانا من الفظائع والآثام فيما أحدثت من فتن وما شبّت من حروب ، والتى انتهت بالقياس الى هؤلاء البدو الى ماوصفت لك من هذه الحياة الخاملة الضيقة الخشنة الغليظة التى كان يحياها الأعراب فى صحارى جزيرة العرب ، حينما كان الخلفاء والأمراء ومن اليهـم يستمتعون بالملك والمجد والثروة وألوان الترف .

إن الشبه لشديد جدا بين أثر الثورة الفرنسية فى نفوس هؤلاء الشعراء والكتّاب الذين ذكرتهم ، وأثر الثورة العربية فى نفوس جميل وقيس بن ذريح ومن اليهما من الشعراء الغزلين فى البـادية . الشبه شديد، ولكن على أن تلاحظ الفرق بين الأمة الفرنسية التى كانت متحضِّرة مترفة عالمة بارعة فى الفن حينما أحدثت ثورتها، والأمة العربية التى كانت بادية ساذجة جاهلة خشنة العيش حينما أحدثت ثورتها أيضا .

مهما يكن من شيء، فإن حركة عقلية وشعورية أنشأت فى أهل البادية من العرب بعد أن انتهت الفتوحات والفتن فنا أدبيا يشبه من بعض الوجوه هـذا الفن الذى أحدثتـه فى فرنسا هـذه الحركة العقليـة الشعورية التى نشأت بعـد فشل الثورة والامبراطورية الأولى . والغريب أنك تجد فى هذين الفنين العربى والفرنسى وجهين مختلفين فى مظهرهما متفقين فى أسبابهما ، تجـد عند العرب وعند الفرنسيين شعراء يئسوا فذكروا الحب وتغنّوه فى غير فجور ولا مجون ، وآخرين يئسوا فلهوا وأسرفوا فى اللهو وتغنوا لهوهم وإسرافهـم . ولو أن أولئك وهؤلاء وجدوا من الحياة العملية ما يحول بينهم وبين اليأس ويصرفهم عن أنفسهم الى الحياة وعقباتها ومصاعبها لـما تركوا لنا من الآثار ما تركوا . أتظن أن جميلا وعمر بن أبى ربيعة — وهما يمثلان هذين اللونين من اليأس — كانا يقضيان حياتهما فى حزن عميق يمثله هذا الغزل العفيف أو هذا

اللهو المبتسم ، لو أنهما وجدا من الحياة العملية ما يصرفهما عن أنفسهما الى هـذا الجهاد الخصب المنتج الذى كان يمعن فيه أهل العراق والشأم ؟

أظن أن الأسـباب التى أثرت فى نشأة هذا الغزل واضحة جلية الآن . وأظن أننا نستطيع أن ننتقل منهـا الى شىء آخر : الى هذا الغزل نفسـه والى خصائصه ومميـزاته .

ولنلاحظ قبل كل شىء أن هذا الغزل كان يستطيع أن يكون أخصب وأغنى منه فى حقيقة الأمر لو لم تحط به هذه الظروف الخاصة التى أنشأته وأشرفت على حياته . أريد أن هذه البداوة وما استتبعته من سذاجة وجهل حالت بين هذا الغزل وبين أن يكون خصبا غنيا حقا ، وجعلت من اليسير أن تستغنى ببعضه عن بعض وأن تحكم ببعضه على بعض ، وحالت بين هؤلاء الشعراء وبين أن تكون لهم شخصيات قوية بارزة كهذه الشخصيات التى نجدها لشعراء الفرنسيين وكتابهم بين الامبراطوريتين . فإنك تستطيع أن تستغنى بجميل عن قيس بن ذريح أو بقيس بن ذريح عن جميل ، بل تستطيع أن تستغنى بواحد من هؤلاء الشعراء عن الشعراء الآخرين جميعا ؛ لأنهم طرقوا موضوعا بعينه هو الحب ، وتناولوه بأسلوب واحد وعلى نحو واحد من اللفظ . فما أسرع ما انتهوا الى أقصى ما كان يمكن أن يصلوا اليه ، وما أيسر ما تشابهت ألفاظهـم ومعانيهم وأساليبهم ، حتى إنك لتضيف الى أحدهم ما قاله غيره دون أن يحول بينك وبين ذلك حائل فنى ما . كلهم أحب امرأة أو زعم أنه أحب امرأة . وكلهم اتخذ هذه المرأة مثالا أعلى للجمال المـادّى والمعنوى . وكلهم وصفها بما يتصف به هـذا المثل الأعلى من صفات الحسن والكمال . وكلهم اعتمد فى تكوين هذا المثل الأعلى وفى وصفه على السنن الموروثة وألوان التشبيه التى سبقهم اليها الشعراء الأوّلون أو التى تواضع عليها الناس فيما بينهم . كلهم شبه صاحبته بالشمس والقمر . وكلهم وصف أجزاء صاحبته بما كان يصفها به غيرهم من الشعراء . وكلهم استعمل أو كاد يستعمل نفس الألفاظ ونفس المعانى التى كان يستعملها الشعراء من قبل ؛

فيم امتازوا من هؤلاء الشعراء؟ بشيئين اثنين فيما أعتقد : الأول أنهم قصروا حياتهم الفنية على الغزل . وكان الشعراء فى العصر الجاهلى يعنون بالغزل كما يعنون بغـيره من الفنون، وربما اتخذوه وسيلة فى أكثر الأحيان لا غاية . أما أصحابنا هؤلاء فقد اتخذوا الغزل غاية لا وسيلة . ولم نعرف أنهم مدحوا أو عُنُوا بفن آخر من فنون الشـعر إلا ما كان يضطرهم اليه الغزل . فنحن نعلم مثلا أن جميلا هجا وفاخر، ولكنا نعلم أنه لم يهج رغبة فى الهجاء ولم يفاخر رغبة فى الفخر، كما كان يفعل الأخطل والفرزدق وجرير؛ وانما هجا لأن غزله اضطره الى الهجاء، وفاخر لأن غزله اضطره الى الفخر. هجا قوما كانوا يعيبونه ويهجونه لغزله ونسيبـه، وفاخر هؤلاء القوم أنفسهم . ولو لم يعرضوا له لمـا فاخر ولا هجا . ونحن نعلم أن قيس بن ذريح لم يجاوز الغزل الى غيره من فنون الشعر. وقد أضيفت اليه أبيات مدح بها ابن أبى عتيق؛ ولكنا نعلم أن هذه الأبيات مصنوعة من جهة، وأنها — إن صحت — فلم يقلها قيس إلا لأن ابن أبى عتيق جد فى وصل الحبل بينه وبين لبنى .

الثانى أن غزل هؤلاء الشعراء الإسـلاميين أرقى بكثير من غزل الجاهليين من حيث إن غزل الجاهليين كان مادّيا خالصا بينما كان فى غزل الإسلاميين شىء غير المـادة . وأظن أن هذا يحتاج الى شىء من الايضاح .

ما الذى كان يعنى به امرؤ القيس أو النابغة أو الأعشى اذا تغزّلوا وذكروا النساء ؟ لم يكونوا يعنون بذكر الحب وتأثيره فى النفس ولا بهذه الآلام المختلفة التى تنشأ عنه، أى لم يكونوا يعنون بدخائل نفوسهم وانما كان الغزل عندهم ضربا من الوصف، كانوا يصفون النساء كما كانوا يصفون الإبل . وقلما تجد عندهم عناية بالعاطفة أو حرصا على تمثيلها. فان وجدت عندهم هذه العناية بالعاطفة لم تلبث أن تزدرى هذه العاطفة إزدراء؛ لأنها كانت عاطفة مادّية غليظة إن صح هـذا التعبير . كانت عواطفهم تصـدر عن الشهوات وإيثار اللذة قبل كل شىء . ومن هنا تجد عند امرئ القيس والنابغة مثلا هذا الوصف المـادّى الذى يتناول أجزاء المرأة فيصفها وصفا تفصيليا يختلف حظه من العفة قوة وضعفا؛ ولكنه مادّى قبل كل شىء . فاذا تركوا هذا الوصف وانصرفوا

الى أنفسهم يصفون ما تعانى من الحب وما تلقى من آلامه، فهم يعرضون لذلك كما يعرضون لوصف اللذات وحاجتهم اليها ورغبتهم فيها، يصفون لذة الحب كما يصفون لذة الصـيد ولذة الحرب . ومن قبل ذلك قلنا إنهـم كانوا يصفون النساء كما كانوا يصفون الإبل . كذلك كان الغزل فى الجاهلية ، كان وسيلة وكان ماديا . أما غزل الإسلاميين فلم يكن وسيلة وانمـا كان غاية . ولسنا نستطيع أن نقول إنه برئ من المـادة وخلا منها خلوا تاما . فذلك غير صحيح . ولم يستطع الأدب العربى فى وقت من الأوقات أن يبرأ من المـادة . وإنا نستطيع أن نقول إن الغزل الإسلامى العذرى أضاف الى المـادة شيئا آخر جعـله قِوام الشـعر ، نريد به الحب نفسـه وما يترك فى القلب من أثر، وما يبعث فى النفس من عاطفة، وما يسـبغ على المحب من كآبة وحزن، وما يحيي فيه من أمل ورجاء . لسنا نشك فى أن جميلا وقيس بن ذريح والمجنون قد وصفوا أجسام بثينة ولبنى وليلى، بل وصفوا هذه الأجسام وصفا مفصلا لا يخلو من دقة وتحقيق . ولكنا لا نسـتطيع أن نشك فى أن هذا الوصف المـادى لم يكن الغرض الذى كان يرمى اليه هؤلاء الشـعراء، انمـا كان وسـيلة الى الغرض الذى كانوا يرمون اليه، وهو وصف النفس وما تلقى بالحب من شقاء أو سعادة ومن بؤس أو نعيم .

انتقل إذن موضوع الغزل فى الإسلام . كان فى الجاهلية جسم المرأة فأصبح فى الإسلام نفس العاشق . ومن هنا لم يكن العذريون المسلمون يصفون المرأة كما كانوا يصفون الإبل، ولم يكونوا يذكرون لذة الحب كما كانوا يذكرون لذة الصيد ، وإنمـا كانوا يصفون المرأة كما ينبغى أن يصفها إنسان يشعر ويحس ويمتاز بشىء من الشـعور والحس لا يخلو من رقة ورقى معا . لم تكن المرأة عنـد هؤلاء الشعراء حاجة تُطلب أو شيئا يطمع فيه ، وإنما كانت شطرا من النفس لا تطيب للنفس حياة إلا به . ولعلك تقرنا على أن هـذا رقى عظيم، وعلى أن العقل العربى والشعور العربى عند ما بلغا هـذا الطور من تصوّر المرأة والحكم عليها والميـل اليها كانا قد جاوزا كل المجاوزة طور الوحشـية التى كان يعيش فيها الجاهليون . وليس

غريبا أن يعظم الفرق بين هذين الطورين فقد كان بينهما القرآن . وأثر القرآن فى نفوس المسلمين عظيم .

وأريد أن أضرب لك أمثالا تشخص هـذا التطور تشخيصا ظاهرا قويا ، فأبدأ بهذه الأبيات من شعر جميل وألفتك الى أنها مادية فى أولها لا تلبث أن تترك المـادة الى المعنى ، وأن تتناول الصلة بين العاشقين فى رقة ولطف وحنان ما كان ليجدها قلب كقلب امرئ القيس . وأحب أن تلتفت الى أن هـذا الشعر كغيره من شعر جميل وأصحابه لا يخلو من أبيات مصنوعة دسها المغنون ، ولكن شيئا من الفقه الأدبى يمكنك فى يسر من أن تفرق بين المطبوع والمصنوع :

وكأنّ طارقَها على عَلَل الكرى * والنجمُ وَهْنًا قد دنا لتغـوُّرِ
يستاق ريح مدامـةٍ معجونةٍ * بذكىّ مسك أو سحيق العنـبر
إنى لأحفظ غيبَكم ويسـرُّنى * إذ تذكرين بصالح أن تذكرى
ويكون يومٌ لا أرى لكِ مرسَلًا * أو نلتـقى فيـه علىّ كأشـهر
يا ليتنى ألقى المنيّـةَ بغتـةً * إن كان يومُ لقائكم لم يُقْـدَرِ
أو أستطيع تجـلُّدًا عن ذكركم * فيُفيق بعضُ صبابتى وتفكرى
لو قد تُجَنّ كما أُجَنُّ من الهوى * لعذرت أو لظلمت إن لم تعذُر
والله ما للقلب من علمٍ بها * غيرَ الظنون وغيرَ قول المخبِر
لا تحسبى أنّى هجرتُكِ طائعًا * حَدَثٌ لعمرُك رائعٌ أن تُهْجَرِى
فلتبكِيَنِّى الباكياتُ وإن أَبُحْ * يوما بسرِّك معلنًا لم أُعْـذَر
يهواكِ ما عشتُ الفؤادُ فإن أمت * يتبَعْ صداى صداكِ بين الأقبُر

فهل ترى ألذ من هذه النجوى وأعذب من هـذا الحديث! وهل تقـدر هذا الجمال الفنى الذى يمثله هـذا الالتفات من الغيبة الى الخطاب ثم من الخطاب الى الغيبة كلما دنا الى ذلك موضوع الحديث ! ثم هل تعلم أرق من هذا الكلام عاطفة وأرق منه شعورا !

وانظر الى هذه الأبيات التى قالها بعد أن حاول لقاء بثينة فلم يوفق اليه ، فرجع كئيبا وأخذ نساء الحىّ يلمنه و يعرّضن له بحبهن ووصلهن :

أبُثَيْن إنكِ قــد ملكتِ فأسْجِحِى * وخذى بحظِّك من كريم واصل
فلربّ عارضةٍ علينا وصــلَها * بالجدّ تخلطه بقــول الهـازل
فأجبتُهـا فى القول بعـــد تستُّرٍ * حُبِّى بثينــةَ عن وصالكِ شاغلى
لو كان فى صــدرى كقدر قُلامةٍ * فضلًا وصلتُك أو أتتــكِ رسائلى
و يقلن إنك قد رضيتَ ببـاطلٍ * منها فهل لك فى اجتناب الباطل!
ولَبَاطلٌ ممن أحبُّ حديثَــه * أشهى الىّ من البغيض البـاذل
ليُزِلْنَ عنك هواى ثم يصِلْنَنى ، * واذا هَوِيت فمـا هــواى بزائل
صـادت فؤادى يابثين حبالُكم * يوم الحَجُونِ وأخطأتك حبـائلى
مَنَّيْتِــنِى فلَوَيْتِ ما منيتـــنى * وجعلتِ عاجلَ ما وعدتِ كآجل
وتثاقلت لمـا رأت كَلَفِى بهـا * أحْبِبْ إلىّ بذاك من متثاقل
وأطعتِ فىّ عواذلًا فهجـرتِنِى * وعصيتُ فيك وقد جَهَدْنَ عواذلى
حاوَلْنَنِى لأَبُتَّ حبــلَ وصالكم * منى ، ولستُ و إن جهدن بفاعل
فرددتُهن وقد سَعَين بهجركم * لمـا سـعين له بأفوق ناصـــل
يَعْضَضْنَ من غيظٍ عـلىّ أناملا * ووَددتُ لو يعضضن صُمَّ جنادل
و يقلن : إنكِ يابثين بخيــلةٌ ، * نفسى فداؤكِ من ضَنينٍ باخل

رويت لك هــذه الأبيات على عِلّاتها فى رواية أبى الفرج مع تغيير قليل جدا فى ترتيب الأبيات الأولى لم يكن منه بدّ لاســتقامة المعنى . ولست أشــك فى أن هــذه الأبيات وغيرها من شعر الغزلين تُروى فى كتاب الأغانى وقد فقــدت ترتيبها الطبيعى ؛ لأن أبا الفرج لا يلتفت إلا الى الغناء وأصوات المغنــين . فأما النظام الطبيعى للقصيدة فلا يحفل به . وعندى أن هذه الأبيات التى نحن بإزائها قد رويت معكوسة وأن آخرها يجب أن يقع فى أولها . وشيء من التأمل يقنعك بهذا . ولكن

لهذا البحث موضعا آخر . أما الآن فأنا ألفتك الى الأبيات الأولى من هذا الشــعر والى لطف هذا التخلّص من تلك التي كانت تتبع جميلا وتطمعه تريد أن تصرفه عن صاحبته الى نفسها . ثم ألفتك أيضا الى هــذا الجمال الفني الذى يمثّله الالتفات من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى الغيبة ، والى هذه الجمل المعترضة التي يأتى بها الشاعر إما للتأكيد و إما للتلطف فى حديث صاحبته . ثم ألفتك الى هذه السهولة فى اللفظ والمعنى . فكل هــذه الخلال التي تجدها فى أكثر شــعرٍ جميل تبعدك كل البعد عن شعر الجاهليين وغزلهم .

٭٭٭

ولأنتقلْ بك من جميــل هذا البدوى المتحضِّر فى شعره الى رجل آخر احتفظ فى شعره بالبداوة دون أن يخطئه الجمال الفنى أو يقلّ حظه من الرقة وشرف العاطفة وهو قيس بن ذريح . وأروى لك من شعره الجميل هذه الأبيات :

أُقَضِّى نهارى بالحــديث وبالمُنَى * ويجمعــنى والهمَّ بالليــل جامعُ
نهارى نهارُ النــاسِ حتى اذا بدا * لى الليــلُ هزّتنى اليكِ المضاجع
لقد رسختْ فى القلب منكِ مودّةٌ * كما رسخت فى الراحتين الأصابع
أحالَ علىَّ الهمُّ مــن كل جانبٍ * ودامت فــلم تبرَحْ علىَّ الفواجع
ألا إنمــا أبكى لمــا هـــو واقعٌ * فهل جَزَعِى من وَشْكِ ذلك نافع
وقد كنت أبكى والنوى مطمئنّةٌ * بنــا وبكم من علمِ ما البينُ صانع
وأهجركم هجــر البَغِيض وحبُّكم * على كبدى منــه شؤونٌ صوادع
وأعمِــد للأرض التي لا أريدها * لترجِعَنى يومًا اليــك الرواجع
وأُشــفق من هِجْرانكم وتَرُوعنى * مخافة وشك البين والشمل جامع
فمــا كلُّ ما منَّتْكَ نفسك خاليًــا * تُلاقِى، ولا كلُّ الهوى أنت تابع
لعمرى لَمَنْ أمسى ولُبْنَى ضجيعُه * من الناس ما آختيرت عليه المضاجع
فتلك لُبَيْنَى قــد تَرَاخَى مزارُها * وتلك نَوَاهــا غربةٌ ما تُطاوِع

وليس لأمر حاول اللهُ جمعَـــه * مُشِتٌّ ولا ما فرّق اللهُ جامع
فلا تَبْكِيَنْ فى إثرِ لُبْنَى ندامـــةً * وقد نزعتهـا من يديك النوازع

أما أنا فأرى أن هــذه القصيدة آية من آيات الغزل العربى ، فيها جمال اللفظ ورصانته، وفيها جلال المعنى ومتانته ، وفيها جمال هــذه النفس التى تألم هذا الألم الشريف، وتذعن لقضاء الله وقدره هذا الإذعان الشريف .

وأحب أن تقدر معى جمال هــذا البيت وما فيه من صدق وســذاجة طبيعية وجودة للتشبيه :

لقد رسخت فى القلب منك مودة * كما رسخت فى الراحتين الأصابع

أُنظر اليه، أراد أن يشبّه ثبوت حبه ومتانته،فلم يلتمس التشبيه بعيدا من نفسه وإنما وجده فمد اليه يده أو لم يمدها ، وجده فى يده «كما رسخت فى الراحتين الأصابع» . ثم أُحب أن تلتفت الى هذا اليأس والإذعان اللذين ذكرتهما فى أول هذا الفصل. أحب أن تلتفت الى هذا البيت وتحدثنى أيمثل اليأس والإذعان تمثيلا صحيحا :

وليس لأمر حاول الله جمعه * مشتٌّ ولا ما فرّق الله جامع

أحب أن تقرأ هذه القصيدة وتقرأها ، فإنك لا تجد فيها نفس الشاعر وحده إنمـا تجد فيها نفس هؤلاء الغزلين جميعا . بل تجد فيها نفس البادية العربية فى هذا العصر . أحب أن تقرأ هــذه القصيدة وتقرأها وأن تقرأ أمثالهـا من شعر قيس وجميل وغير قيس وجميــل ، فإنك ستجد فى هذا الشعر ما تسكت به هؤلاء الذين يزرون الأدب العربى ويجحدون مكانة الشعر العربى ويخدعون بجمال الشعر الأفرنجى ، والله يعــلم أنهم ما فهموه ولا ذاقوه ، فيزعمون أن العرب لم يُحدثوا شيئا ولم يفهموا الجمال ولم يقدروه . إنهم ليزعمون ذلك ، وإنهم ليتحدّثون به الى الشباب . وإنهم ليكتبونه فى الصحف والكتب، والله يعلم ما زعموه ولا كتبوه ولا تحدّثوا به إلا عن جهل فاحش للأدب العربى والإفرنجى جميعا .

ولكنى أشعر بأنى أشطّ عن موضوع هذا البحث ، فلأعُدْ اليه ولأختمه بهذه الأبيات القليلة التى قالها مجهول ونسبت الى المجنون، والتى تمثل بداوة الغزل العربى ناصعة خلابة فى جمالها الساذج الطبيعى وهى :

تمرّ الصَّبا صفحا بساكن ذى الغَضَا * ويصدَع قلبي أن يهبّ هبوبُها
اذا هبّت الريح الشَّمالُ فإنما * جَوَاىَ بما تُهْدى إلى جَنُوبها
قريبة عهدٍ بالحبيب، وإنما * هوى كلِّ نفس حيث كان حبيبها
وحسبُ الليالى أن طرحْنَك مَطْرَحًا * بدار قِلًى تُمْسى وأنت غريبها
حَلالٌ لليلى شتمُها وانتقاصُها * هنيئا ، ومغفورٌ لليلى ذنوبها

ألفتك الى هذه البداوة فى قوله : «ويصدع قلبي أن يهب هبوبها» وفى قوله : « بدار قلى تمسى وأنت غريبها » يريد وأنت غريب فيها . ثم ألفتك الى هذه المعانى الساذجة الحلوة الخلابة لا لشيء إلا لأنها ساذجة . ألفتك الى هذا كله وأودّ لو تقرأ وتقرأ ما لم أستطع أن أرويه لك من شعر هؤلاء الغزلين ؛ وهو كثير، كثير بحيث يمكننا من أن نتصور هذه النفس اليائسة البائسة الهائمة فى طلب المثل الأعلى وإن كان قليلا جدا بالقياس الى ما ذهبت به الأحداث .

والآن وقد ألممنا بالغزلين وأشعارهم وأخبارهم إلمامةً قصيرة ولكنها نافعة، فقد نستطيع أن ننتقل منهم الى طائفة أخرى من الشعراء فى الفصول المقبلة .

عــود الى الغزلين (1)

وَضّـاح اليمن

كنت أريد أن أنصرف عن الغزلين الى طائفة أخرى من شعراء العصر الأموى، ثم بَدَا لى، فآثرت العودة اليهم، لأتم البحث، ولأن هؤلاء الغزلين من الحضر ليسوا أقلّ حظا فى الإجادة من أولئك الغزلين من أهل البادية، بل ربما كان درس الغزلين الحاضرين أعظم نفعا وأشدّ غناء من درس الغزلين البادين . ذلك لأن الغزلين من أهل الحضر يمثّلون نحوا من أنحاء الحضارة التى عاشوا فيها . ومن الخير أن نلمّ بهذه الحضارة الإسلامية فى أوّل عهدها بالظهور والإزهار . وقد يعيننا درس هذا الغزل الحضرىّ وما يتصل به من ألوان الحياة فى أيام بنى أمية على أن نفهم هذا العبث الذى نجده مستأثرا بالحياة الأدبيــة أيام بنى العباس ؛ فإن السنة الشعرية لم تنقطع بين هذين العصرين : عصر دمشق وعصر بغداد .

ثم قد نجد من درس الغزلين الحاضرين أيام بنى أمية ما يمكننا من تحديد الفروق الفنية والنفسية بين هؤلاء الشعراء الأمويين الذين كانوا أشد تأثرا بالحياة العربية القديمة، وهؤلاء الشعراء العباسيين الذين كانوا أشد تأثرا بالحياة الفارسية الجديدة ولكل هــذا نفعه وقيمته . ثم إن هؤلاء الشعراء الحاضرين لهم شخصياتهم البــارزة وآثارهم القوية فى تكوين الأدب الإسلامىّ والنفس العربية الاسلامية، فلا بد من درسهم والإلمــام بأطرافهم من حياة وآثار . وكيف نستطيع بعد أن درسنا جميــلا وقيس بن ذريح والمجنون أن نهمل الأحْوص والعرجى وعمر بن أبى ربيعة وعبيد الله ابن قيس الرقيات! على أنى لا أحدثك اليوم عن واحد من هؤلاء، وإنمــا أحدثك عن رجل آخر لست أدرى فى الحق أوُجد بالفعل أم لم يكن إلا خيالا اخترعه

(1) نشرت بجريدة «السياسة» فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٤ م .

القصّاصون اختراعا وانتحلوا شعره انتحالا ونسجوا ما حوله من الأحاديث والأخبار ما فيه لذة ومتعة وما يدعو درسه الى تأمّل وتفكر ؟

أريد أن أحدثك عن هـذا الشاعر الذى يلقبونه وضّاح اليمن، والذى فُتن به بعض أساتذة الأدب المحدَثين حتى خيّـل اليهم أنه اخترع الشـعر التمثيلىّ وأضافه الى تراثنا الأدبى القديم . اخترع الشـعر التمثيلى لا لأنه وضع قصة تمثيلية شعريةً، ولا لأنه تصوّر شيئا يشبه القصص التمثيلية أو يقاربها ؛ بل لأن قصيدة من شـعره فيها شيء من الحِوار؛ خُيّل الى هؤلاء الأدباء أنه قد اخترع التمثيل منذ أدخل الحوار فى الشعر؛ ونسوا أن الحوار ليس هو التمثيل ، وإنمـا هو أصل من أصول التمثيل . ونسوا أيضا أن هـذا الحوار الذى يجدونه فى شعر وضّاح والذى سأظهرك عليه بعد حين قد سـبق اليه الشعراء جميعا فى جاهليتهم وإسـلامهم ، فحاور امرؤ القيس عشيقاته ، وحاور ابن أبى ربيعة أخدانه ، وحاور جميل بثينة ، وحاور كثيِّر عزّةَ ، وحاور ابن ذريح لبنى . ومهما يكن من شيء فليس عسـيرا أن ننكر ما زعم هؤلاء الأساتذة المحدَثون لوضّاح اليمن من استكشاف التمثيل الشعرى، وأن نبيّن أن مصدر هذا الزعم إنمـا هو أن هؤلاء الأساتذة يجهلون التمثيل من جهة ، ويريدون أن يضيفوا الى الأدب العربى ما فيه وما ليس فيه، حتى لا يظهر فضل للأدب اليونانى أو الأدب الأوربى على أدبنا العربى .

الجهل من ناحية ، والغـرور من ناحية أخرى، هما اللذان أحدثا هذه الفكرة السخيفة فى نفس طائفة من أدبائنا .

إنما العسير حقا هو أن نقطع بشيء فى أمر هذا الشاعر : أوُجد أم لم يوجد؟ أقال هـذا الشعر أم لم يقله ؟ أوقعت له هذه الأخبار أم لم تقع ؟ مسائل عسـيرة ولكن حلها ليس مستحيلا .

أنا أشك فى وجود هـذا الشاعر شكا قويّا . وحسبك أن رواته يختلفون فيه اختلافا كثيرا،فنهم من يزعم أنه عربى حِمْيَرىّ . ومنهم من يزعم أنه من سلالة الفرس

الذين جاءوا اليمن مع سيف بن ذى يَزَن ليردّوا عنها غارة الحبشة . ومنهم من يحاول التوفيق بين هاتين الروايتين، فيزعم أنه عربى ولكن أباه مات عنه طفلا، فتزوجت أمه رجلا من سلالة هؤلاء الفرس الذين كانوا يسمون "الأبناء" وشبّ الطفل فى حجر هذا الفارسى . ثم جاءت عمومته تطلبه فادّعاه الفارسى . وكانت حول الغلام خصومة رفعت الى الحاكم فقضى للعرب على الفارسى . قالوا : وكان الغلام بارع الجمال فأُعجب به الحاكم فمسح على رأسه وقال له : أنت وضّاح اليمن ! فغلب عليه هذا اللقب .

غير أن هذه القصة المتكلفة وهذا التوفيق الغريب بين الروايتين لا يثبتان أمام شىء نجده فى أخبار وضّاح، وهو أنه بينما كان فى دمشق متصلا بقصر الوليد بن عبد الملك — كما سترى بعد حين — تلقّى كتابا من اليمن فيه نعى أبيه وأخيه، فرثاهما بقصيدة قافية طويلة يرويها أبو الفرج . واذن فلم يمت عنه أبوه وهو طفل، و إنما مات عنه وهو رجل فى عنفوان قوته قد سما به المجد حتى اتصل بقصور الخلفاء .

ثم لا يختلف الرواة فى أمر وضّاح وحده، بل يختلفون فى أمر عشيقته الأولى — فله عشيقتان — : أفارسية هى أم عربية .

فكل هذا الاضطراب لا يحمل على الاطمئنان الى وجود وضاح . ولكن هناك شيئا آخر يحمل على الشك فى وجود وضاح، وهو أن الغزلين الذين بعُد صوتهم فى القرن الأول والثانى للهجرة مضريون كلهم أو أكثرهم، سواء فى ذلك منهم البادون والحاضرون . فمن كان من بينهم يمانيا كالأحوص الأنصارى ، فانما هو يمانى النسبة ليس غير، قد اشتدّ اتصاله بالمضرية عامة وقريش خاصة، حتى لم يأخذ بحظه من العصبية اليمانية التى كانت قاعدة الحياة السياسية وآفتها فى ذلك العصر . وقد حاولت اليمانية أن تدّعى جميلا ولكنها لم توفّق ، لأن النسّابين اشتدّ اختلافهم فى نسب قُضَاعة قبيلة جميل ، حتى إن جميلا نفسه كان يزعم و يعلن أنه من مَعَدّ .

كان الغزلون كلهم أو أكثرهم مضريين . وكانت العصبية بين المضرية واليمانية قد عظم أمرها وأخذت تحدث فى الحياة السياسية العربية آثارها المنكرة المعروفة . فكانت المضرية لا تفتخر بشىء إلا حاولت اليمانية أن تفتخر بما يعدله أو يفضله . وقد آفتخرت المضرية بالغزلين من شعرائها فى الإسلام، وكانت السنة المتصلة أن الغزل يمانى، لأن آمرأ القيس هو الذى مهـد طريقه فى الجاهلية، فلم يكن من اليسير على اليمانية أن تحتمل هـذا الخذلان وأن تسلّم للمضرية بهذا التفوّق الشعرى الذى آغتصبته آغتصابا وظفـرت به فى غير حق ولا وراثة . واذن فلا بدّ من أن يكون لليمانية شعراء غزلون تقفهم أمام الشعراء الغزلين من المضرية . وليس وضّاح هذا — فيما أرجح — إلا تجربة من هؤلاء الشعراء الذين كان اليمانيون يخترعونهم آختراعا فى القرن الثانى للهجرة ليفاخروا بهم المضريين .

اخترعت اليمانية وضّاحا وشعره — فيما أعتقد — حتى لا يقال إنها خلت من شاعر غزل فى الإسلام . وهبه قد وجد حقا وقال الشعر وآتصل بالخلفاء ووقعت له هذه الأخبـار المعروفة كلها أو بعضها ، فليس من سبيل الى الشك فى أن الكثرة المطلقة من هذا الشعر الذى يضاف اليه منتحلة مصنوعة لم يقلها ولم يعلم بها .

ولمـاذا ؟ لأن هذا الشعر الذى يضاف الى وضاح لا يمكن أن يكون قد صدر عن شاعر مات قبل أن ينتهى القرن الأوّل للهجرة .

أنت قد قرأت شـعر الغزلين من أهل البادية وعرفت أنه يمتـاز بمتانة اللفظ ورصانة الأسلوب . وهذه المسحة البدوية التى إن لم تكن شديدة الخشونة فليست شديدة النعومة . وأنت قد قرأت وستقرأ شـعر الغزلين من أهل الحاضرة، وسترى أن هذا الشعر اذا برئ من خشونة البادية قليلا أو كثيرا فهو عربى ، عربى برىء من الابتذال والسقوط وهـذا اللين الذى يحملك على أن تقسم ما قال هذا الشـعر عربى، وإنمـا هو صنعة مولّد ضعيف .

شعر وضّاح لين مسرف فى اللين ، سهل مفرط فى السهولة ، هو شعر مخنث إن أذنت لى باستعمال هذا اللفظ . ثم هو على لينه وخنوثته لا يخلو من تكلف منكر قد يخرجه أحيانا عن أصول النحو . ثم هو على هذا كله لا يخلو من تكلف آخر فى القافية لم يكن يذهب اليه الشعراء الأولون . تراه يتكلف قافية شينية مثلا و يريد أن يطيل ، والقافية الشينية عزيزة تعسر عليه ، فيضطر الى أن يصطنع جيّد اللفظ وسخيفه ؛ لأنه مفلس ، ولأنه يريد أن يظهر مظهر الموسر . وآنظر الى هذه القصيدة فقد تغنيك عن إطالة القول :

طرِب الفؤادُ لطيف روضةَ غاشى * والقوم بين أباطح وعِشاش

أنّى آهتديتِ ودون أرضك سبسبٌ * قفرٌ وحزنٌ فى دُجًى ورشاش

قالت تكاليف المحب كلفتها * إنّ المحب اذا أُخيف لماشى

أدعوكِ روضةُ رحبَ واسمكِ غيرُه * شفقًا وأخشى أن يشى بك واشى

قالت فزرنا قلت كيف أزوركم * وأنا آمرؤ لخروج سرّك خاشى

قالت فكن لعُمُومتى سلما معا * والطف لإخوتِىَ الذين تُماشى

فتزورنا معهم زيارة آمن * والسرّ يا وضّاحُ ليس بفاشى

ولقيتُها تمشى بأبطح مرّةً * بخلاخل وبحُلّة أكياش

فظلِلْتُ معمودا وبتُّ مسهّدا * ودموع عينى فى الرداء غَواش

ياروض حبكِ سلّ جسمى وآنتحى * فى العظم حتى قد بلغت مُشاشى

أترى الى هذه القصيدة فى ألفاظها ومعانيها وقوافيها؟ والنبدأ فلنلاحظ أن معنى هذه القصيدة أقرب الى ما نجده فى حياة المدن أثناء العصور المتأخرة منه الى ما نعلم من أخلاق العرب فى العصور الأولى . فهذه المرأة التى تريد وضّاحا على أن يزورها ، فاذا ذكر لها عسير ذلك أغرته بأن يتلطف لأعمامها و إخوتها حتى تكون الصداقة بينه و بينهم ، فتسهل عليه زيارتها معهم دون أن يتعرض لخطر أو أن يذاع سرهما .

أقول إن هذه المرأة أقرب الى أن تكون بغدادية من الطبقات المنحطة فى أهل بغداد منها الى أن تكون عربية يمانية أو مضرية قريبة عهد بأخلاق البادية وما فيها، لا أقول من عفة وطهارة، ففى البادية فحشها وفجورها، بل أقول من كرامة وسذاجة وترفّع عن مثل هذه الدنيات .

وأما القافية فقد لاحظت من غير شك مطلع القصيدة الذى يقول فيه : " طرب الفؤاد لطيف روضة غاشى " وما أحسبك فى حاجة الى أن أنبهك الى موضع "غاشى" من العسر والحرج، وفطنت الى قوله : " ان المحب اذا أخيف لماشى " ؛ وفطنت الى قوله : " وأشـفق أن يشى بك واشى " دون نصب الفعل ؛ وفطنت الى غير ذلك مما تشتمل عليه القصيدة من مهلهل اللفظ وردىء القافية .

ولست أريد أن أطيل برواية الكثير من شعر وضاح ؛ فقد تجد ذلك فى كتاب الأغانى . وأنا أوصيك بالقافية التى يرثى بها أباه وأخاه . وأروى لك هـذه الأبيات التى يجزع فيها على أم البنين وقد أخذتها علّة :

حتّامَ نكتم حزننا حتّاما * وعلامَ نستبق الدموع علاما
إن الذى بى قد تفاقم واعتلى * ونما وزاد وأورث الأسقاما
قد أصبحت أم البنين مريضة * نخشى ونشفق أن يكون حِماما
يارب أمتعنى بطول بقائها * واجبر بها الأرمال والأيتاما
واجبر بها الرجل الغريب بأرضها * قد فارق الأخوال والأعماما
كم راغبين وراهبين وبؤّس * عُصِموا بقرب جنابها إعصاما
بجناب ظاهرة الثنا محمودة * لا يستطاع كلامُها إعظاما

فمن زعم أن هـذا الشعر عربى قد صـدر عن قائله فى القرن الأول للهجرة، فإنى أزعم أنه لم ينشأ فى القرن الأول ولا فى الثانى، وانما أنشأه ناظم جاهل لا حظ له من قوة ولا نصيب له من فنّ فى القرن الثالث أو الرابع للهجرة . ويحدثنا أبو الفرج أن كتابا غثّا مصنوعا كان فى أيدى الناس عن الوضّاح وأنه كره أن ينقل منه شيئا .

و إذن فوضّاح اليمن هذا بطل غرامى من أبطال العامة لا من أبطال الخاصة كأولئك الذين درسنا أخبارهم فى الفصول الماضية .

على أن اللذيذ من أمر الوضّاح ليس شعره ولا نسبه ، و إنما هو هذه القصة الغرامية التى أنشئت حوله والتى آشتركت فى تكوينها عناصر مختلفة، منها السياسى ومنها العصبى ومنها المبالغات العامية، والتى ما زالت تصلح موضوعا لقصة غرامية موسيقية حديثة على نحو ما يسميه الفرنج بالأوبرا .

زعموا أن وضّاحا أحب فى أوّل أمره آمرأة يقال لها روضة، يمانية أو فارسية، و زعموا أنها أحبته ، و زعموا أن حبهما ذاع بين الناس . فلما خطبها أبى عليه أهلها ما أراد، على نحو ما هو معروف فى القصص الغرامية لذلك العهد . ولكن هذه القصة آختزلت آختزالا فلم يستطع الشاعر أن يحتفظ بغرامه و يتعرّض لأخطار الحب ، ولم يتح للسلطان إهدار دمه كما هى العادة فى القصص الغرامية . ذلك لأن "روضة" أصابها الجذام فلم تصبح أهلا للعشق ، وإنما أصبحت أهلا للرحمة، وقد رحمها الشاعر وعطف عليها . ومع أن أكثر شعر وضّاح إنما هو فى روضة هذه فإن قصته الحقيقية التى عبثت بحياته بل عصفت بها والتى أشرت اليها آنفا إنما هى سيرته مع أم البنين .

أم البنين هذه بنت عبد العزيز بن مروان وزوج الوليد بن عبد الملك . كانت جميلة فاتنة يشهد بذلك شعر عبد الله بن قيس الرقيّات فيها . وقد استأذنت زوجها فى الحج فأذن لها ،فبلغت مكة فى جوار حسان لم ير أهل مكة مثلهن،وكن سافرات يتعرّضن للغزلين من أهل الحجاز . وكان الوليد قد توعّد الشعراء إن تغزلوا بالملكة أو إحدى وصائفها . ولكن الملكة كانت تريد أن يتغزل بها الشعراء كما تغزلوا بأخت زوجها فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر بن عبد العزيز، وكما تغزلوا بسكينة بنت الحسين، وكما تغزلوا ببنت معاوية من قبل، وكما كانوا يتغزلون بكل شريفة وردت مكة، لا يريدون بذلك إثما ولا نكرا، و إنما يذهبون فى ذلك مذهب المدح

والدعابة . فطلبت الى كثيرٍ والى وضّاح أن يذكراها . فأما كثيرٌ فخاف الخليفة وأراد أن يرضى الملكة، فذكر جارية لها يقال لها غاضرة. وأما وضّاح فتغزل بالملكة نفسها، ولم ينقل الرواة الينا ما قال فيها، ولكنه نمى الى الوليد فحنق عليه وآغتاله .

هذا ما يمكن أن يكون صحيحا من القصة ، وهو الموضوع الذى نسجت حوله هـذه القصة المتقنة التى سأوجزها فى أسطر والتى قلت إنهـا تصلح موضوعا لمأساة موسيقية حديثة .

زعموا أن أم البنين أحبت وضّاحا وأحبها وضاح، وكانت بينهما دعابة ثم جاوز الأمر الدعابة الى ما هو شر منها . قال : وأهدى الى الوليد جوهر أعجبه فأراد أن يهديه الى أم البنين؛ فأرسله اليها مع خادم له ودخل الخادم على الملكة فرأى عندها وضاحا؛ قال : فأسرعت الملكة الى صـندوق فأخفت فيـه صاحبها ، ثم أخذت الجوهر من الخادم وقد رأى ما صنعت فطمع فيها وأراد أن يستغل ما يعلم، فطلب اليها أن تمنحه حجرا من هذا الجوهر؛ قال : فأبت عليه ذلك وسبّته ، فآنصرف محنقا حتى بلغ الخليفة فأنبأه بما رأى؛ فأظهر الخليفة تكذيبه وأمر به فقتل، ثم نهض من فوره فدخل على الملكة فإذا هى تمتشط، فجلس على الصندوق الذى وصفه له الخادم وأخذ يتحدّث الى الملكة فى ملاطفة حتى سألها أن تهدى اليه هذا الصندوق ، فلم تستطع ردّه، فأمر بالصندوق فاحتمل الى مجلسه، ثم أمر فاحتفرت بئر فى هذا المجلس، ثم ألقى الصندوق فى البئر وهيل عليه التراب وسوّيت الأرض ورد البساط الى مكانه؛ ولم يعرف أحد لوضاح خبرا، ولم تنكر الملكة من زوجها شيئا .

قال أبو الفرج : إن هذه القصة مصنوعة وضعها أحد الشعوبية . وقد كانت بينه وبين "أحوى" ملاحاة أيام بنى العباس. وأكبر الظن أن هذه القصة موضوعة كلها ، ولكنها فى نفسها جيـدة مؤثرة صالحة كما قلت لأن تكون موضـوع مأساة موسيقية .

فأنت ترى أمر وضاح هـذا كله نكر فى نكر : فشخصه موضوع شك، وشعره منحول، وأخباره متكافئة . ومع ذلك فنحن نجد فى شعره شيئا لا يخلو من جودة . وأنا أوصيك باللاميتين اللتين مدح بهما الوليد .

وأختم هذا الحديث بهذه الأبيات التى أشرت اليها فى أول الفصل والتى خيلت الى بعض الأدباء المحدثين أن وضاحا قد استكشف الشعر التمثيلى . وإنما أروى هذه الأبيات لأن فيها سذاجة حلوة إن لم تمثل النفس العربيـة فهى تمثل النفس العامية البغدادية :

قالت ألَا لا تَلِجَنْ دارنا * إن أبانا رجـل غائرُ
قلت فإنى طالبٌ غِـرّةً * منه وسـيفى صـارم باتر
قالت فإن القصر من دوننا * قلت فإنى فوقه ظاهر
قالت فإن البحر من دوننا * قلت فإنى سـابح ماهر
قالت فحولى إخـوةٌ سبعة * قلت فإنى غالب قاهر
قالت فليثٌ رابض بيننـا * قلت فإنى أسـد عاقـر
قالت فإن الله من فوقنا * قلت فربِّى راحم غافـر
قالت لقد أعييتنا حجّـةً * فأت اذا ما هجع السـامر
فاسقُطْ علينا كسقوط الندى * ليـلةَ لا ناهٍ ولا زاجـر

الغـــــزلون[1]

العَـــرْجىّ

أريد اليوم أن أحدّثك عن شاعر ظريف خفيف الروح محبب الى النفس . فيه خصال الرجل العربى حقا ، لا أريد عربى البادية ولا أريد الحضرى الفقير ، وانما أريد العربى الذى قضى الله له مولدا كريما وثروة ضخمة ومكانة ممتازة ، فاستمتع بهذا كله كما ينبغى أن يستمتع به ، وظفر من هذا كله بما يستتبع من الخلال الحسنة والسيئة . فأنت تجد عنـده مزايا الثروة ونقائصها ، وأنت تجده مصدرا لكل ما يصـدر عن الأورستقراطية من خير وشر . وأنت تجده مثلا صادقا لهـذه الطائفة من الشباب الحجازى الذى حدّثتك عنـه غير مرة ، وزعمت لك أنه كان حسن المولد ضخم الثروة قوى المروءة عظيم الحظ من الذكاء ، ولكنه كان مع ذلك أو قل كان لذلك نفســه مبعدا عن الحياة السياسية العامة ، مضطرا الى أن ينفق أيامه فى اللهو واللعب ويبلى حياته فى العبث والمجون .

حدثتك عن هذا الشباب غير مرة ، وسأحدثك عنه غير مرة أيضا ؛ فإن حياة هؤلاء الشبان الذين كانوا زهرة الأورستقراطية الإسلامية سواء أكانت هذه الأورستقراطية معتمدة على الدين أم على المولد أم على الثروة أم على هذه الأشياء جميعا . أقول إن حياة هؤلاء الشبان خليقة بالدرس والعناية ؛ لأنه كان قد قُدِّر أن أبناء الذين أسسوا الدولة الإسلامية الأولى يجب أن يكون لهم أثر عظيم فى حياة المسلمين . فلو أن الخلفاء من بنى أمية أشركوهم فى حديث الأمر كما آشترك آباؤهم فى قديمه لتغيرت من غير شك وجهة الحياة السياسـية الإسلامية ، ولقامت دولة بنى أميـة على الشورى

---

(١) نشرت بجريدة « السياسة » فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤

لا على الاستبداد، ولحيل بين المسلمين وبين هذه الثورات التى مزّقت دولهم تمزيقا. ذلك ان هذا الشباب القوى الذكى الخصب كان يستطيع أن يقيم شيئا من التوازن المتين بين سلطة الخلفاء وسـلطة الزعماء يمنع هؤلاء الخلفاء من الظلم والإسراف فى الانقياد للعصبيات . ولكن الخلفاء فهموا هـذا حق الفهم واستيقنوا أن اشـتراك الشباب الحجازى فى أمور الدولة يقبض سلطانهم ويضطرهم الى شىء من الحكم الدسـتورى مناف كل المنافاة لمـا كانوا يسمُون اليه من الحكم المطلق . فلم يروا بدا من إبعـاد هـذا الشباب من أمور الدولة واضطراره الى أرض الحجاز لا يجاوزها إلا بإذن ولا يخرج منها الا فى حاجة ماسة .

ولقد جاهد هـذا الشباب الحجازى جهادا عنيفا فى سبيل الاحتفاظ بمنزلته التى تركها له أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، فما كانت ثورة بن الزبير، وما كانت ثورة الحرّة، وما كان خروج الحسين بن على إلا مظاهر لهذا الجهاد . ولكن هذا الشباب الحجازى لم يوفق وتمّت الكلمة للاستبداد الأموى . واضطرّ أبناء الصحابة والخلفاء الراشدين الى هذه الحياة الفارغة يحيونها فى الحجاز . ولم يحل بينهم و بين الاشتراك فى أمور الدولة فحسب، بل حيل بينهم و بين الحياة فى غير الحجاز من أقطار البلاد الإسلامية . وتخير بنو أمية عمالهم أو كثرة هؤلاء العمال من غير هذه الأورستقراطية الحجازية . ورأينا أبناء أبى بكر وعمر وعثمان وزهرة الشباب الهاشمى مضطرين الى أن يحيوا فى ضياعهم . فأما أكثرهم فانصرف الى اللهو والمجون ، وأما أقلهم فانصرف الى الدين والتقى ، ووقف فريق بين بين؛ يحتفظ بمكانته الدينية و يأخذ مع ذلك بحظه من متاع الحياة.

ولعلك تعلم أن هذا المـاجن الذى ازدان به الحجاز حينا وهو ابن أبى عتيق كان من سلالة أبى بكر ، وأن العرجى الذى أريد أن أحدثك عنـه اليوم كان من سلالة عثمان . ولعلك تعلم مكانة عبد الله بن جعفر وهذا الجلال الدينى الذى كان يحيط به، وأنه لم يكن يكره أن يسمع الغناء ولا أن يختلف الى مجالس المغنيات . ليس لهذا كله مصـدر فيما أعتقد إلا أن الخلفاء من بنى أمية حالوا بين هذه القوة العاملة و بين

العمل ، ففسدت لذلك أمور الدولة من جهة وأمور هذا الشباب الحجازى من جهة أخـــرى .

لم يكن بدٌّ من أن يكون لأبنــاء الذين أسسوا الدولة الإسلامية أثر فى الحيـاة الإسلامية . وقد أبى الخلفاء عليهم أن يؤثّروا فى السياسة فأثروا فى الأدب والحضارة . نعم! أثروا فيهما آثارا باقيــة ؛ فنحن مدينون لهم بالغزل ، ونحن مدينون لهم بالغناء ، ونحن مدينون لهم بكل هــذه الناحية الحلوة الظريفة من الحضارة الإســلامية أيام بنى أمية .

وأحب أن نلاحظ معى أن هــذه الناحية الحلوة الظريفة من الأدب الأموى والحضارة الأموية ظلّت نقية طاهرة بريئة من الإثم والفحش الى حد ما ، احتفظ بها الحجاز وزهد فيها خلفاء الشام . فلما جاوزت الحجاز الى قصور دمشق ، ولمــا أراد الخلفاء أن يلهوا كما كان يلهو شباب الحجاز ، ولمــا آنتقل الغزل والغناء والعبث من الأرض المقدّسة الى قصور بنى أمية ظهر فيها هذا الفساد الذى ننكره حين نراه .

أليس مما يلفتك أنك لاتكاد تظفر بشىء من الفحش فى عبث هؤلاء الحجازيين ولهوهم ، بل أنك ترى الفقهاء والمحــدّثين وأصحاب الزهد والنسك يســتعذبون هذا الظّرف الحجازى ويستحبونه ولا يتحرجون من الآستماع له بل من الاشتراك فيه ما ظلّ حجازيا ، حتى اذا انتقل الى الشأم ظهر النفور منه والسخط عليه .

رضى الفقهاء قليلا أو كثيرا عن ظرف آبن أبى ربيعة ، وعبث العرجى ، ومجون آبن أبى عتيق ، ولكنهم أنكروا لهو يزيد بن معاوية ، وسخطوا على عبث يزيد بن عبدالملك ، وكفّروا الوليد بن يزيد . ومصدر ذلك فيما أظن أن شباب الحجاز كان يلهو بمقدار ، وكانت مكانته الدينية والآجتماعية وخوفه من رقابة الخلفاء يعصمانه من مجاوزة الحدود . أما شباب بنى أمية فلم يكد يعرف اللهو حتى آندفع فيه الى غير حد ، لا يخشى مراقبة ولا يحفل بسلطان .

نحن مدينون لهذا الشباب الحجازى : بدوه وحضره بالغزل والغناء . وقد حدثتك عن غزل أهل البادية، وأحدثك الآن عن غزل أهل الحاضرة، وأبدأ بهذا العرجى الذى كان من سلالة أحد الخلفاء الراشدين .

كان عثمان جده الثانى . وكان كغيره من أبناء الخلفاء والصحابة غنيّا ضخم الثروة يتردد بين مكة و إقطاع له قريب من الطائف يسمى العَرْج فنسب اليه . وقد حاول أن يكسب لنفسه منزلة تلائم مولده وثروته، فأبلى فى الغزو بلاء حسنا مع مَسْلَمَة بن عبـد الملك وأنفق فى سبيل الله أموالا ضخمة . تحـدثوا أن ضائقة أصابت الجيش فوقف ثروته على إطعام المسلمين ووكل غلامين له بقِدْره يقومان عليه طَوَالَ الليل . وتحدّثوا أيضا أن ضائقة أصابت الجيش فى بعض غزواته فتقدّم العرجى الى تجار أن يقضوا حاجات المسلمين وأن يرجعوا بذلك عليه ؛ فرجعوا عليـه بعشرين ألف دينار، وانتهى الأمر الى عمر بن العزيز فقال : بيت المـال أحق بهذا . وأدّى عن العرجى دينه من التجار . ومع ذلك لم ينفعه عند بنى أمية بلاؤه فى الحرب ولا سخاؤه بالمـال، كما لم ينفعه عنـدهم اتصاله بعثمان مع أن دولتهم قامت على الثأر لعثمان؛ فلم يولّوه عملا ولم يكلوا اليه أمرا . واضطر الى أن يعود الى الحجاز فيحيا فيه يائسا محزونا حياة غيره من أبناءِ الصحابة والخلفاء .

كان كريما اذن، وكان شجاعا، وكان — فيما ذكر الرواة — أرمى الناس بالسهم وأبراهم له ، كما كان فارسا شديد الحذق بالفروسية، وكان ذكى القلب عزيز النفس قوى الفطنة، وكان مع ذلك مبعدا عن الحياة العاملة . فلم يكن بدّ لهذه الملكات من أن تظهر وتؤتى ثمرها فى اللهو والعبث إذ حيل بينها و بين الجد . وقد أخذ العرجى بحظه من اللهو والعبث، فنهج منهج ابْنِ أبى ربيعة . ولكنه خالفـه من وجهين : أحدهما أن ابن أبى ربيعة كان هادئا وادعا مطمئنا الى لين الحياة وخفض العيش وحديث النساء، كان حمامة من حمام الحرم كل حظه من الحياة أن يحب وأن يتغنّى فى الحب . ولهذا استطاع أن يهوّن على أخيه؛ فقد حضرت الوفاة عمر بن أبى ربيعة

فجزع عليه أخوه الحارث إشفاقا عليه من عذاب الله ، فاستطاع عمر أن يهوّن على أخيه وأن يقسم له ما أتى فاحشة قط .

أما العرجى فقد كان فيه فضل من قوة وعنف ، ولم يكن له بد من أن يصرف هذا الفضل . وقد حاول أن يصرفه فى سبيل الدولة ، فأبى عليه الخلفاء ذلك ، فصرفه فى سبيل نفسه . وكان أقرب الى الفاتكين منه الى أهل الدعة والهدوء . كان ينفق حياته فى الصيد والشرب . ولم يكن يكتفى من النساء بالحديث والغزل ، وإنما كان يطالبهن بأكثر من هذا ، فكان اسمه خطرا أيضا .

وخالف عمر بن أبى ربيعة من وجه آخر ، وهو أن عمر كان قانعا فى حياته العامة كما كان قانعا فى حياته الخاصة ، فلم تكن له أطماع سياسية ولم يكن له أعداء سياسيون ، وكأنه كان يحتقر السياسة وأهلها ، فقصر شعره على النساء وصرفه عن الخلفاء ومن يتصل بهم فلم يمدح أحدا ولم يهج أحدا .

أما العرجى فقد حاول الحياة السياسية وأراد أن يكون له شأن فى أمور الدولة فلم يفلح . وأحسب أنه لم يتعزَّ عن هذا الإخفاق ، فأضمر للخلفاء ومن اتصل بهم حقدا وبغضا . وكأن هذا الإخفاق قد أثّر فى نفسه تأثيرا قويا فأصبح سيىء الخُلق فاحش اللسان قليل الرضا عن الناس ، ينصرف عنهم ماصرفه عنهم اللهو والعبث . فإذا اضطر الى مواجهتهم لم يجدوا منه خيرا ؛ ومن هنا هجا ناسا وعادى ناسا آخرين . وانتهى به عنفه فى حياته الخاصة وسوء خلقه فى حياته العامة الى أن ضُرب وشهر وسجن حتى مات فى السجن .

ولا بد من ملاحظة هذين الأمرين لفهم شعر العرجى وما روى لنا من أخباره . فإلى عنفه وفتكه وتهالكه على اللذة يرجع قسم من شعره وأخباره ، والى سخطه السياسى وحقده على رجال الدولة يرجع القسم الآخر من هذا الشعر وهذه الأخبار .

ولعلك تريد الآن أن تعرف رأينا فى شعر العرجى . وقد قدّمنا هذا الرأى فى أول هذا الحديث حين قلنا إن العرجى كان ظريفا خفيف الروح محببا الى النفس ؛ فإنا

نجد هذه الخلال كلها فى شعر العرجى ، وستجدها أنت فيه أيضا . وقد اتفق رأينا فى هذه المرة مع رأى القدماء . فقد كان أهل الظرف والأدب منهم ، بل كان الفقهاء والنسّاك أيضا يحبون شعر العرجى و يكلّفون به كلفا شديدا ، ولهم فى ذلك أحاديث لا تكاد تظفر بمثلها لشاعر آخر . ومن هــذه الأحاديث ما يضحك ومنها ما يرضى ويحمل على الإعجاب .

تحدّث مصعب بن عبد الله عن أبيه قال : أتانى أبو السائب المخزومى ليلةً بعد ما رقد السامر فأشرفت عليـه ؛ فقال : سهرت وذكرت أخًا لى أستمتع به فلم أجد سـواك ، فلو مضينا الى العقيق فتناشدنا وتحـدثنا ! فمضينا فأنشدته فى بعض ذلك بيتين للعرجى :

باتا بأنعـم ليـلةٍ حتى بدا * صبح تلوح كالأغرّ الأشـقرِ
فتلازَمَا عنـد الفراق صـبابةً * أَخْذَ الغريم بفضل ثوب المُعسِرِ

فقال : أعده علىّ ؛ فأعدته ؛ فقال : أحسن والله ، امرأته طالق إن نطق بحرف غيره حتى يرجع الى بيته . قال : فلقينا عبد الله بن حسن بن حسن ، فلما صرنا اليه ، وقف بنا وهو منصرف من ماله يريد المدينة ، فسلّم ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب؟ فقال له :

فتلازما عنـد الفراق صـبابة * أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فالتفت الىّ فقال : متى أنكرت صاحبك ؟ فقلت : منذ الليلة ؛ فقال : إنا لله ! وأى كهل أصيبت منه قريش ! ثم مضينا فلقينا محمد بن عمران التيمى قاضى المدينة يريد مالا له على بغلة له ومعه غلام على عنقه مخلاة فيها قيد البغلة ، فسـلّم ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال :

فتلازما عنـد الفراق صـبابة * أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فالتفت الىّ فقال : متى أنكرت صاحبك ؟ قلت آنفا . فلما أراد المضىّ قلت أفتدعه هكذا ! والله ما آمن أن يتهوّر فى بعض آبار العقيق ؛ قال : صدقت ، ياغلام

قَيْدَ البغلة ، فأخذ القيد فوضعه فى رجله وهو ينشد البيت ويشير بيده اليه يريد أن يفهم عنه قصته . ثم نزل الشيخ فقال لغلامه ياغلام احمله على بغلتى وألحقه بأهله . فلما كان بحيث علمت أنه قد فاته أخبرته بخبره ، فقال قبحك الله ماجنا ! فضحت شيخا من قريش وغررتنى .

وتحدّث داود الثقفى قال : كنا فى حلقة ابن جُرَيْج وهو يحدثنا وعنده جماعةفيهم عبد الله بن المبارك وعدّة من العراقيين ، اذ مر به ابن تيزن المغنّى وقد ائتزر بمئزر على صدره ، وهى إزرة الشطّار عندنا ، فدعاه ابن جريج فقال له : أحب أن تسمعنى ؛ قال أنا مستعجل ، فألحّ عليه ، فقال : امرأته طالق إن غنّاك أكثر من ثلاثة أصوات ، فقال له ويحك ، ما أعجلك الى اليمين ! غنّنى الصوت الذى غنّاه بن سُرَيْج فى اليوم الثانى من أيام مِنًى على جَمْرة العَقَبة فقطع طريق الذاهب والجائى حتى تكسّرت المحامل ، فغنّاه «عوجى علىّ فسلِّمى جبرُ» فقال له ابن جريج أحسنت والله ! ثلاث مرات ويحك أعده ! قال : من الثلاثة ، فإنى قد حلفت ، قال أعده فأعاده ، فقال أحسنت فأعده من الثلاثة فأعاده ، وقام ومضى ، وقال لولا مكان هؤلاء الثقلاء عندك لأطلت معك حتى تقضى وطرك . فالتفت ابن جريج الى أصحابه فقال : لعلكم أنكرتم ما فعلت ، فقالوا إنا لننكره عندنا بالعراق ونكرهه ، قال فما تقولون فى الرجز ؟ يعنى الحداء ، قالوا لا بأس به عندنا ، قال فما الفرق بينه وبين الغناء !

ولهذه الأبيات نفسها قصة أخرى مع عطاء وابن سريج ليست أقل من هذه القصة ظرفا . ولعلك تعلم قصة أبى حنيفة مع جاره الذى كان يسكر ويتغنّى فى كل ليلة بقول العرجى :

أضاعونى وأىَّ فتى أضاعوا * ليوم كريهةٍ وسِداد ثغرِ

ثم انقطع الغناء عن أبى حنيفة ليلة فسأل عن جاره فعلم أن العسس قد أخذوه ، فجدّ أبو حنيفة حتى أطلقه من سجنه ، ثم قال له هل أضعناك يافتى؟ قال لا والله ، قال أبو حنيفة : فعد الى ما كنت فيه من غناء فليس فيه بأس .

وأخبار أخرى تروى عن شـعر العرجى ورواجه بين الظرفاء والفقهاء من أهل الحجاز، وتجدها فى كتاب الأغانى .

ولم يكن العرجى ظريفا فى شعره وحده، بل كان ظريفا فى سيرته أيضا ولا سيما مع النساء . ولست أروى لك من ظرفه هذا إلا قصة واحدة . قالوا : مر العرجى فى بعض نزهته بأم الأوقص (وهو محمد بن عبدالرحمن المخزومى القاضى)، وكان يتعرّض لها فاذا رآها رمت بنفسها وتستّرت منه، وهى امرأة من بنى تميم . فمرّ بها فى نسوة جالسة وهن يتحدّثن فعرفها وأحب أن يتأملها من قرب . فعدل عنها ولقى أعرابيا من بنى نصر على بكر له ومعه وَطْبَا لبن، فدفع اليه دابته وثيابه، وأخذ قعوده ولبنه ولبس ثيابه، ثم أقبل على النسوة . فصحن به : يا أعرابى أمعك لبن ؟ قال نعم، ومال اليهن وجلس يتأمل أم الأوقص ونواثب من معها الى الوطبين . وجعل العرجى يلحظها وينظر أحيانا الى الأرض كأنه يطلب شيئا وهن يشربن من اللبن . فقالت له امرأة منهن : أى شىء تطلب يا أعرابى فى الأرض ؟ أضاع منك شىء ؟ قال نعم . قلبى ! فلما سمعت التميمية كلامه نظرت اليه وكان أزرق فعرفته فقالت : العرجى بن عمر ورب الكعبة ! ووثبت وسترها نساؤها وقلن انصرف عنا لاحاجة بنا الى لبنك . فمضى منصرفا وقال فى ذلك :

أقول لصاحبىّ ومثلُ ما بى * شكاه المرء ذو الوجد الأليم
إلى الأخوين مثلهما اذا ما * تَؤَوّبه مؤرّقة الهمـــوم
لِحَيْنى والبـلاءِ لقيتُ ظهرًا * بأعلى النقـع أختَ بنى تميمِ
فلمـا أن رأت عيناى منها * أسـيلَ الخدِّ فى خَلْقٍ عميم
وعينَىْ جؤذر خَرِقٍ وثغرًا * كلون الأقحوان وجيدَ ريم
حنا أترابُهـا دونى عليهـا * حُنُوَّ العائدات على السـقيم

ولقد كنتُ أريد أن أروى لك قصة أخرى ظريفة قاسية للعرجى مع أمة يقال لها كلابة . ولكنى قد أطلت، ولست أريد أن أسرف فى الإطالة، ولست أكتب

هذه الأحاديث لأقول كل ما أريد، وإنمـا قصاراىَ أن أحبب اليك قراءة الأدب العربى وارسم لك نهج هذه القراءة .

كان العرجى كما قلنا عفيفا شديد البغض لرجال الحكم . وقد قتله عنفه وبغضه هذان . زعموا أن هشام بن عبد الملك لما آستخلف ولّى على مكة خاله محمد بن هشام المخزومى . فأخذ العرجى يسرف فى هجاء محمـد بن هشام . ثم لم يكتف بالإسراف فى الهجاء فأخذ يتغزل بأم الوالى وزوجه ، ويدفع غزله الى المغنين . فمـا أسرع ما تنطلق به الألسنة ! قال فى أم الوالى هذه الأبيات المشهورة :

عُوجِى علينا ربّةَ الهـودجِ * إنك إلّا تفعـلى تحـــرَجِى

إنى أُتيحتْ لى يمـانيـة * إحدى بنى الحارث من مَذْحِجِ

نلبث حـولًا كـاملا كلَّه * لا نلتـقى إلّا عـلى منهـج

فى الحج إن حَجّت،وما ذا مِنًى * وأهـــلُه إنْ هى لم تحجُجِ!

وقال فى زوجه جَبْرَة :

عُـوجِى علىّ فسلِّمى جـــبرُ * فِيمَ الصـدودُ وأنتم سَــفْرُ

ما نلتـــقى إلّا ثلاثَ مِـنًى * حـتى يفـرِّق بيننا النَّفْـرُ

الحول بعـــد الحول يتبعــه * ما الدهر إلا الحـول والشهر

فوجد عليه محمد بن هشام وجدا شديدا وأخذ يلتمس العلل للإيقاع به . فمـا أسرع ما وجد عليه سبيلا .

كان العرجى عنيفا فزعموا أنه خاصمه أحد الموالى فسبّه وبالغ فى سبه، فرد المولى عليه، فأمهله العرجى حتى اذا كان الليل هجم فى نفر من رجاله على دار المولى فأمر أصحابه فأوثقوه وفضحوا آمرأته أمامه ثم قتلوه وحرقوه؛ فاستعدت المرأة عليه محمد آبن هشام؛ فقبض عليه وضربه وحلق رأسه وصبّ عليه الزيت وعرضه للناس ثم سجنه . فظل فى السجن تسع سنين ولم يخرج منه إلا ميتا . ثم جاء الوليـد بن يزيد

فاتخـذ قصة العرجى علّة للآنتقام من خالى هشام فضربهما ثم أرسلهما الى يوسف آبن عمر فعذبهما وآستصفى أموالها وأتلفهما ضربا .

ونختم هذا الحديث بهذه الأبيات التى قالها العرجى فى سجنه، والتى تمثل نفسيته السياسية قبل السجن وبعده :

أضاعونى وأىَّ فتًى أضاعوا * ليوم كريهةٍ وسِـــداد ثغرِ

وصـبرٍ عند معترك المنـايا * وقد شُرِعتْ أسِنَّتها بنحرى

أُجَرَّرُ فى الجـوامع كلَّ يومٍ * فيا للهِ مظلمتِى وصــبرى

كأنى لم أكن فيهم وسيطًا * ولم تك نسبتى فى آل عمرو

الغزلون[1]

عبيـــد الله بن قيس الرُّقَيَّات

صاحبنا اليوم شاعر معروف بالغزل، يذكر مع أصحـاب النسيب من قريش وأهل الحجاز عامة . ولكنه ليس كهؤلاء الغزلين الذين اتخذناهم موضعا لبحثنا الى اليوم، فهو لم يقصر جهوده الفنية على الغزل، وهو لم يقصر حياته على اللهو والعبث، وإنما تنوّعت حياته وتنوّع حظه من الفن الشعرى . فكان فى حياته العاملة صاحب لهو وجدّ ، وكان فى حياته الشاعرة صاحب غزل ومدح ووصف ونخـر ونضال سياسى . ويظهر أن النضال السياسى وحده هو الذى ينبغى أن تتخذه وسـيلة الى فهم هـذا الشاعر فى حياته العملية والشعرية . فنحن اذن بعيدون كل البعـد عن هؤلاء الشعراء الذين لم تخطر لهم السياسـة على بال، أو الذين لم يحاولوا أن يأخذوا منها بحظ؛ لأنهم علموا مقـدّما أن ليس لهم فيها نصيب، فوقفوا حياتهم على اللهو واللعب وذكر النساء .

نحن بعيدون عن عمر بن أبى ربيعة وعن جميل وأصحابه . بل نحن بعيدون عن هؤلاء الشعراء الذيـن حاولوا أن تكون لهم منزلة سياسية ، فلما أخفقوا فى ذلك اضطرهم اليأس من الحياة العاملة الى نوع من الحياة ملؤها اللهو والدعابة والمجون، كالعرجى الذى حدّثتك عنه فى الأسبوع المـاضى . وانمـا نحن بإزاء شاعر آخر يخالف أولئك مخالفة شـديدة . خطرت له السياسـة وخلبت عقله فغرق فيها الى رأسه، واحتمل من آلامها وأثقالها شيئا كثيرا جدا . وأثّر ذلك فى شعره وفى حياته تأثيرا ظاهرا غلب على كل شىء من الأشياء التى يمكن أن تعمل فى حياة الشعراء .

---

(١) نشرت بجريدة «السياسة» فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٤.

فهو الى الشعراء السياسيين أقرب منه الى الشعراء الغزلين . ولكنه مع ذلك كان غزلا، ماهرا فى الغزل، أو قل متفوقا فيه . ور بما صح أن يقدم على العرجى والأحوص . بل قد استباح بعض المتقدمين لنفسه أن يقرنه الى ابن أبى ر بيعة، بل قد استباح بعض المتقدمين لنفسه أن يقدمه على ابن أبى ر بيعة . وليس يعنينا الآن أن نثبت أنه أشعر من ابن أبى ر بيعة أو دون ابن أبى ر بيعة فى الشعر، وانما الذى يعنينا قبل كل شىء هو أن نتبين شخصيته وما بينها و بين شعره من صلة : أى أن نتبين الخصائص التى يمتاز بها شعره . حتى اذا فرغنا من ذلك كان من اليسير علينا أن نقدر هذا الشعر وننزله منزلته من أدب الأمو يين .

وقد أراد الله أن يجعل هذا يسيرا ، فحفظ لنا مقدارا صالحا من شعر عبيد الله ابن قيس الرقيات يجمعه ديوان مخطوط فى دار الكتب المصرية طبعت منه نسخة فى «فيينا» . ونستطيع اذن أن نقرأ هذا الديوان ونحكم عليه .

وأنا أحب أن تقرأ أخبار هذا الشاعر فى كتاب أبى الفرج ، فستشعر بشىء شعرت به، وهو أنه حلو النفس، خفيف الروح، عذب الشعر، خصب الخيال قو يه . وستشعر بأن أبا الفرج قد قصر فى ذات هذا الشاعر، فلم يرو من شعره إلا أطرافا موجزة مقتضبة كل أثرها فى نفسك هو أن تستثير الإعجاب والأسف على أن ما حفظ من شعره قليل . ولكن هذا الأسف يزول حين نعلم أن له ديوانا محفوظا، وأنك تستطيع أن ترجع الى هذا الديوان . فاذا رجعت الى هذا الديوان فستشعر بشىء آخر شعرت به أيضا، وهو أن الجيد من شعر هذا الشاعر كثير أكثر مما ينبغى، إن جاز مثل هذا القول، وأن الردئ من شعره قليل أقل مما ينبغى، إن أبيح مثل هذا التعبير .

وأنا أستبيح لنفسى مثل هذا التعبير؛ لأنى أريد فى هذه الأحاديث أن أقدم اليك صورة صادقة ولكنها موجزة من الشعراء الذين أدرسهم . وقد أستطيع أن أقدم اليك صورة صادقة من صاحبنا هذا، ولكنى أجد مشقة شديدة فى الإيجاز . فليس

من اليسير أن تختار من شعره ، فكل شعره أو أكثره حرى أن يختـار . ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل أنت مضطر الى أن تروى له شعرا كثيرا أكثر مما يحتمل هذا الحديث .

وهنا ألاحظ شيئا يكاد يختص به عبيـد الله بن قيس الرقيات : وهو أنه كان صاحب لهو وسياســة ، وأنه اتخذ الغزل وسيلة الى اللهو والسياسة . فكان يتغزل حينا ليلهو أو ليصف عواطف نفسه حقا، وكان يتغزل حينا آخر لا للهو ولا لوصف حب صادق، بل ليعبث بخصومه السياسيين، إذ يذكر نساءهم بما يحسن و بما لا يحسن . وقد رأينا العرجى يتغزل بجيـداء أم محمد بن هشام و بجبرة زوج محمـد بن هشام ليغيظ محمد بن هشام هذا . وكذلك فعل عبيد الله بن قيس الرقيات قبل العرجى، فسنّ له ولغيره هذه السنة . و بلغ من هذا الغزل الهجائى ما لم يبلغه أحد من شعراء العصر الأموى . فلم يكن يكتفى بالنسيب المألوف يذكر فيه المرأة التى يريد أن يهجو أهلها كما كان يفعل العرجى، و إنمـا كان يتخيل القصص والأخبار فيقصها فى شعره مسرفا فى تفصيلها إسرافا شديدا .

لم يكن عبيد الله بن قيس الرقيات شرّيرا ولا سيئ الدخيلة، و إنما كان — على رغم الخصومات السياسية التى اندفع فيها اندفاعا شديدا — محبا لقومه، يؤثرهم على الناس جميعا و يحرص على كرامتهم أشدّ الحرص . ومن هنا تظهر فى غزله الهجائى خصلة جميـلة، رقيقة مؤثرة، لا نجدها عند غيره من الهجّائين السياسيين : وهى أنه كان يخاصم الرجال دون النساء، وكان يتخذ النساء وسيلة الى حرب الرجال ، فكان يحرص الحرص كله على ألا يؤذيهن أو يذيع بينهن الفاحشة كذبا وزورا . بل كان يمضى الى أبعد من هذا، كان يريد أن يتملّق هؤلاء النساء، وأن يرضيهن عن نفسه، وأن يحبب اليهن هذا الغزل الهجائى الذى كان يسوء أزواجهن وأبناءهن وعصبيتهن بوجه عام .

كان يخاصم بنى أمية فتغزل بأم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك و بنت عبد العزيز بن مروان ، يريد من غير شك أن يغيظ عبد الملك وابنـه الوليد وأخاه

عبد العزيز وغيرهم من رجالات بنى أميــة؛ ولكنه لم يكن يريد أن يسوء أم البنين ولا أن يؤذيها ولا أن يعرّضها لمكروه تسمعه أو تلقاه ؛ بل كان يريد أن يتلطف لها و يتحبب اليها وأن ينزل شعره من نفسها منزلة الرضا والإعجاب . وأنت تعلم أن النساء فى ذلك العصر — ولا سيما نساء الأشراف والأسرة المالكة كن يحببن الغزل و يكلفن به و يطلبنه الى الشعراء . فليس غريبا أن يطمع ابن قيس الرقيات فى إرضاء أم البنين وهو يخاصم أباها وعمها و زوجها . وسأروى لك بعد حين قصيدة ذكر فيها أم البنين ذكرا مفصلا تفصيلا من شأنه أن يؤذى و يسىء . ولكنه احتاط لنفسه ولأم البنين ، فزعم أن هذه القصة الطويلة المفصلة إنما وقعت له فى المنام ؛ فكرامة أم البنين موفورة . وهى خليقة أن تتيه بهذا الجمال الذى أحدث فى نفس الشاعر ما أحدث حتى ملك عليه يومه ونومه . واذن فليس على الشاعر نفسه لوم اذا أغرق فى الرقاد .

وقد وصل ابن قيس الرقيات من هـذا الغزل الهجائى الى كل ما كان يريد . فأحفظ بنى أمية عليه أشدّ إحفاظ حتى هدروا دمه وأبرءوا ذمتهم ممن آواه كما سترى . ولكنه أرضى أم البنين عن نفسه و بلغ منها مبلغا حسنا حتى شفعت له وكسبت له أمان عبد الملك .

هذا الغزل الهجائى الذى يكاد ابن قيس الرقيات يكون مبتدعه خليق بالعناية . فهو لون من الألوان الفنية الجديدة التى استحدثها الشعراء المسلمون . ولكنه شديد الخطر من جهة أخرى ؛ لأنه يلبس عليك أمر الشاعر ويجعل حكمك على عاطفته عسيرا جدا . فأنت لا تكاد تتبين أجادٌّ هو فى غزله أم لاعب؟ أمادحٌ هو صاحبته لأنه يحبها أم لأنه يكره أهلها ؟ وأنت مضطر الى أن تنظر الى هـذا الغزل من حيث هو فن مجرّد من النفسية الصادقة للشاعر ومن عواطفه الحقيقية . وفى الحق أنك لا تكاد تجده فرقا ما ، بل أنت لا تجد فرقا بين غزل ابن قيس الرقيات ؛ فهما تختلف موصوفاته فهو قوى ، رقيق ، خلّاب ، شديد الحرارة ، سهل التناول ، سواء

أكان الشاعر يتغزل بأم البنين يهجو قومها، أم بإحدى هؤلاء الرقيات اللائى كان يذكرهن حتى غلب عليه اسمهن، أم بأى آمرأة أخرى كان يحبها أو يرى فيها جمالا وروعة .

ولقد يكون من الحق أن نقول إن عبيـد الله بن قيس الرقيات لم يعرف هذا الحب العـذرى، بل لم يعرف الحب العادى الذى يقصر حياة الرجل أو شطرا من حياته على آمرأة واحدة تلائم هواه، وإنما كان يحب النساء جميعا، يحبهن حبا قويا راقيا يوشـك أن يكون طاهرا ؛ يحبهن لا ليلهو بهن بل ليتخذ منهن مثـله الأعلى فى الجمـال . ومن هنا نستطيع أن نقول إنه كان صادق اللهجة فى كل ما كان يقول من غزل ؛ لأنه كان يحمل فى نفسه صورة من جمال النساء يخلعها على من أراد أن يذكرها فى شعره لأى سبب . وكانت هـذه الصورة تسمى أم البنين حينا، ورُقَيَّة بنت عبد الواحد حينا آخر، وكثيرة مرة ثالثة، وثُرَيَّا مرة رابعة، وسعدة وسلامة، إلى غير ذلك من أسماء النساء اللاتى لم يكنّ خيالا متكلفا وإنما كنّ أشخاصا يستمتعن بالحياة حقا .

وقد أراد حظ آبن قيس الرقيات أن يحبه النساء كما أنه يحب النساء، وأن يحببنه لا للهو واللذة بل لميل بعيد من اللهو واللذة . وأراد حظه أن يكون مدينـا بحياته لآمرأتين، آوته إحداهما بالكوفة حين أهدر الأمويون دمه فلبث عندها سنة كاملة وتركها وهو لا يعرف إلا اسمها ، وشفعت له الأخرى عند عبد الملك فظفرت له بالأمان . وكذلك أراد حظ قيس ألا يستطيع لهاتين المرأتين مكافأة إلا بالغزل والنسيب، فقـد تغزل بهما جميعا . ولسنا نشـك فى أنه تغزل بكثيرة ليشكرها على ما قدمت اليه من معروف .

وأكاد لا أعرف شاعرا أرق لهجة وأعذب لفظا وأحسن أدبا فى مخاطبة النساء وذكرهن من آبن قيس الرقيات حين يذكر كثيرة هذه . وانظر الى قوله فيها :

عاد له من كَثيرةَ الطربُ * فعينه بالدموع تنسكب

كوفيةٌ نازحٌ محلّتها * لا أَمَمٌ دارُها ولا صَقَبُ

والله ما إن صبتْ إلىّ ولا * إن كان بينى و بينها سببُ
إلا الذى أورثتْ كثيرةُ فى القلـ * ـب وللحب سَورةٌ عجب
لا بارك الله فى الغوانى فما * يُصبحن إلا لهنّ مُطَّلَب
أبصرن شيبا علا الذؤابةَ فى الرأ * س حديثا كأنه العطب
فهنّ ينكرن ما رأين ولا * يُعْرَفُ لى فى لِداتِىَ اللعب

على أنى أريد أن أتم آبن قيس الرقيات قبل أن ألم بشعره. فلأوجز لك مذهبه السياسى أو قل حياته السياسية .

كان صاحبنا من أنصار عبد الله بن الزبير، وكان مغاليا فى نصر الزبيريين، يحبهم أشدّ الحب ويبغض خصومهم من بنى أمية بغضا شديدا، جاهد معهم بسيفه ولسانه أشد جهاد، ومدحهم أحسن مدح، حتى إن عبد الملك بعد أن عفا عنه لم يستطع أن يغفر له حسن قوله فى مُصْعَب آبن الزبير، وقد خرج مع مصعب هذا فى العراق على عبد الملك ولزمه حتى أحس مصعب أنه مقتول، فأذن له فى أن ينصرف وحباه مالا كثيرا . ولكن الشاعر أقسم لا يَرِيم حتى يعرف سبيل مصعب فما زال معه حتى قتل . ثم فرّ فبلغ الكوفة فلجأ الى أوّل دار لقيته، وفى هذه الدار صادف امرأة أنصارية آوته سنة كاملة، وكانت تغدو عليه كل يوم فتحييه وتسأله حاجته ولا تسأله عن آسمه وهو لا يسألها عن آسمها؛ حتى سمع ذات يوم الصائح العام ينادى ببراءة الذمة ممن يؤوى آبن قيس الرقيات، فنزل الى صاحبته فأنبأها باعتزام الرحلة؛ قالت لا يرعك هذا الصياح فنحن نسمعه منذ سنة، ولكنه أصرّ على الرحلة . فلما كان المساء قدّمت إليه راحلتين وزادا ووهبته عبدا، وآنصرف عنها وقد أبت أن تنبئه من هى ، وانما علم أن اسمها كثيرة وأنها خزرجية . فمضى حتى بلغ المدينة فاستجار بعبد الله بن جعفر، فأجاره وأحسن مثواه وكتب فيه الى أم البنين والى عبد العزيز آبن مروان أبيها ، فشفعت فيه عند عبد الملك وضمنت له الأمان . ثم دخل هو على عبد الملك فمدحه بهذه القصيدة التى قدّمت لك شيئا من غزلها وفيها يقول مادحا :

ما نَقَموا من بنى أميّـة إ لا أنهم يحلُمـــون إن غَضبوا
وأنّهـم معدِنُ المـــلوك فلا * تصلُح إلا عليهمُ العـــرب
إن الفنيق الذى أبوه أبو العا * صى عليـــه الوقارُ والحُجُب
خليفــة الله فوق منـــبره * جفّت بذالك الأقلام والكُتُب
يعتـــدل التاج فوق مَفْرِقه * على جبينٍ كأنه الذهب

ولكن عبد الملك أبى عليــه أن يأخذ عطاءه من بيت المـال . فشكا ذلك الى عبد الله بن جعفر فعوّضه أضعاف ما حرمه عبد الملك . ثم آتصل بعبد العزيز بن مروان وهو حينئذ أمير مصر من قبل أخيه ، فمدحه مدحا كثيرا جيدا ، فيه ذكر لبابليون وحُلْوان وللنيل وسفائنه . وكنت أريد أن أروى لك منه شيئا ولكنى أريد أن أجتنب الإطالة وأنصح لك بقراءته فى الديوان . ومدح عبيد الله بن قيس الرقيات عبد الله آبن جعفر مدحا جيدا آية فى الإتقان .

فأنت ترى أنه آتصل بأحزاب ثلاثة مختلفة ، إتصل بحزب الزبيريين وفيهم قال أجود مدحه ، وآتصل بالأمويين وفيهم قال الكثير الجيد ، وآتصل بالهاشميين وفيهم أحسن المدح وأجاده ؛ ولم يكن مع ذلك متلونا ولا فاسد الضمير .

وأحسب أنى أصيب الحق إن قلت إنه كان قرشيا قبل كل شىء ، وإن له مذهبا سياسيا لم يتغير قط ، وهو أن السلطان الأعلى يجب أن يكون لقريش قولا وفعلا . فإذا كان قد كره بنى أمية فهو لم يكرههم لأنهم بنو أمية وإنما كرههم لأنهم آعتزوا على القرشية خاصة والمضرية عامة بالقبائل اليمانية .

شيئان آثنان يختصران الرأى السياسى لآبن قيس الرقيات : (الأول) أن السلطان يجب أن يكون لقريش وأن تعتز قريش فيه بمضر . (الثانى) أن من الإثم والخيانة أن تنقسم قريش على نفسها وأن تتفرق كلمتها هذا التفرق المنكر الذى كان بعد موت معاوية . وسأروى لك فى آخر هـذا الفصل قصيدة طويلة تختصر رأيه السياسى

هذا وتمثل عواطفه الوطنية القرشية تمثيلا قويا صادقا . ولكنى شديد الحيرة فبين يدىّ ست عشرة قصيدة مختارة من شعر ابن قيس الرقيات، وأنا أرى أن ليس بد من إظهارها و إذاعتها لتظهر شخصية هذا الشاعر واضحة، ولتظهر الحياة السياسية فى قريش واضحة أيضا . ولكن من لى بالصحف التى أنشر فيها هذا الشعر الكثير، ومن لى بألا تغضب «السياسة» ولا يحتج أصحابها وكتابها على هذا الإحتلال الأدبى الذى يسرف فى العدوان . أنا إذن مضطر الى أن أشير إشارة الى هذه القصائد وألا أروى لك منها إلا أربعا .

أما إحداها ففى اللهو، وهى تمثل لك نفسية الشاعر وفهمه للحياة، كما أنها تمثل لك خفته الشعرية وميله الى العبث اللفظى . ولم أروها كلها ؟ يحسن أن أكتفى منها بهذه الأبيات :

بكرتْ علىّ عواذلى * يلْحَيْنَنِي وألومُهُنَّهْ
ويقلن شيبٌ قد علَا * كَ وقد كبِرتَ فقلت إنَّهْ
إنَّ العواذل لُمْنَنِي * ولن أطيع أمورهنّه
فيما أفيد من الغنى * والله سوف يبينُنّه
ولقد عَصَيت الناهيا * ت الناشرات جيوبهنّه
حتى ارعويت الى الرشا * د وما ارعويت لنهيهنه

والأخرى قصيدة يتوجّع فيها وقد جاءته أنباء الحَرّة ومقتل نفر من إخوانه، وفيها هذا العبث اللفظى، وفيها سهولة تفطر القلب، وما أظن إلا أنها صنعت للنائحات :

ذهب الصبا وتركت غِيّتَهْ * ورأى الغوانى شيب لِمّتَهْ
وهجرنَنى وهجرتهن وقد * عنّت كرائمها يطفن بيه
إذ لمتى سوداء ليس بها * وضح ولم أُفجع بإخوتيه
الحاملين لواء قومهمُ * والذائدين وراء عورتيه
إنّ الحوادث بالمدينة قد * أوجعننى وقرعن مَرْوَتَيه

وَجَبّنى جَبّ السّنام فلم * يترك ريشا فى مناكبيـه
وأتى كتاب من يزيد وقد * شُدّ الحـزامُ بسرج بغلتيه
ينعَى بنى عبـد وإخوتَهم * حَلّ الهلاك على أقاربيه
ونعى أُسامةَ لى وإخوتَه * فظَلِلْتُ مستَكّا مسامعيـه
كالشارب النَّشْوان قطّره * سَمَلُ الزِّقاق تفيض عبرتيه
سَدِمًا يعزِّينى الصحيح وقد * مرّ المنـــون على كريمتيه
كيف الرقادُ وكلما هجعتْ * عينى ألمّ خيالُ إخوتيـه
تبكى لهم أسمـاءُ معـولةً * وتقول ليلى وا رزيتيـــه
والله أبرح فى مقـــدّمة * أهدى الجيوش على شكّتيه
حتى أفجِّعهم بإخوتهــم * وأسوق نسوتهم بنسوتيه

ولندع الآن رثاءه وإن كان فيه أجود مما رويت لك، لننتقل الى هذه القصيدة التى ذكر فيها أم البنين والتى أشرت اليها آنفا . وأنا أترك للقصـيدة وصف نفسها وهى مدح مصعب بن الزبير :

أَلَا هزأتْ بنـا قرشـــية يهـــتزّ موكبها
رأت بى شيبةً فى الرأ * س منّى ما أُغيّـــبها
فقالت أبن قيس ذا ؟ * وغير الشيب يعجبهـا
رأتنى قد مضى منّى * وغَضّاتٌ صـــواحبها
ومثلك قد لهوتُ بها * تمـامُ الحسن أعيبها
لها بعـــل غيور قا * عد بالبـاب يحجبها
يرانى هكذا أمشى * فيوعــدها ويضربها
ظللتُ على نمـارقها * أفدّيهـا وأخلبهـا
أحدّثهـا نتؤمن لى * فأصـــدُقها وأكذبها
فدع هــذا ولكن حا * جة قد كنت أطلبها

الى أم البنين متى * يقربها مقربها
أتتنى فى المنام فقلت هذا حين أعقبها
فلما أن فرحت بها * ومال على أعذبها
شربت بريقها حتى * نهلت وبت أشربها
وبت ضجيعها جذلا * ن تعجبنى وأعجبها
وأضحكها وأبكيها * وألبسها وأسلبها
أعالجها فتصرعنى * فأرضيها وأغضبها
فكانت ليلة فى النو * م نسمرها ونلعبها
فأيقظنا مناد فى * صلاة الصبح يرقبها
فكان الطيف من جنية لم يدر مذهبها
يؤرقنا اذا نمنا * ويبعد عنك مسربها

ثم يمضى بعد ذلك فى مدح مصعب. وما ذا تريد أن أقول لك فى هذا الشعر؟ وهل تعرف أعذب منه لفظا وأجود منه معنى وأخف منه روحا !

وبين يدى قصيدة كافية يتغزل فيها شاعرنا بإحدى زوجات عبدالملك. ولكنى أعدل عنها الى هذه القصيدة التى وعدتك بروايتها والتى قلت إنها تختصر مذهب ابن قيس فى السياسة ، وهى فى مدح مصعب ، وهى التى أحنقت عبد الملك على الشاعر . ولكنها أطول من أن تروى كلها فلأجتزئ منها بأبيات أختارها وإن كانت كلها مختارة :

حبذا العيش حين قومى جميع * لم تفرق أمورها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل فى ملك قريش وتشمت الأعداء
أيها المشتهى فناء قريش * بيد الله عمرها والفناء
إن تودع من البلاد قريش * لا يكن بعدهم لحى بقاء

ثم يمضى فى الفخر البديع بقريش لا يفرق بين أحزابها السياسية حتى يصل الى مصعب فيقول فيه هذه الأبيات التى غاظت عبد الملك :

إنما مُصْعَبٌ شهابٌ من اللـه تجلّت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قـوة ليس فيـه * جبروتٌ ولا به كبرياء
يتق اللهَ فى الأمـور وقد أفـلح من كان همّه الاتّقاء

ولأدع هذه الآية الشعرية كارها فقد أسرفنا فى الإطالة . ولأختم هذا الحديث بهذه الأبيات الحلوة :

حبـذا الإدلالُ والغنج * والتى فى طـرفها دَعَجُ
التى إن حدّثت كذبت * والتى فى وصلها خلج
تلك إن جادت بنائلها * فابن قيس قلبـه ثَلِـج
وترى فى البيت صورتَها * مثل ما فى البِيْعة السُرُج
حدّثونى هل على رجل * عاشق فى قُبْـلة حَرَج

أعيد ما قلته غير مرة من أن فى الشـعر العربى لهذا العصر كنوزا خليقـة أن تستكشف وأن تدرس على وجهها ، ولكن كثيرا من الناس لا يعلمون .

الغزلون[1]

الأحوص بن محمد الأنصارى

حدثتك فى بعض الفصول الماضية عن أصحاب الغزل من أهل الحاضرة الحجازية بعد أن حدثتك عن أصحاب الغزل من أهل البادية . ولكننى لم أتجاوز فيما كتبت الى الآن الغزلين من قريش وأهل مكة ، وسأعود اليهم حين أختم هذه الفصول بزعيم الغزل الحضرى فى عصر بنى أمية ، وهو عمر بن أبى ربيعة .

أما اليوم فأريد أن أحدثك عن رجل ليس قرشيا ولا مكيا ، وانما هو أنصارى مدنى . وسترى من هذا الحديث أن هذا الرجل ليس أقل خطرا من شعراء قريش ، وأن جنسيته اليمنية لم تؤثر فى شعره قليلا ولا كثيرا ، كما أن الجنسية القرشية المضرية لم تؤثر فى شعر القرشيين قليلا ولا كثيرا ؛ لأن هذا الشعر تأثر فى حقيقة الأمر بأسباب ومؤثرات أخرى مخالفة كل المخالفة للجنسية وما اليها ؛ تأثر بتلك المؤثرات السياسية التى أكثرت ذكرها والإشارة اليها والتى سأكثر من ذكرها والإشارة اليها ؛ لأن الذين يدرسون الأدب العربى لم يقدروها قدرها بعد ، وهى خليقة أن تقدر ؛ إذ عليها وحدها تستطيع أن تعتمد فى فهم الشعر الاسلامى عامة ، وشعر هؤلاء الغزلين من أهل مكة والمدينة خاصة .

لعلك تذكر العرجى وما ذكرت من يأسه السياسى وما اضطره اليه هذا اليأس من حياة اللهو والعنف والسخط . ولعلك اذا درست الأحوص تشعر بشىء من الميل الى المقارنة بينه وبين العرجى . وقد كانا فى الحق صديقين وكان بينهما تشابه قوى من بعض الوجوه ، وكان بينهما اختلاف أيضا ؛ أصابتهما محن سياسية متشابهة ، فكلاهما ضُرب ، وكلاهما شهّر ، وكلاهما أهين علنا ، وكلاهما حبس .

---

(١) نشرت بجريدة «السياسة» فى يوم ٥ نوفبر سنة ١٩٢٤

أما العرجى فقد حبس فى مكة . وأما الأحوص فقد نفى الى دهلك . وكلاهما كان صاحب لهو وعبث ، وكلاهما كان صاحب غزل وذكر للنساء . ولكن لهو الأحوص كان أفحش من لهو العرجى ، ولهو العرجى كان أعنف من لهو الأحوص . وكما أن التشابه بين هذين الرجلين يرجع الى مصادر واحدة هى السياسة ، فكذلك الاختلاف بينهما يرجع الى مصدر واحد هو السياسة أيضا .

كان الشباب من أشراف مكة والمدينة مضطرا الى هذا اليأس السياسى الذى ذكرته . ولكن هذا اليأس قد كان متفاوتا أشدّ التفاوت ، بالقياس الى شباب قريش والى شباب الأنصار . كان الملك فى قريش وكان الشباب القرشى يستطيع أن يعتز بهذا الملك وإن أُقصى عن مناصبه وحيل بينه وبين تصريف أموره . وكانت لهذا الشباب دالّة على الخلفاء من أبناء أعمامهم ، وكان الخلفاء مضطرين الى أن يصانعوهم ويرفقوا بهم تكريمـا لصلة القرابة وللعصبية القرشية ، ومداراة لهـذه الأطماع الخفية الظاهرة التى كانت توشك فى كل وقت أن تنفجر فتديل من دولة لأخرى .

أما شباب الأنصار فقد كان مضطرا الى يأس مظلم شديد الإظلام ليس له الى الأمل من سبيل قريبة أو بعيدة . لم يكن قرشيا ولم يكن الخلفاء فى حاجة الى إكرامه والرفق به ولا الى مداراته ومصانعتـه ، وانمـا كانوا يخشونه ويكرهونه ويفتنّون فى ظلمه والقسوة عليه ، لا يخشون فى ذلك حسيبا ولا رقيبا .

« منا أمير ومنكم أمير » كذلك قال الأنصار حين آحتاج المسلمون الى خليفة ، وكانوا مقتنعين بحقهم فى الخلافة ، وكان كل شىء يبيح لهم هذا الاقتناع ؛ فلم يكونوا أقل بلاء فى تأييد الإسلام من المهاجرين ، وربما كانوا أحسن بلاء من المهاجرين ؛ فهم آووا الإسلام ونزلوا للنبىّ وأصحابه من قريش عن ديارهم وأموالهم ، وبذلوا فى نصر النبىّ وأصحابه من قريش نفوسهم ودماءهم . وعرف لهم النبىّ هذا كله فآخى بينهم وبين المهاجرين وآخى بين رجالهم ، حتى وجد بين الفريقين حِلْف أو شىء يشبه الحلف كان من الحق أن يكون أساسا للحياة السياسية الإسلامية المقبلة . ومن يدرى

لعل المسلمين لو قبلوا رأى الأنصار فأقاموا أميرا قرشيا وآخر أنصاريا لعصموا الإسلام من الفتن ولأقاموا خلافة دينية حقا معتمدة على أساس من العدل معتزة بشيء من التوازن يحـول دون ظهور العصبيات التى أحدثت ما أحدثت من الشرّ فى تاريخ المسلمين .

الأنصار يمانية، وقريش مضرية . فلو آستقام الأمر للأنصار والمهاجرين على أن يكون لكل من الفريقين أمير لأمكن إيجاد التوازن بين المضرية واليمانية من جهة، ولقامت الخلافة المزدوجة على أساس صحيح من الدين يصرف عنها أطماع الطامعين ويؤخر آستحالتها الى ملك قيصرىّ أو كسروىّ .

أكان المسلمون بعـد موت النبي يجهلون النظام الرومانى حقا أم كانوا يعلمونه بعض العلم ؟ أما أنا فأرجح أنهم كانوا يلمون به إلمـاما ما . ولا أستطيع أن أفهـم هذين المـذهبين اللذين ظهرا فى أول عهـد المسلمين بالحياة السياسية إلا على أنهما محاولة لتقليد الرومان فى حياتهم السياسية . نقد كان مذهب الأنصار ميلا الى النظام الجمهورى القنصلى الذى كان فى عصر رقىّ الجمهورية الرومانيـة يقوم على آنتخـاب قنصلين أحدهما يمثـل الأرستوقراطية القديمة : أرستوقراطية المولد، والآخر يمثل الأرستقراطية الجديدة : أرستوقراطية الثروة والجد والعمل . وقد كان مذهب المهاجرين ميلا للنظام الأمبراطورى ولا سيما فى العصر الأخير الذى كان يجمـع السلطة كلها الى الامبراطور دون أن يجعله ملكا يورث الملك أبناءه من بعده .

كان مذهب الانصار أقرب الى الديموقراطية من جهة ؛ لأنه كان يقوم على المساواة والعدل ، وكان أقرب الى الثيوقراطية من جهة أخرى ؛ لأنه كان يكل أمور الدين الى الذين آشتركوا فى إقامة الدين وتأييده .

أما مذهب المهاجرين فقد كان أقرب الى الأرستوقرطية والى الحكومة المدنية معا .

ومهما يكن من شيء فقـد فشلت دعوة الأنصار وحيل بينهم وبين الخلافة، وانتصرت العصبية على الفكرة الديموقراطية الدينية، وأجمع المسلمون أو كادوا يجمعون

على هذا المذهب الغريب المتناقض الذى يجعل الخلافة وراثية وغير وراثية . وراثية لأنها فى قريش، وغير وراثية لأنهم أبعدوا عنها بنى هاشم .

فشلت دعوة الأنصار، وظهر الأنصار فى ذلك مظهرا خليقا بالعطف والإعجاب، فأذعنوا فى غير ملل ولا ضيق صدر، وطابت نفوسهم عن هذا الأمر الذى كان لهم فيه حق ظاهر . ولم يمض منهم فى الإباء والمشادّة إلا رجل واحد هو : سعد بن عُبادة الذى قتلته الجن فيما تزعم الأساطير، والذى قتلته السياسة غيلة فى حقيقة الأمر؛ لأن حياته كانت خطرا على النظام السياسى الجديد . وكان هذا الفشل الذى أصاب الأنصار أول عهدهم باليأس السياسى .

ولكن الدهر كان يدخر لهم ألوانا أخرى من اليأس . فقد ظهر أنهم لم يحرموا الخلافة وحدها، بل حرموا أن يكون لهم فيها رأى . وليس أدل على ذلك من عهد عمر بن الخطاب الى أهل الشورى . فأنت ترى أن هؤلاء النفر الذين عهد اليهم عمر فى آختيار الخليفة كانوا جميعا من المهاجرين : عبد الرحمن بن عَوْف، سعد بن أبى وَقّاص، طَلْحة، الزبير، عثمان، على بن أبى طالب، كلهم قرشى .

ومهما تكن الأسباب الدينية التى أذيعت يومئذ لتعليل هذا الاختيار، فإن الحقيقة الواقعة تشهد بأن الأنصار أبعدوا عن الخلافة وعن المشورة فى أمرها، وأن الخلافة أصبحت شيئا قرشيا خالصا . ومع هذا فقد طابت نفس الأنصار عن المشورة فى أمر الخلافة كما طابت أنفسهم عن الخلافة وأذعنوا لرأى الستة؛ وكانوا ناصحين للخلفاء الراشدين جميعا . ولكنهم كانوا منطقيين مع أنفسهم، كانوا يحسون أنهم مبعدون عن الأمر إبعادا، فكان هواهم مع بنى هاشم . أليست قريش قد آستأثرت بالأمر لأن النبى منها؟ فلم لا يستأثر بنو هاشم بالأمر وهم أهل النبى ورهطه الأدنون! .

على أن غيظ الأنصار لم يظهر حادا إلا حين آستحالت الخلافة الإسلامية الى ملك قيصرى أو كسروى، وحين ظهر الميل من بنى أمية الى أن يستأثروا بالأمر وحدهم دون قريش، [illegible] ميل معاوية الى أن ينقل الأمر من بعده الى ابنه يزيد .

فى ذلك الوقت ظهر سخط الأنصار واضحا جليـا، وأحسه بنو أمية وأرادوا أن يتقوه باللين والعنف ، واستأجروا الشعراء لهجاء الأنصار . ولعلك تذكر هذه الحملة التى حملها عليهم الأخطل فى قصيدته المشهورة التى يقول فيها :

ذهبت قريش بالمكارم كلهـا * واللؤم تحت عمائم الأنصـار

ولعلك تذكر آحتجاج النعمان بن بشير على هـذا البيت عند معاوية واضطراب معاوية لهذا الاحتجاج .

ظهرت معارضة الأنصار، ولكن معاوية استطاع أن ينتصر عليها كما انتصر على غيرها من ألوان المعارضة أثناء حياته . فلما صار الامر الى آبنه يزيد ظهرت كل هذه المعارضات عنيفة قوية . فأما الأنصار فأنكروا هذه القيصرية، وأما قريش فنازعت بنى أمية الأمر .

آنتقض الأنصار فى المدينة وانتقضت قريش فى مكة بزعامة عبد الله بن الزبير، وانتقض بنو هاشم فى العراق بزعامة الحسين بن على . واعتزم بنو أمية أن يقمعوا هـذه المعارضات قمعا عنيفا . ولكنهم أسرفوا فى العنف بالأنصار و إرهاقهم إسرافا اضطر كثيرا منهـم الى المهاجرة ، فتركوا بلاد العرب ومضوا الى أفريقيا ، وأخذوا يتبعون فيها الفتح حتى انتهوا الى الأندلس . واشتدّ الخلفاء وعمالهم على من بقى منهم بالمدينة ؛ فقد كان العمال يأبون أن يتخذوا حرس المدينـة وشرطتها من أهل المدينة أنفسهم ، وكانوا يتخذون الشرطة من الأعراب الذين لا تصلهم بالمدينة صلة ما . و يكفى أن تقرأ أخبار الشعراء والظرفاء من أهل المدينة وأخبار الولاة والعمال الذين كانوا يرسلون الى المدينة لتستيقن أن الخلفاء من بنى أمية كانوا يكرهون الأنصار كرها شديدا، و يسرفون فى إساءة الظن بهم، و يأخذونهم من ضروب العنف والإذلال بما لم يكن يلائم قديمهم فى تأييد الإسلام، بل بما لم يكن يلائم مكانتهم من حيث هم مسلمون .

كانوا يحرمون شباب قريش مناصب الدولة ويمسكونهم فى الحجاز كما كان قياصرة الرومان فى أول الأمر يضيّقون على شـباب الأرسطقراطية الرومانيـة ويمسكونهم فى ايطاليا . ولكنهم كانوا يذلّون شباب الأنصار إذلالا ، فانصرف هذا الشباب عن السياسة وعن المجد المألوف الى اللهو أو الى الفقه . وكان أهل المدينة ظرفاء وفقهاء ، فنفعوا الأدب العربيّ ونفعوا الاسلام نفسه فى محنتهم كما نفعوه حين كانوا أعزاء .

الآن تستطيع أن تفهم شيئين يوصف بهما الأحوص : أحدهما أنه كان شديد الكبرياء مزهوّا على الناس ، مزدريا لهم جميعا ، يهجوهم ويسرف فى هجائهم لا يفرق ، فى ذلك بين قومه الأنصار وقريش وغير قريش . أما الأنصار فقـد كان يزدريهم ويكره منهم الإذعان والخشوع . وأما قريش فقد كان يحقد عليها وينقم منها ما هى فيـه من سلطان وجبروت . وما أسرع ما اشـتدّ تأثير ذلك فى نفسه فأصبح سفيها سبّابا يهجو حبا فى الهجاء . وقـد انتهى به ذلك الى أن كانت له حادثة أعتقد أن الناس لم يفهموها بعد على وجهها . زعموا أنه كان عند سكينة بنت الحسين فأذّن المؤذن ، فلما انتهى الى قوله «أشهد أن محمدا رسول الله» قالت سكينة : هذا جدى ونخرت بالنبي ؛ ففاخرها الأحوص وذكر جده الذى حمته النحل من المشركين واحتمله السـيل حتى لا يصـلوا اليه ، وذكر خاله الذى غسلته الملائكة . قالوا : وغضبت سكينة وغضب غيرها وكفّروا الأحوص . واتخـذ بنو أميـة هذا وغيره وسيلة الى اهانته ونفيه . وقـد أراد سوء الحظ ألا تبقى من هذه القصيدة إلا هذه الأبيات القليلة :

نخرتْ وانتمتْ فقلت ذريني ✻ ليس جهلٌ أتيتـــه ببديع

فأنا ابن الذى حمت لحمه الدبـــر قتيل اللّحْيان يوم الرجيع

غسلتْ خالِيَ الملائكة الأبـــرار ميْتاً طوبى له من صريع

لم يكن الأحوص مجنونا ولا سخيفا ، ولم يكن يريد أن يفاخر سكينة ولا أن يضع جدّه وخاله بإزاء النبيّ ، وإنما كان رجلا بائسا محزونا يريد أن يقول لسكينة : فيم هذا

الفخر والأمر فى هذه الأيام لقوم آخرين لم يبلوا فى الدين بلاء حسنا؟ فيم هذا الفخر؟ وهل عصمكم اتصالكم بالنبيّ من هـذه المنكرات التى جناها عليكم بنو أميـة؟ وهل حقن دماءكم ورد إليكم أمركم؟ ولم نذكر قديما ونحن نرى أبناء النبي وأبناء أصحابه وأنصاره يزدرون ويسامون ألوان الخسف . لم يرد أن يفاخر سكينة وانمـا رثى لها ولنفسـه وأمثالها وهجا بنى أمية . إذن فلم يكفر ولم يتجاوز حدود الأدب والدين، وانمـا كان شاعرا سياسيا لا أكثر ولا أقل .

هذه الأبيات التى أفهمها على هذا الوجه تمثل نفسية الأحوص كما تمثل نفسية الشباب الأنصارى والقرشى ذلك الوقت . وهى تفسر لنا هذا الشيء الثانى الذى كان يوصف به الأحوص وهو الإسراف فى اللهو والاندفاع فى المجون الى غير حدّ .

لا ينبغى أن تطلب الى الناس جميعا أن يكونوا أصحاب زهد ونسك ودين . ولا ينبغى أن تطلب اليهـم جميعا أن يكونوا من قوّة الإرادة بحيث يقاومون اليأس ويجتنبون آثاره المؤلمة .

كان الأحوص رجلا كغيره من الناس يطمع فيما يطمع فيه أمثاله . فلما رأى أن أبناء المهاجرين والأنصار قـد حرموا ثمرة جهاد آبائهم وعوملوا معامـلة الأسرى والمجرمين وانتفع غيرهم بهذا الدين الذى أقاموه وبهذا الملك الذى شيدوه، حقد فأنكر الناس ، ثم انتهى الى إنكار الدين نفسه، ثم لها عن الناس ودينهم وشؤونهم المختلفه بهذه اللذات المنكرة التى كان يتهالك عليها تهالكا شديدا . وأنا أصدّق أنه قال تلك الجملة المنكرة التى أخجل أن أرويها فى هذا الحديث والتى تمثل نفسا فاجرة حقا لا تحفل بأدب ولا مروءة ولا دين .

كان الأحوص فاجرا بأوسع ما تدل عليه هـذه الكلمة . كان يشرب ويسرف فى الشرب، وكان يحب النساء والغلمان، وكان يحب شيئا آخر غير هذا . وكان بنو أمية معذورين فى القسوة عليه وأخذه بما أخذوه به من شدة. فينبغى أن نلاحظ أنه ضرب وأهين ونفى أيام سليمان بن عبد الملك . فلمـا جاء عمر بن عبد العزيز وهو

رجل عدل منصف صالح أبى أن يسمع للأنصار وأمسكه فى نفيه حتى أطلقه يزيد ابن عبدالملك لأسباب سياسية ستراها بعد حين. ولكنى أروى لك قصتين: إحداهما تمثل حلم الوليد بن عبد الملك وتغاضيه عن زَلّات الأحوص، والأخرى تمثل رأى عمر بن عبد العزيز فيه .

تحدّثوا أن الأحوص وفد على الوليد بن عبد الملك فأكرمه وأعز مكانه وأنزله عنده، ولكن الأحوص كان يراود غلمان الوليد الخبازين عن أنفسهم، ثم أشفق أن يظهر ذلك فدسّ وكاد لضيف آخر من ضيوف الوليد — هو شعيب بن عبد الله ابن عمرو بن العاص — ثم ظهرت جلية الأمر للوليد فغضب على الأحوص وأقصاه ولكنه لم يضربه ولم يهنه كما فعل أخوه سليمان .

أما رأى عمر بن عبد العزيز فيه فأنقله لك حرفيا من الأغانى: « أتى رجال من الأنصار الى عمر بن عبد العزيز فكلموه فيه وسألوه أن يقدمه وقالوا له : قد عرفت نسبه وموضعه وقديمه، وقد أخرج الى أرض الشوك، فنطلب منك أن تردّه الى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودار قومه؛ فقال لهم عمر : فمن الذى يقول :

فما هو إلا أن أراها فُجَاءةً * فأُبهتَ حتى ما أكاد أجيب

قالوا : الأحوص؛ فقال : من الذى يقول :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر * بأبياتكم ما درتُ حيث أدور

وما كنت زوّارا ولكنّ ذا الهوى * اذا لم يزر لابدّ أن سيزور

قالوا : الأحوص؛ قال : فمن الذى يقول :

كأنّ لُبْنَى صَبيرُ غادية * أودمية زُيِّنت بها البِيَعُ

الله بينى وبين قيِّمها * يفـرّ منى بها وأتّبع

قالوا : الأحوص؛ قال : بل الله بين قيمها وبينه، فمن الذي يقول :

ستبقى لها فى مُضمر القلب والحشا * سريرةُ حبٍّ يوم تبلى السرائر

قالوا : الأحوص،قال: إن الفاسق عنها يومئذ لمشغول، والله لا أردّه ما كان لى سلطان » .

ولعلك تريد أن تعلم فيم عذّب وفيم نفى ؟ وليس علم ذلك بالعسير . فقد كان أمره كأمر العرجى سواء بسواء، كان العرجىّ عنيفا فاجرا كارها للحكومة هجّاء لعامل الخليفة على مكة ؛ وكان الأحوص فاسقا ماجنا مخنّثا كما سماه عبد الملك بن مروان، وكان يهجو أشراف الأنصار وقريش و يتغزل بنسائهم؛ وكان هذا هو السبب الحقيق فى أنه كان يكره ابن حزم عامل سليمان بن عبد الملك على المدينة و يهجوه هجاء صريحا قبيحا . فلست أشك فى أن هذا الوالى حرّض الناس على الأحوص فشكوه اليه وطلبوا منه أن يكتب فيه الى سليمان ففعل . وكان سليمان شديد الغيرة يكره الغزلين والمغنين ؛ وأمره مع ظرفاء المدينة مشهور، فكتب الى عامله أن يضرب الأحوص ويشّهره و يقيمه للناس فى السوق و يصب على رأسه الزيت وينفيه الى دَهْلَك . وكان موقف الأحوص فى هذه المحنة كموقف العرجى جلدا وصبرا وعزة نفس . وانظر الى هذه الأبيات التى كان يصيح بها وهو يشهّر فى السوق :

ما من مصيبة نكبةٍ أُمْنَى بها * إلا تعظّمنى وترفع شانى !
وتزول حين تزول عن متخمّطٍ * تُخشى بوادره على الأقران
إنى اذا خفى اللئـام رأيتنى * كالشمس لا تخفى بكل مكان

وانظر الى هذا الشعر يهجو به الوالى :

أقول وأبصرت ابن حزم بن فَرْتَنَى * وُقوفًا له بالمأزمين القبائلُ
ترى فرتنى كانت بما بلغ ابنها * مصـدّقة لو قال ذلك قائل

وانظر الى هذا الشعر يقوله لسليمان بن عبد الملك فى غير تردّد ولا وجل :

سليمانُ اذ ولّاك ربك حكمنا * وسلطانَنا فاحكم اذا قلتَ واعدِلِ
يؤمّ حجيجَ المسلمين ابن فرتنى * فهَبْ ذاك حجًّا ليس بالمتقبَّل

وهجاؤه لأبن حزم ونعيه على سليمان كثير . ولا تنس أنه كان ثقيلا على قومه يتخذ هجاءهم وسيلة الى اللهو والعبث ، و يتخذ نساءهم موضوعا للغزل يعف فيه حينا و يفحش فيه حينا آخر . فلما ولى الأمر يزيد بن عبد الملك عفا عنه وأ كرمه وأحسن صلته . و يقول الرواة إنه فعل ذلك لأبيات قالها الأحوص فيـه ودسها الى جاريته حبابة فغنته إياها ذات ليلة فطرب وأطلق الأحوص .

وليس من شـك فى أن الأحوص آستعطف عمر بن عبد العزيز ، وآستعطف يزيد بن عبد الملك . ولكن سيرة يزيد فى أمر الأحوص كانت كسيرة الوليد بن يزيد فى أمر العرجى .

انتقم الوليد للعرجى لا حبا فيه بل نكاية بآل هشام بن عبد الملك ، وآنتقم يزيد للأحوص لا حبا فيه بل نكاية بابن حزم وآنتقاما لنفسه .

حج يزيد بن عبـد الملك فى خلافة أخيه الوليد فتزوج فى حجه هذا فتاة هاشمية هى بنت عون بن محمد بن على بن أبى طالب ، وأمهـرها مالا كثيرا . و بلغ الأمر الوليد فغضب وكتب الى آبن حزم أن ينقض هذا الزواج و يسترد المـال من عون ؛ فان ردّه فـذاك و إلا فليضربه بالسياط حتى يؤدّى اليه هذا المـال ؛ وأنفذ الوالى أمر الخليفة بمحضر يزيد . فلمـا آلت الخلافة الى يزيد آنتقم لنفسه من آبن حزم هذا ونقض جميع أعماله ومنها نفى الأحوص . واذا صحت أخبار الرواة فان الأحوص لم ينتفع بهذه الفرصـة ، لأن الظرف أخطاه وملكه حب الآنتقام فأهان الخليفـة من حيث لا يريد .

قالوا : أمر يزيد أن يحمل اليه الأحوص وآبن حزم ؛ فلما بلغا دمشق أذن يزيد للأحوص وظل آبن حزم بالباب ، فلما دخل الأحوص على الخليفة قال : ياأمير المؤمنين هذا ابن حزم الذى سفّه رأيك وفسخ نكاحك ؛ فغضب يزيد وقال : كذبت عليك لعنة الله ، أ كسروا أنفه ؛ فأُخرج ذليلا .

و يظهر أن الأحوص أدركه الطمع فى آخر أيامه وأراد أن يكون مقربا من يزيد فوقف موقفا آخر لم يشرفه ولم يجن له إلا شرا .

لما قتل يزيد بن المهلَّب أراد يزيد بن عبد الملك أن يقول الشعراء شعرا فى هجاء آل المهلب، فاعتذر أكثر الشعراء لأنهم كانوا مدحوا آل المهلب فكرهوا أن يكذبوا أنفسهم بهجائهم أثناء المحنة — وكم أحب أن يقرأ هذا قوم — . أما الأحوص فأجاب وهجا آل المهلب، ثم كانت منه رحلة الى فارس حيث العصبية لآل المهلب قوية، فاحتاط الوالى حتى دس اليه نفرا دخلوا عليه ومعهم زق من الخمر فصبوه على رأسه ثم قادوه الى الوالى فأنفذ فيه الحد، وجعل يقول الأحوص : ما هكذا تقام الحدود، فيجيبه الوالى: نعم ولكن لما تعلم. ثم كتب الوالى الى يزيد، معتذرا فاضطر يزيد الى أن يقبل العذر لقوته العصبية اليمانية فى فارس .

أظنك آستطعت الآن أن تمثل شخصية الأحوص . وأظننا نستطيع أن نلخص هذه الشخصية فى أنه كان رجلا ساخطا آضطره السخط الى الإسراف فى اللهو والفجور والسفه، حتى جعل للسلطان على نفسه سبيلا . كان معذورا فى إسرافه وكان السلطان معذورا فى معاقبته .

ولكنى لم أحدثك الى الآن عن شخصيته الشعرية، وهى عظيمة جدا لم ينكرها عليه أحد، حتى من أشد الناس بغضا له وسخطا عليه . لقد آضطر أبو الفرج الى أن يشيد بمكانته الشعرية مرتين، ولقد أبى الفرزدق وجرير أن يهجواه مخافة لسانه، ولقد كان أشراف الناس يتقونه بالملاطفة حينا وبالنذير العنيف حينا آخر، ولقد أقسم بعض آل الزبير بمحرجات الأيمان ليقتلنه إن هجا زبيريا بشعر قليل أو كثير .

كان الأحوص غزلا ولكنه كان مفننا فى ضروب الشعر كلها، له الفخر الرائع والمدح البديع والهجاء المقذع. ذلك لأنه لم يكن متكلفا ولا محتشما، وإنما كان يرسل نفسه على سجيتها، وكانت نفسه خصبة غنية بضروب الخير والشر، فكان يكفى أن يعكف على هذه النفس لحظة فيجد فيها كل ما يريد .

كان حلو اللفظ متينه، قوى الأسلوب رصينه، يبلغ الإجادة اللفظية فى غير تكلف ولا مشقة، ولم يكن كغيره من الغزلين المكيين يعنى بالمعنى ويستخف بالألفاظ، وإنما كان حريصا على التجويد فى لفظه ومعناه جميعا .

كان اذا أراد وفياً حسن الحـديث الى من يحب ، ولكنه كان عابثا أيضـا ، وكان يلهو بالغزل كما يلهو بالهجاء فكان يكذب على نساء الأنصار فيحرجهن و يحرج أزواجهن .

زعموا أنه أسرف فى ذكر أم جعفر وهى أنصارية عفيفة ، فلما ضاق بها الأمر أقبلت ذات يوم متنكرة حتى وقفت عليه وهو فى جماعة من قومه ، فقالت له : أقضنى ثمن الغنم التى آشتريتها منى ؛ فأنكر ذلك ، وألحت وصدّقها الناس ، وأخذ هو يحلف ما رآها ولا يعرفها ؛ فكشفت عن وجهها وأصرّ هو على إنكاره وقد آجتمع حولهما الناس ؛ فلما بالغ فى الإنكار قالت أم جعفر : صدقت يا عدو الله ، والله ما أعرفك وما تعرفنى ولكنك تذكرنى فى شـعرك فتقول قالت لى أم جعفر وقلت لهـا ، و يشيع ذلك فى الناس ؛ فآستخزى الأحوص .

ولست أريد أن أسرف فى الإطالة أكثر مما أسرفت ، فلأرو لك هذه القصيدة من شعر الأحوص فهى تعطيك صورة من سهولة لفظه ومعناه فى جودة ومتانة :

ثنتانِ لا أدنو بوصلهما * عِرْسُ الخليل وجارة الجنب
أما الخليل فلست فاجعَـه * والجار أوصـانى به ربّى
عوجوا كذا نذكر لغانيـة * بعض الحديث مطيكم صحبى
ونقل لهـا فيم الصـدودُ ولم * نُذنب بَلَ آنتِ بدأت بالذنب
إنْ تُقبِلِى نُقبل ونترلكم * منـا بدار السهل والرحب
أو تدبرى تكدر معيشـتنا * وتصـدّعى متلائم الشعب

فانظر الى هذا المـاجن الفاجر كيف عفّ فى هذه الأبيات عن الجارة وعرس الخليل ، وكيف أحسن الحديث الى صاحبته فى ظرف ورفق وصفاء طبع . وآنظر الى قوله «عوجوا كذا» والى موضع «كذا» من هذا البيت ، فهو يختصر الظرف الحجازىّ كله . وأنا أوصيك بكل ما قال الأحوص فى أم جعفر فهو على قلته كثير الغَنَاء .

الغـــزلون[1]

يزيد بن الطثرية

وكذلك لا أحدثك اليوم عن زعيم الغزلين من أهل الحجاز عمر بن أبي ربيعة ، لأني أريد أن أستقصي الغزلين ما استطعت الى هذا الاستقصاء سبيلا ، ليكون البحث عنهم تاما مستوفى . واذًا فلا بد من أن أحدثك عن رجلين ممتازين ، يمتاز أحدهما بأنه يشخص البيئة التي كان يعيش فيها تشخيصا صحيحا لذيذا ممتعا ، وهو يزيد بن الطثرية . ويمتاز الآخر بأنه كان غزلا متكلفا لا يعشق أحدا ولا يعشقه أحد ، وهو مع ذلك متقن للغزل بارع فيه وهو : كُثَيِّر .

وليكن يزيد بن الطثرية موضوع حديثنا اليوم . وإن لدى لشيئا كثيرا أريد أن أذكره عن يزيد بن الطثرية ، ولكني سأكون في هذا الحديث ناقلا أكثر مني كاتبا ؛ فنحن بإزاء قصة غرامية وان شئت فقل بإزاء سيرة غرامية بارعة رائعة في لفظها وفي معناها وفي نتائجها ؛ والخير كل الخير ألا تشوه هذه القصة بالتلخيص والتحليل ، وأن نعرض منها عليك ما نستطيع عرضه ، فستجد فيها لذة ونفعا .

ولنلاحظ قبل كل شيء أننا لسنا بازاء شاعر من أشراف مكة أو المدينة من أولئك الذين لجأوا الى الغزل واللهو حين حالت السياسة بينهم وبين الجد والعمل . واذًا فلن نلتمس تفسير شعره وغزله في الحياة السياسية والاجتماعية للسلمين أيام بني أمية . ولسنا بازاء شاعر من أهل البادية الحجازية التي وصفنا حالها في فصولنا الماضية وعرفنا أن غزلها لم يكن لهوا ولا عبثا ، وانما كان طموحا الى المثل الأعلى المعنوي مصدره اليأس من الحياة العاملة والزهد فيها .

---

(١) نشرت بجريدة « السياسة » في ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٢٤

لسنا بإزاء شاعر من حاضرة الحجاز ولا من باديته ، وانما نحن بإزاء رجل آخر بعيد كل البعد عن السياسة وتأثيرها . بل نستطيع أن نقول إنه شديد الاتصال بالحياة البدوية الخالصة التى لم تكد تعرف من الاسلام إلا أنه دين يأخذ الناس بالصـلاة والزكاة و بواجبات أخرى مادية ثقيـلة على هؤلاء الناس الذين عاشوا أحرارا وكانوا يودون لو يعيشون أحرارا .

لم يتصل صاحبنا هـذا بالحجاز ولا الحجازيين ولم يعرف ما كان فيه الحجاز وأهله من لهو و يأس، كما أنه لم يتصل بالشام ولا بمـا كان فيه من ضخامة السلطان الأموى ولا بما كان يحيط بهذا السلطان من كيد ودس ولا بما كان يصدر عن هذا السلطان من بأس وانتقام، كما أنه لم يتصل بالعراق وما كان فيه من هذه المذاهب السياسية والدينية المختلفة التى كانت تنشأ وتصطدم فى الكوفة والبصرة .

لم يتصل بشيء من هذا كله . ونستطيع أن نقول : إنه لم يعلم بشيء من هذا كله ولم يفترض له وجودا . و إذًا فهو لم يتأثر به فى شعره ولا فى حياته، ولم يصدر فى هذه الحياة ولا فى ذلك الشعر إلا عن بداوته الخالصة وطبيعته الصريحة .

على أن هذه البداوة نفسها تأثرت بشيئين مختلفين : تأثرت بالإسلام فسهلت بعد شدة ولانت بعد عنف وصفت بعد غلظة، ثم تأثرت فى العصر الذى كان يعيش فيه صاحبنا بانتقاض الأمر على بنى أمية واضطراب سلطانهم وضعف الحكومة المركزية عن أخذ أهل البادية بالطاعة والإذعان للنظام، فعادوا الى ما كانوا فيه أو الى شيء يشبه ما كانوا فيه قبل الاسلام، وظهرت بينهم الخصومات وألوان العداء، فأخذوا فيما كانوا فيه أثناء العصر الجاهلى من غزو وغارة، ومن حرب وجهاد متصل . ولا ينبغى أن ننسى أن صاحبنا قد قتل فى غزوة من هذه الغزوات أول عهد بنى العباس .

هو إذًا يمثل نوعا آخر من أنواع الغزلين ، يمثل هؤلاء الفتيان من أهل البادية المتعمقة فى بداوتهـا الذين كانوا يحيون حياة حرة طلقة لا تكاد تتأثر بشيء خارجى وإنمـا تصدر عن الطبيعة المطلقة المرسلة . وليس من شك فى أن هؤلاء الفتيان قد

كانوا كثيرين جدا، وفى أن حياتهم كانت خليقة بالبحث والدرس والعناية، لأنها تمثل لنا حياة البادية العربية الحرة فى العصر الاسلامى من جهة، وتعيننا على تصور العصر الجاهلى بوجه ما من جهة أخرى. ولكن الرواة شغلوا عن هؤلاء الفتيان بفحول الشعراء وزعمائهم فى العراق والشام والحجاز، ولم يكادوا يعنون بأهل البادية من هذه الناحية. وكل عنايتهم بالبادية آنحصرت أو كادت تحصر فى أخذ اللغة عن أهلها و رواية شىء عنها من غريب الشعر والرجز. فأما حياة فتيانها وكهولها وفتياتها ونسائها فقد آنصرف الرواة عنها آنصرافا تاما.

وماذا كان يعنى الرواة من أمر هذه البادية وأهلها وهى بعيدة كل البعد عن أن تؤثر فى الحياة العامة بوجه من الوجوه، وهى منقطعة إلى حياتها البدوية منغمسة فيها لا تكاد تشعر بأن فى الوجود شيئا آخر غيرها. أضف الى هذا أن الرواة كانوا يؤثرون من غير شك أن يحيوا فى هذه البلاد السهلة الغنية التى يجدون فيها من اليسر واللين ما يسهل عليهم الحياة و يتيح لهم ما يطلبون من رواية الشعر وتدوين التاريخ.

فقليل جدا من هؤلاء الرواة من كان يجتنب الحجاز والعراق والشأم ليقذف بنفسه فى صحارى البلاد العربية ويخالط أحياء هذه الصحارى. ومن هنا ضاعت علينا حياة البادية العربية الإسلامية، وضاع علينا قسم عظيم جدا من الأدب العربى لعله لم يكن أقل ثروة ولا خصبا ولا روعة مما حفظنا.

على أن حياة هذا الفتى العربى البدوى الذى نتحدث عنه اليوم تعطينا صورة من هذا الأدب، إن لم تكن قوية مفصلة فهى واضحة بعض الوضوح صادقة أشد الصدق.

لم يكن يزيد ابن الطثرية غزلا ليس غير، وانما كان فتى من فتيان العرب بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، أى أنه كان يحيا حياة لهو وعبث وخمر وغزو وكرم وهجاء. كان يستمتع بقوته وشبابه وطبيعته الحرة الطلقة، فيأنس إلى الحياة ولذاتها فى غير تكلف ولا تصنع ولا آستتار. وكان يستمتع بهذه الحياة آستمتاعا طبيعيا ساذجا لم تفسده الحضارة ولم تكدر صفوه.

ومن هنا لم يكن فاحش اللفظ ولا منكر السيرة . ولست تجد فيما حفظ لنا من شــعره وسيرته شيئا تكرهه إلا حوارا واحدا وقع بينه وبين آمرأة من أهل البادية لم يخل من تصريح تمقته أذواقنا الخلقية، ولكنه يضحكنا ويلذنا من الوجهة الأدبيــة الخالصـــة .

كان يزيد بن الطثرية من بنى قُشَــيْر من قيس عيلان، وكان حيه يقيمون فى بادية اليمامة . ويقال إن الطثرية هى وان كانت يمانية من بنى جَرْم لكنها تنتهى الى طيئ . وإذًا فقد آجتمعت فى صاحبنا شدّة المضرية وسهولة اليمانية . وكان يزيد من أجمل الناس وجها وأحسنهم صــورة وأرقهم لفظا وأعذبهم حديثا ، وكان فتّانا للنساء مفتونا بهن . والغريب من أمره أنه كان يفتن النساء ويفتتن بهن، وأن الطبيعة أرادت أن تكون الصــلة بينه وبينهن أفلاطونية خالصة . ولم يمنعه ذلك من أن يعشق ومن ان يؤلمه العشق ويبرح به ويجشمه خطوبا وأهوالا .

على أن الذى يعنينا من أمر يزيد بن الطثرية ليس هو يزيد، وإنما هى الصلة بين رجال البــادية ونسائها ، هــذه الصلة التى يظهر أنها كانت تختلف آختــلافا شديدا باختلاف القبائل والأحياء. وقد قلت فى أول هذا الفصل: إنى سأكون ناقلا أكثر منى كاتبا فى هذا الحديث . فلأترك للرواة أن يحدّثوك بشىء من خبر يزيد . وأنا أحب أن تنظر إلى هذا الحديث نظر عناية وتدبر فى اللفظ والمعنى جميعا .

« محل الناس حتى ذهبت الدقيقة من المــال وتهتكت الجليلة ، فأقبل صِرْم من جَرْم ساقته السنة والجدب من بلاده الى بلاد بنى قشير، وكانت بينهم وبين بنى قشير حرب عظيمة ، فلم يجدوا بدا من رمى قشــير بأنفسهم لـمـا قد ساقهــم من الجدب والمجاعة ودقة الأموال وما أشرفوا عليــه من الهلكة ، ووقع الربيع فى بلاد بنى قشير فانتجعها الناس وطلبوها فلم يعدُ أن لقيت جَرْم قشيرا ، فنصبت قشير لهم الحرب ، فقالت جرم : إنمــا جئنا مستجيرين غير محاربين؛ قالوا مما ذا ؟ قالوا من السنة والجدب والهلكة التى لا باقية لها؛ فأجارتهم قشير وسالمتهم وأرعتهم طرفا من بلادها .

وكان فى جرم فتى يقال له مَيّاد ، وكان غزلا حسن الوجه تامّ القامة آخذا بقلوب النساء . والغزل فى جرم جائز حسن ، وهو فى قشير نائرة . فلما نازلت جرم قشيرا وجاورتها أصبح مياد الجرمىّ فغدا الى القشيريات يطلب منهن الغزل والصبا والحديث وٱستبراز الفتيات عند غيبة الرجال وٱشتغالهم بالسقى والرعى وما أشبه ذلك ، فدفعنه عنهن وأسمعنه ما يكره ، وراحت رجالهن عليهن وهن مغضبات ، فقالت عجائز منهن : والله ما ندرى أرعيتم جَرْمًا المرعى أم أرعيتموهم نساءكم ، فاشتدّ ذلك عليهم فقالوا : وما أدراكُنّه ؟ قلن : رجل منذ اليوم ظل مُحْجِرا لنا ما يطلع منا رأس واحدة ، يدور بين بيوتنا ؛ فقال بعضهم : بَيِّتوا جرما فٱصطلموها ، وقال بعضهم : قبيح ، قوم قد سقيتموهم مياهكم وأرعيتموهم مراعيكم وخلطتموهم بأنفسكم وأجرتموهم من القحط والسنة تفتاتون عليهم هذا الافتيات ! لا تفعلوا ، ولكن تُصبحوا وتقدّموا الى هؤلاء القوم فى هذا الرجل فإنه سفيه من سفهائهم ، فليأخذوا على يديه ؛ فإن يفعلوا فأتموا لهم إحسانكم ، وإن يمتنعوا ويقروا ما كان منه يحلّ لكم البسط عليهم وتخرجوا من ذمتهم . فأجمعوا على ذلك . فلما أصبحوا غدا نفر منهم الى جرم فقالوا : ماهذه البدعة التى قد جاورتمونا بها؟ إن كانت هذه البدعة سجية لكم فليس لكم عندنا إرعاء ولا إسقاء ، فبرِّزوا عنا أنفسكم وأْذنوا بحرب ، وإن كان ٱفتياتا فغيِّروا على من فعله ؛ وإنهم لم يعدوا أن قالوا لجرم ذلك ، فقام رجال من جرم وقالوا : ما هـذا الذى نالكم؟ قالوا : رجل منكم أمس ظل يجرّ أذياله بين أبياتنا ما ندرى علام كان أمره ، فقهقهت جرم من جفاء القشيريين وعجرفيّتها ، وقالوا : إنكم لتحسون من نسائكم ببلاء ، ألا فابعثوا الى بيوتنا رجلا ورجلا ، فقالوا : والله ما نحس من نسائنا ببلاء وما نعرف منهن إلا العفة والكرم ولكن فيكم الذى قلتم ؛ قالوا : فإنا نبعث رجلا إلى بيوتكم يا بنى قشير اذا غدت الرجال وأخلف النساء ، وتبعثون رجلا الى البيوت وتحالف أنه لا يتقدّم رجل منا إلى زوجة ولا أخت ولا بنت ولا يعلمها بشىء مما دار بين القوم ، فيظل كلاهما فى بيوت أصحابه حتى يردا علينا عشيًّا الماء ، وتخلى لهما البيوت ولا تبرز عليهما امرأة ولا نصادق منهما واحدا فيقبل منهما صرفا ولا عدلا إلا بموثق يأخذه

عليهـا وعلامة تكون معه منها ؛ قالوا : اللهم نعم . فظلوا يومهم ذلك و باتوا ليلتهم ؛ حتى إذا كان من الغد غدوا إلى المـاء وتحالفوا أنه لا يعود الى البيوت منهـم أحد دون الليل . وغدا مياد الجرمى الى القشيريات ، وغدا يزيد بن الطثرية القشيرى الى الجرميات . فظل عنـدهنّ بأكرم مظل لا يصـير إلى واحدة منهن إلا آفتتنت به وتابعتـه الى المودّة والإخاء ، وقبض منهـا رهنا وسألته ألا يدخل من بيوت جرم إلا بيتهـا ، فيقول لها : وأى شيء تخافين وقد أخذت منى المواثيق والعهود وليس لأحد مِن قلبي نصيب غيرك ؛ حتى صليت العصر . فانصرف يزيد بفتخ كثير و براقع وآنصرف مـدهونا مكحولا شبعان ر يان مرجّل اللة . وظل مياد الجرمى يدور بين بيوت القشيريات مرجوما مقصيا لا يتقرب الى بيت إلا آستقبلته الولائد بالعمد والجندل . فتهالك لهنّ ؛ وظن أنه آرتياد منهن له ، حتى أخذه ضرب كثير بالجنـدل ، و رأى اليأس منهن وجهده العطش ، فانصرف حتى جاء الى سمرة قريبا إلى نصف النهار فتوسّد يده ونام تحتها نو يمة حتى أفرجت عنه الظهيرة وفاءه الإظلال ، وسكن بعض ما به من ألم الضرب و برد عطشه قليلا ، ثم قرب الى المـاء حتى ورد على القوم قبل يزيد ، فوجد أمة تذود غنما فى بعض الظعن ، فاخذ برقعها وقال : هذا برقع واحدة من نسائكم ، فطرحه بين يدى القوم ، وجاءت الأمة تعدو فتعلقت ببرقعها فرد عليها ، ونجل مياد نجلا شديدا . وجاء يزيد ممسيا وقد كاد القوم أن يتفرقوا فنثر كمه بين أيديهم ملآن براقع وفتخا . وقد حلف القوم ألا يعرف رجل شـيئا إلا رفعه ، فلما نثر ما معه آسودّت وجوه جرم وأمسكوا بأيديهم إمساكة ؛ فقالت قشير : أنتم تعرفون ما كان بيننا أمس من العهود والمواثيق وتحرج الأموال والأهل ، فمن شاء أن ينصرف إلى حرام فليمسك يده ؛ فبسـط كل رجل يده الى ما عرف فأخذه وتفرّقوا عن حرب ، وقالوا : هذه مكيدة يا قشير . فقال فى ذلك يزيد بن الطثرية :

فإن شئت يا ميّاد زرنا وزرتمُ * ولم تنفس الدنيا على من يُصيبها

أيذهب يا ميّاد بالباب نسوتى * ونسوة ميّـادٍ صحيحٌ قلوبهـا

فقال ميّاد الجرمى :

لعمرك إن جمع بنى قشير * لجـرم فى يزيد لظالمونا
أليس الظلم أن أباك منا * وأنك فى كتيبة آخرينا
أحالفة عليك بنو قشير * يمين الصبر أم متحرجونا

ليس لدى من الوقت ولا من المكان ما يمكننى من شرح هذه القصة والتعليق على ألفاظها وأسلوبها ومعانيها، فكل ذلك محتاج إلى شرح وكل ذلك محتاج إلى تفسير. ولكنى أسرع فأقول : إنى لا أقبل هذه القصة على علاّتها ولا أصدق ما فيها من تفسير. وأكاد أرجح أن فيها كذبا وانتحالا مصدره العصبية المضرية.

ولكن هذه القصة فى جملتها تمثل شيئا خليقا بالعناية، وهو أن الصلة بين الرجال والنساء كانت سهلة ميسورة مستحبة فى اليمانية، وكانت عسيرة ممقوتة فى المضرية، كما أنها تثبت شيئا آخر وهو أن يزيد بن الطثرية قد كانت بيده و بين النساء الجرميات صلة ما.

على أننا لسنا فى حاجة إلى هذه القصة لنثبت أن يزيد كان على اتصال بالجرميات فان حياة يزيد وشعره يثبتان ذلك إثباتا لاشك فيه.

ليس من شك فى أن الجدب قد اضطر بنى جرم إلى جوار بنى قشير، وفى أن الصلة اشتدت بين يزيد و بين الجرميات أو بينه و بين امرأة بعينها من الجرميات يقال لها وحشية، فكان بينهما حب ومودّة، ونشأت عن هذا الحب قصة كالقصص التى نشأت عن حب جميل و بثينة وعن حب قيس بن ذريح ولبنى، تمتاز بكل ما تمتاز به هذه القصص، ففيها مرض العاشق و إشرافه على الموت و يأس الأطباء منه، وفيها احتيال هذا العاشق فى زيارات صاحبته واختلاسه هذه الزيارات وتكلفه الأعاجيب، بل فيها أن يزيد احتال فى زيارة صاحبته مرة فراح عليها بين الغنم يمشى على أربع، وقد اتخذ من اللباس ما يقرب الشبه بينه و بين الكباش.

وفيها هذه الخصلة الأخرى التى تمتاز بها هذه القصص ، وهى آستعداء الحكومة على العاشق وتدخّل السلطان فى هذه الأمور الغرامية الخالصة . ولكن الذى نستطيع أن نصدّقه من كل هذه القصة هو أن يزيد قد عشق وحشية وعشقته وحشية أيضا ، وكان بينهما تزاور، فغضب لذلك «فُدَيْك» الجرمى وهو زعيم أسرة وحشية هذه ، وأنذر نساء أسرته إنذارا شديدا وخوّفهن الموت فآستل سيفه وضرب به بين أيديهن غلاما له ترويعا لهن وتخويفا . ولكن وحشية لم تخف ولم يأخذها الروع، فاتصلت المواعيد بينها وبين يزيد، وعرف ذلك فديك فاتخذ زبية وأضرم فيها نارا خفيفة وآنتظر حتى خرجت وحشية للقاء صاحبها ، فسقطت فى الزبية وآحترقت رجلها وأخذها غلمان فديك فردوها الى بيتها . ونشأ الهجاء بين فديك ويزيد فقال فديك :

شفى النفسَ من وحشيّة اليوم أنها * تَهادَى وقد كانت سريعا عَنيقها
فإلا تدع خبطَ الموارد فى الدجى * تكن قمنا من غشية لا تُفيقها
دواء طبيب كان يعلم أنه * يداوى المجانين المخَلَّى طريقُها

فأجاب يزيد :

ستبرأ من بعد الضَّمانة رجلُها * وتأتى الذى تهوَى مُخَلًّى طريقُها
علىّ هدايا البُدْن إن لم ألاقِها * وإن لم يكن إلا فُدَيْكٌ يسوقها
يحصِّنها منى فديكٌ سفاهةً * وقد ذهبت فيها الكِبَاس وحُوقُها
تذيقونها شيئا من النار كلما * رأت من بنى كعب غلامًا يروقها

وقال يزيد أيضا :

يا سخنة العين للجرْمى إذ جمعت * بينى وبين مزار وحشة الدار
خُبِّرتهم عذّبوا بالنار جارتهم، * ومن يعذب غير الله بالنار

ويظهر أن الأمر آشتدّ بين يزيد وفديك فاستعدى عليه صاحب اليمامة . ولكن تدخل السلطان فى هذا الحب لم يكن كتدخّله فى حب جميل وقيس بن ذريح ، فلم يهدر دمه ولم ينفه من الأرض وإنما تقدّم إلى أخيه فى تأديبه وكان له أخ يسمى

ثورا — سنعرض له بعد حين — وكان ثور هذا رفيقا بيزيد محبا له، فلم يتجاوز في تأديبه أن حلق لمته تشويها له وصرفا للنساء عنه، فقال يزيد في ذلك :

أقول لثــور وهو يحلق لمّتي * بحجناء مردود عليها نصابها
ترفّــقْ بها ياثور ليس ثوابها * بهذا ولكن غير هذا ثوابها
ألا ربما يا ثور قد غل وسطها * أناملُ رَخْصاتٌ حديثٌ خضابها
وتسلك مِدْرى العاج في مُدْلهمّة * إذا لم تفرَّجْ مات غمّاً صُؤابها
فراح بها ثور ترِفّ كأنها * سلاسل درع لينُها وانسكابها
منعّمة كالشّرية الفَــرْد جادها * نجاء الثريا هطلها وذهابها
فأصبح رأسى كالصُّخَيْرة أشرفت * عليها عُقابٌ ثم طارت عقابها

على أن الخصومة بين يزيد وغيره من الناس لم تقف عند الحب، بل تجاوزته إلى شيء آخر. فقد قلت : إن يزيد كان من فتيان العرب ينفق حياته في اللهو والحب، وكان متلافا يسرف في الاستدانة، وكان أخوه يبيح له ماله ويحمل عنه دينه، وكأنه أسرف في الدين فتقاضاه دائنه وهو رجل يعرف بالبربري وحبسه الحاكم عقبة بن شريك في هذا الدين. فقال في سجنه :

فــلو قلّ دين البربريّ قضيته * ولكنّ دين البربرى كثير
وكنت اذا حلّت عليّ ديونهم * أضمّ جَناحى منهمُ فأطير
عليّ لهــم في كل شهر أدية * ثمانون واف نقدُها وجزور
نحنّ إلى ثور فقيم رحيلنا * وثور علينا في الحياة صبور
أشــدّ على ثور وثور إذا رأيه * بناخَــلّةٌ جَزْلُ العطاء غفور
فذلك دأبى ما بقيت وما مشى * لثور على ظهر البلاد بعير

وقد طال عليه السجن وضاقت به الحال فاجتهد حتى خلص من سجنه وعمد إلى نجيب لفيه يقال له ابن الكميت، فركبه ومضى به الى اليمامة حتى وصل الى

عقبة، فلما عرفه عقبة أنكر ما فعل من الأمر، ولكن يزيد مدحه بقصيدة من أجود ما قال أهل البادية ، فعفا عنه عقبة وأبرأه من دينه، ووهب له النجيب وحكمه فى ماله . واليك بعض هذه القصيدة :

ومدلّه عند التبدّل يفتدى * منها الوشاح مخصّرًا أملودا
نازعتها غنم الصبا إن الصبا * قد كان منى للكواعب عيدا
يا للرجالِ وإنما يشكو الفتى * مرّ الحوادث أو يكون جليدا
بكرت نوار تجدّ باقية القوى * يوم الفراق وتخاف الموعودا
ولرب أمرٍ هوًى يكون ندامةً * وسبيل مكرهة يكون رشيدا

ثم يقول :

لا أتقى حَسَكَ الضغائن بالرُّقَى * فعلَ الذليل وإن بقيتُ وحيدا
لكن أجرّد للضغائن مثلها * حتى تموت وللحُقود حقودا

ومما يتم تمثيل هذه الشخصية البدوية اللاهية العابثة فى مزح ورضاء ، هذه القصة التى كانت له مع أخيه ثور :

فقد زعموا أنه راح فى إبل أخيه فمرّ بنسوة حسان فطلبن إليه أن يطعمهن لحما فسألهن سِكّينا وعقر لهن ناقة وأقبل عليه أخوه يلومه ويضربه فقال :

ياثور لا تشتمنْ عرضى فداك أبى * فإنما الشتم للقوم العواوير
ما عَقْرُ نابٍ لأمثال الدُّمَى خُرُد * عِينٍ كرامٍ وأبكارٍ معاصير
عطفن حولى يسائلنَ القِرَى أُصُلاً * وليس يَرْضَيْنَ منى بالمعاذير
هبهن ضيفًا عراكم بعد هجعتكم * فى قطقط من سواد الليل منشور
وليس قربكمو شاءٌ ولا لبنٌ * أيرحل الضيف عنكم غيرَ مجبور
ما خير وازدة للماء صادرة * لا تجلى عن عقيل الرحل منحور

ولقد أريد أن أفصل القول فى شعر يزيد وأبين مكانة هـذا الشعر من الجودة والمتانة والرقة التى يمتاز بها شعر أهل البادية فى هذا العصر الأموى خاصة ؛ ولكنى قد أطلت . فانظر الى هذه الأبيات؛ فستجد فيها أحسن مثال لا أقول لغزل يزيد وحده بل أقول لنفسية هؤلاء الفتيان الذين كانوا يحيون حياته و يلهون لهوه :

ألا حبـــذا عيناكِ يا أم شنبـــل * اذا الكحلُ فى جفنيهما جال جائله

فداكِ من الخلّان كلُّ ممـزج * تكون لأدنى من يلاقى وسائــــله

فــرحبـا تلقانا به أم شنبـــل * ضحيا وأبكتنا عشيا أصائـــله

وكنت كأنى حين كان كلامها * وداعا وخلى موثق العهـد حامله

رهينـا بنفس لم تفك كبوله * عن الساق حتى جرد السيف قاتله

فقال دعونى سجـــدتين وأرعدت * حذار الردى أحشاؤه ومفاصـله

بنفسى من لو مر برد بنـانه * على كبدى كانت شـفاء أنامله

ومن هابنى فى كل شيء وهبتـــه * فلا هو يعطينى ولا أنا سائـــله

الغــــزلون[1]

كثيّر

وإنما أعدّه فى الغزلين لأخرجه منهم؛ فالناس يجمعون أو يكادون يجمعون على أنه أحد الغزلين الذين أتيحت لهم الإجادة وقسم لهم التفوق فى الغزل . وهم يقرنون آسمه باسم جميــل فيقولون كثيّر عزة، كما يقولون جميل بثينة، وكما يقولون مجنون ليلى . وهم بهذا نفسه يقدّمونه على آبن ذريح ، ويقدّمونه على الأحوص والعرجىّ وغيرهما من أصحاب الغزل فى بادية الحجاز وحاضرته . والرواة لا يكتفون بهـذا بل يقدّمونه على الشعراء عامة ويضعونه بين الفحول . فهو مقدّم على آبن أبى ربيعة، وهو فى مرتبة الفرزدق والأخطل وجرير والراعى . ولست أدرى أكان الرواة منصفين فى وضعه بين هؤلاء الفحول وتقـديمه على عامة شعراء العصر الأموى . وليس من سبيل الى الفصل فى ذلك؛ فقد ضاع شعر كثيّر كله ولم يبق منه إلا الشيء القليل جدّا، لم يبق منه إلا أبيات ومقطوعات لا تبيح الحكم له ولا عليه. واذًا فقد يكون شاعرا فحلا، وقـد يصح أن يقرن الى الفرزدق والى جرير. ولكن شيئا لا يقبـل الشك هو أنه ليس من الغزلين المتقدّمين، ولا يصح أن يقرن الى جميـل، ولا أن يقاس بابن أبى ربيعة، ولا أن يقدم على آبن ذريح .

ليس هو من هؤلاء كلهم فى شيء . واذا كان له أن يتقـدّم أو أن يظفر بمكانة عالية بين الشعراء فلا ينبغى أن يكون ذلك لغزله ،وانما ينبغى أن يكون ذلك لشيء آخر قد يتاح لنا أن نعرفه بعد حين .

ستقول : واذا لم يكن من الغزلين فلم أضفته اليهم وحشرته فيهم ؟ وقد أجبتك على هذا السؤال فى أول هذا الحديث، فقلت : إنى أعده فى الغزلين لأخرجه منهم.

---

(1) نشرت بجريدة «السياسة» فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٢٤ .

وهل تظن أن الناس يقبلون بحثا تناول الغزلين جميعا وسكت عن كثيّر، وهم كما قلت لك مجمعون على أنه غزل مقدّم بارع فى الغزل ؟ أليس من الحق على من يبحث عن الغزلين و يستقصيهم أن يزيل هذا الوهم و يمحو آثاره من نفوس الناس ؟

كل شيء فى حياة كثيّر يدلنا على أنه لم يكن غزلا بطبعه، ولم يكن ماهرا ولا موفّقا فى تكلف الغزل ؛ فهو لم يكن صافى الطبع ولا رقيق الحس ولا دقيق الشعور ولا قوىّ العاطفة ولا ذكى الفؤاد، و إنما كان بريئا من هذا كله. وهو لم يكن على براءته من هذه الخصال حسن الخلق ولا مقبول الصورة، و إنما كان دميما قبيحا بشع المنظر مضحكا لمن يراه، مضحكا لمن يسمعه و يتحدّث اليه أيضا : كان قصيرا مسرفا فى القصر، حتى قال بعض الرواة : "لقد رأيته يطوف بالكعبة فمن حدّثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فقد كذب" . وكان أحمق مسرفا فى الحمق ضعيف العقل الى حدّ غريب، كان الناس يتخذونه هزؤا وسخرية . والغريب من أمره أنه لم يكن يحس هذا الاستهزاء ولا يشعر بهذه السخرية، وانما كان يصدّق كل ما يلقى اليه، و يسمع المزاح فيجيب اليه جادًّا مقتنعا :

زعموا أن نفرا من قريش دخلوا عليه يعودونه وكان مريضا فسألهم : بم يتحدّث الناس ؟ قالوا : يتحدّثون بأنك الدجّال، أجاب : أما اذ قلتم هذا فإنى لأجد فى عينى هذه ألما منذ أيام . والدجّال فى الأساطير أعور .

وأشدّ من هذا غرابة أن أمر كثير لم يكن مقصورا على الغفلة والحمق، و إنما كان يتجاوزهما الى التيه والخيلاء ؛ فالرواة يحدّثوننا أنه كان من أشدّ الناس إعجابا بنفسه ومن أغلاهم فى الكبرياء، حتى لقد اتخذه معاصروه، ولا سيما أهل المدينة، سخرية فى هذا أيضا، فكانوا يتبعونه فى شوارع المدينة يشتمونه وينالون منه، لعله يلتفت اليهم فلا يفعل ؛ وربما غلوا فى ذلك فيمدّ الرجل منهم يده الى رداء كثيّر فينتزعه فلا يلتفت اليه كثير بل يمضى فى قميص . وكان الى هذا كله يرى فى نفسه الذكاء والفطنة، وربما رأى فيها القوة والبأس أيضا . وقد حفظ الرواة لنا من هذا أخبارا مضحكة :

زعموا أنه لقى الشاعر المعروف بالحزين فكان بينهما مزاح بدأه كثير حين قال للحزين : لست شاعرا وإنما أنت نظّام ؛ فاستأذنه الحزين فى أن يهجوه فأذن له ساخرا منه مزدريا له ، فهجاه الحزين ببيت لا نستطيع أن نرويه ، فلم يكد يسمع هذا البيت حتى أخذته حفيظة منكرة ، فنهض الى الحزين فلكزه ؛ ولكن الحزين قال له : لست من هـذا فى شىء ، ثم مال اليه فرفعه فى يده فاذا هو فيها كالكرة حتى خلص بينهما من حضر .

ومع هذا كله فليس من شك فى أن كثيّرا قد كان شاعرا مجيدا ، بل عظيم الحظ جدّا من الإجادة . وما أظن أن محمد بن سلام الجمحى قرنه الى الفرزدق وجرير تحكما أو عبثا .

وقد حدّثنا الرواة أنهم كانوا يحفظون له شعرا كثيرا ويذكرون بنوع خاص ثلاثين لاميّة لم يبق لنا منها إلا أبيات تكاد أو لا تكاد تؤلف قصيدته المشهورة التى مطلعها :

خليلىَّ هـذا ربعُ عزّةَ فاعقِـلَا ... قَلُوصَيْكما ثم آبكيا حيث حلّت

وكان أبو عبيدة فيما ذكروا يملى شعر كثير بثلاثين دينارا . ولكننا سنرى أن إجادته ومنزلته بين الشعراء لم تأتياه من الغزل وإنما وفّق اليهما من سبيل السياسة والتقرب الى الملوك والخلفاء .

كان كثير أصغر نفسا وأردأ طبعا وأشدّ حمقا وغفلة من أن يتأثر بتلك المؤثرات المختلفة التى فصّلناها فى الأحاديث الماضية والتى كوّنت الغزلين من أهل الحاضرة والبادية فى الحجاز . لم يكن كبير النفس ، ولم يكن له أمل فى الحياة السياسية العامة ولا طمع فيما كان يطمع فيه شباب الحجاز من رفعة وسلطان . بل ربما كان من الحق أن نسأل أنفسنا قبل كل شىء : مَنْ كثيِّر ؟ وإلى أى قبيلة من قبائل العرب ينتمى ؟ فقد يظهر أن كثيرا نفسه لم يكن يعرف من هذا شيئا ، أو لم يكن يريد أن يعرف من هـذا شيئا ، أو كان يريد أن يعرف منه أكثر مما ينبغى أن يعرفه صاحب النسب الصحيح

كان ينتسب فى اليمن خزاعيا، وكان ينتسب فى مضر كنانيا، وكان اليمانيون والمضريون ينفونه ويزدرونه ويسخرون منه . وإذن فكيف يطمع فى رفعة المنزلة وعلو المكانة ! وكيف يقرن بهذا الشباب الأرستقراطى الحجازى الذى عبث به الطمع واليأس فاضطراه الى اللهو والعبث واصطناع الغزل والغناء. ثم لم يكن كثير من هؤلاء البدو الذين وصفنا حياتهم غير مرة، والذين قلنا إن إهمال الدولة إياهم قد اضطرهم الى أن يعكفوا على أنفسهم ويفرغوا لحياتهم البدوية ، فنشأ عن ذلك ما كانوا فيه من حزن خالط نفوسهم وصرف شبابهم الى هذا الحب البرىء وهذا الغزل العفيف اللذين ليسا فى حقيقة الأمر إلا مرآة لما كانوا يطمعون فيه ويطمحون اليه من المثل الأعلى :

ليس كثير من أولئك ولا من هؤلاء ، ليس بدويا خالصا، وليس حضريا ذا مكانة فى الحضر، وإنما كان يتردّد بين البادية والحاضرة، كان شديد الاتصال بقصر دمشق يمدح بنى أمية ويتملقهم ويأخذ جوائزهم ؛ وكان كاذبا أحسن الكذب فى هذا المدح والتملق، وكان بنو أمية يعلمون منه ذلك ويحتملونه له لأنه كان يحسن مدحهم والنضال عنهم . فإذا ترك دمشق فقد كان يتردّد بين مكة والمدينة يعاشر أشرافهما ويأخذ منهم ما أتيح له من جائزة أو عطاء .

كان ذا مذهب سياسى، أو قل كان له مذهبان متناقضان أشدّ التناقض يرجعان آخر الأمر الى مذهب واحد معروف فى ذلك الوقت هو النفاق السياسى . كان فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين الله متشيّعا غاليا فى التشيع ، يرى مذهب الكَيْسانية ويقدّم محمد بن الحنفية ويؤمن بالرجعة. وله فى ذلك أعاجيب وشعر جيد. وكان فيما بينه وبين الناس نصيرا لبنى أمية يمدحهم ويغلو فى مدحهم ويعاشرهم ويفاخر بعشرتهم.

ولم يكن التوفيق بين هذين المذهبين المتناقضين عليه شاقا ولا عسيرا ؛ فهو حين كان يمدح بنى هاشم وبنى أمية إنما كان يخاصم الزبيريين الذين كانوا أعداء للأمويين والهاشميين معا: ولعلك تذكر أني حدّثتك في الصيف الماضي عن شاعر

عباسيّ مسرف فى التشيع ، كان يذهب مذهب كثير نفسه ، كان كيسانيا يقـدّم آبن الحنفيـة و يؤمن بالرجعة ، وكان مع ذلك يمدح بنى العباس و يأخذ جوائزهم ، وكان بنوالعباس يُغضون له عن تشيّعه للعلويين ، كما كان بنو أمية يغضون لكثير عن تشيعه للعلويين أيضا . هذا الشاعر هو السيّد الحِمْيَرىّ الذى كان ككثيّر يتقرّب ببنى هاشم إلى الله و يرضى بمدحهم عاطفته الدينيـة ، و يتقرّب ببنى العباس الى الدنيا و يرضى بهم حاجته الى اللذة والثروة .

وكما أن كثيرا كان يتخذ آبن الزبير وسيلة الى إرضاء الهـاشميين والأمويين لأنه كان خصما مشتركا للحزبين ، فقد كان السيد الحميرى يتخذ بنى أمية وسيلة لإرضاء بنى على و بنى العباس ، وكما أن كثيرا كان أحمق مغفلا مسرفا فى الإيمـان بالسخف والاطمئنان اليه ، فلم يكن حظ السيد الحميرى من الحمق والغفلة وضعف العقل قليلا ، حتى إن الرواة ليضيفون الى كثيّر شعر السـيد ، كما يضيفون الى السيد شعر كثير . بل هما يشتركان فى شىء آخر : كلاهما كان سيىء الصلة بأبويه ؛ فقـد يحدّثنا الرواة أن السيد ولد لأبوين من الخوارج الغلاة فى مذهب الخوارج ، فكان كارها لهما مسيئا اليهما . وهم يحدّثوننا أيضا أن كثيرا كان يعقّ أباه و يسىء اليه .

وهما يكادان يشتركان فى خصلة أخرى ؛ لكنها أقوى عند كثيّر منها عند السيد : كلاهما كان منفرا صارفا للنساء . أما كثير فاقبحه ودمامتـه وقصره ؛ وأما السـيد فلنتن إبطيه .

ولعلك تذكر ما رويت لك من شعر السيد الحميرى فى الرجعة ، وأنا أروى لك الآن شيئا من شعر كثير فيها . فانظر إلى هذه الأبيات الجيدة التى يتعجل بها عودة آبن الحنفية إلى الأرض ليرفع فيها لواء بنى هاشم :

ألا قل للوصىّ فدتك نفسى * أطلت بذلك الجبل المُقاما
أضرّ بمعشر والوك منـا * وسمّـوك الخليفة والإماما

وعادَوْا فيك أهل الأرض طرًّا * مقامك عنهمو ستين عاما
وماذاق ابن خَوْلة طعم موتٍ * ولا وارت له أرضٌ عظاما
لقد أوفى بمورق شعب رَضوى * تراجعه الملائكة الكلاما
وإن له به لمقيلَ صدقٍ * وأنديةً تحدثه كراما
هدانا الله اذ جرتم لأمرٍ * به ولديه نلتمس التماما
تمام مودّة المهدىّ حتى * تروا راياتنا تترى نظاما

ولعلك تلاحظ معى أن غياب محمد بن الحنفية إن كان قد أضرّ بقوم فليس « كثيّر » من هؤلاء القوم، فهو لم يعاد فيه أهل الأرض طرا كما يقول، وإنما عادى فيه عبد الله بن الزبير وحزبه ليس غير .

وانظر الى هذه الأبيات التى يدفع فيها عن محمد بن الحنفية حين حبسه ابن الزبير وأراد تحريق بنى هاشم، وهى من جيد الشعر السياسى :

من ير هذا الشيخ بالخيف من مِنًى * من الناس يعلمْ أنه غير ظالم
سمىّ النبى المصطفى وابن عمه * وفكّاك أغلال ونفّاع غارم
أَبَى فهو لا يشرى هدًى بضلالة * ولا يتقى فى الله لومةَ لائم
ونحن بحمد الله نتلو كتابه * حلولًا بهذا الخَيْف خيف المحارم
بحيث الحمامُ آمن الروع ساكن * وحيث العدوّ كالصديق المسالم
فما فرحُ الدنيا بباق لأهله * ولا شدّةُ البلوى بضربة لازم
تخبّر من لاقيتَ أنك عائذ * بل العائذ المظلوم فى سجن عارم

وكان ابن الزبير يسمى العائذ، ويزعم أنه يعوذ بالبيت وحرمه .

وانظر الى هذه الأبيات التى اختلف الرواة فيها فأضافها بعضهم الى السيد، وأضافها بعضهم الآخر الى كثير، وهى أبيات مشهورة تخص مذهب الكيسانية فى الإمامة :

ألا إن الأئمـــة من قريش * وُلاة الحق أربعة ســـواء
عليٌّ والثـــلاثة من بنيـــه * هم الأسباط ليس لهم خفاء
فسِبْطٌ سبط إيمان وبِرٍّ * وسبط غيّبته كَرْبَلاء
وسبط لاتراه العين حتى * يقود الخيـل يتبعها اللواء
تغيّب لا يُرَى عنهـم زمانًا * برَضْوَى عنـده عسل وماء

وآنظر الى هذه الأبيات يفخر بها بتلطف آبن الحنفية به وعطفه عليه وسؤاله عنـــه :

أقـــرّ الله عيـنى إذ دعانى * أمينُ الله يلطف فى السـؤال
وأثنى فى هواى علىّ خـــيرا * ويسأل عن بنىّ وكيف حالى
وكيف ذكرت حال أبى خُبَيْب * وزلّة فعـله عنـــد السؤال
هو المهـــدىُّ خَبّرْناه كعبٌ * أخو الأحبار فى الحِقَب الخوالى

وأبو خبيب هذا هو عبد الله بن الزبير . وليس من شك فى أن محمد بن الحنفية كان يحمد لكثيرٍ نضاله عنه وهجاءه لآبن الزبير . ولكن البيت الأخير من هذه المقطوعة يلفتنا بنوع خاص ؛ لأنه يمثل عقلية كثير وأمثاله من غلاة الشيعة الذين كانوا صادقين فى غلوهم يستبيحون فيه الكذب و يعتقدون مع ذلك أنهم لا يكذبون ؛ ذلك أن كثيرا لم يلق كعب الأحبار ، ولايمكن أن يكون كعب قد خبّره بما ذكر من أن آبن الحنفية هو المهدى . وقد سأله بعض معاصريه : أأخبرك كعب حقا ؟ قال : لا ، قال محدثه : وإذًا فكيف قلت ما قلت ، أجاب : بالتوهم . وكذلك كان السيد الحميرى يتلمس الفرص و ينتحلها اذا لم يجدها ، ليذيع فضل بنى هاشم ويثبت حقهم فى الإمامة .

على أن شيئا واحدا يعنينا من أمر كثير مع بنى هاشم ، وهو أنه كان صادقا فى حبهم ، وكان ساذجا فى هذا الحب أيضا ؛ وكان هـذا الحب الصادق الساذج ينتهى به أحيانا إلى شىء من الحنان مؤثر شديد التأثير، وينتهى به أحيانا إلى شىء من الغفلة مضحك شـديدُ الإضحاك : كان شديد العطف على أطفال بنى هاشم يسميهم

الأنبياء الصغار، ويقول كلما رآهم : بنفسي الأنبياء الصغار . وكان يأخذ عطاءه فيمر بالكتّاب حيث كان أطفال بني هاشم فيهب لهم الدراهم .

قال الرواة : وكان مع هؤلاء الأطفال صبيّ من ولد عثمان وكان أخا هؤلاء الأطفال الهاشميين لأمهم، وكان يختلف معهم إلى الكتاب، وكان إذا رأى كثيّرا يفرّق الدراهم على إخوته تعلّق به وقال ياعم : هب لي، فيجيبه : لا، لست من الشجرة .

قلت : إن هذا الحب الصادق الساذج لبني هاشم كان ينتهي بكثير الى الغفلة أحيانا . وكان بنو هاشم يعلمون من كثير وغيره من شيعتهم صدق هذا الحب وسذاجته فلا يحجمون عن استغلاله والانتفاع به .

ويحدّثنا الرواة أن أبا هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية كان يعلم من كثير هذه السذاجة ويريد أن يمسكه فيها ويحتفظ بسلطانه عليه، فكان يكلف أرصادا من أصحابه أن يرقبوا كثيرا وينقلوا اليه مختلف أمره، فإذا حضر كثير مجلسهم قال له : قلت كذا وكذا وفعلت كيت وكيت فيبهر كثير، حتى قال له ذات يوم : أشهد أنك رسول الله .

كان بنو هاشم يستغلّون حب كثيّر ويقبلون منه نفاقه ومدحه لبني أمية . ولم لا ! ألم يك بنو هاشم أنفسهم يدارون بني أمية ويسالمونهم ما عجزوا عن مناوأتهم وإشهار الحرب عليهم . ثم أي الأحزاب السياسية يستطيع أن يستغني في أي عصر من العصور عن هؤلاء المنافقين السياسيين الذين أتيحت لهم ألسنة طوال وأخلاق مرنة، فهم ينتفعون وينفعون .

ولهذا كان بنو أمية يصنعون مع كثير صنيع بني هاشم، فيقبلون منه نفاقه السياسي ويقرونه عليه، وكانوا يعلمون حق العلم أنه ليس صادقا في مدحهم ولا مخلصا في الدفاع عنهم، وكانوا مع ذلك يجيزونه ويقربونه ويستزيدون مدحه ويذيعون هذا المدح في القصر وفي دمشق وفي العراق حيث كان خصومهم السياسيون بنوع خاص .

وهــذه الحادثة تعطيك صورة من المداراة السياسية وحرص الزعماء السياسيين المهرة على آستغلال النفاق السياسى :

قالوا : لمـا خرج عبد الملك لحرب مصعَب بن الزبير لحظ فى عسكره «كثيّرا» يمشى مطرقا وكأنه حزين، فدعاه فسأله أتصدقنى إن انبأتك بمـا فى نفسك؛ قال : نعم؛ قال : فاحلف بأبى تراب، فحلف كثير بالله ليصدقنه؛ قال عبد الملك : لابد من أن تحلف بأبى تراب؛ فحلف له بأبى تراب؛ قال عبد الملك : تقول فى نفسك رجلان من قريش يلق أحدهما الآخر لحربه فيقتله والقاتل والمقتول فى النار، وماآمن أن يصيبنى سهم فيقتلنى فأكون معهما؛ قال كثير : ماأخطأت يا أمير المؤمنين، قال عبد الملك : فعد من قريب وأمر له بجائزة . وكان عبد الملك إذا أراد الصدق من كثير فى أمر من الأمور لايرضى منه إلا أن يحلف بأبى تراب .

إذًا فقد كان كثير لا يخفى على بنى أمية تشيعه للهاشميين، وكان مع ذلك يمدحهم ويأخذ جوائزهم، أى إنه كان يأجر نفسه من خصومه السياسيين ، وكان خصومه السياسيون يقبلون منه هذا فرحين به مبتهجين له . ومن ذا الذى لا يبتهج بأن يرى خصمه السياسى يهين نفســه ويذلها فيمدحه ويقدّمه رغبة فى المـال ! وكذلك كانت صلة السيد الحميرىّ بالعباسيين .

أظنك الآن قد استطعت أن تمثل شخصية كثيّر . وما هى بالشخصية الجذابة ولا التى تستهوى النفوس وتستثير العطف .

واذا كان كثير بغيضا الى هذا الحد فليس من السهل ولا من اليسير أن يستهوى النساء ويستصبيهن وقد برّأه الله من جمال الصورة كما برأه من جمال الأخلاق . ومن هنا لا أميل الى تصــديق ما يرويه الرواة من ان نساء المدينــة آحتفلن بكثير يوم مات . فان كنّ قد فعلن شيئا من هــذا فما أظن مصدر ذلك إلا أن كثيرا كان شاعرا ممتازا وكان يذكر النساء فيحسن ذكرهن . وأظن أن قد آن لنا أن نذكر شيئا عن حب كثير .

فأول شيء نذكره أن كثيرا كان كاذبا فى حبه، كما أنه كان كاذبا فى نسبه، وكما أنه كان كاذبا فى موقفه السياسى . وأنا أعتقد أن كثيرا رأى شعر الغزلين وكلف الناس به فتعاطى هـذا الفن كما تعاطاه الغزلون تمرينا لقوته الشعرية . وقلنا كان كثيّر مغرورا تياها : كان — كما يقول الجاحظ — قصيرا ويزعم أنه طويل دميما ويرى أنه جميل . وقد رأى البدع فى أيامه عند أهل الحجاز أن تكون لكل شاعر خليلة يذكرها ويهيم بحبها فأراد أن تكون له كغيره من الشعراء خليلة ، فذكر عزّة ، وأكثر من الهيام بها . والرواة أنفسهم يقولون : إن كثيرا كان مدعيا للعشق لا عاشقا، ويروون فى ذلك أحاديث تجدها فى الأغانى . ولست أستطيع أن أقول إن هـذه الأحاديث صحيحة أو غير صحيحة، ولكنى اتخذها دليلا على أن حب كثير لم يخدع الناس قديما فلا ينبغى أن يخدعنا الآن .

ليس من الحق إذًا أن نقرنه الى جميل ولا الى آبن ذريح ، ولا أن نقدمه على أحد من هؤلاء الغزلين . بل ليس من الحق أن نعده غزلا ، وإنما هو شاعر أراد أن يكون غزلا فعالج الغزل معالجة فنية خالصة؛ ولعله إن لم يوفق فى تكلف الحب وفّق فى تكلف الغزل ؛ ولكننا لا نستطيع أن نقبل ذلك ولا أن نرفضه ؛ لأن ما لدينا من غزل «كثيّر» أقل من أن يبيح لنا ذلك . ومع هذا فإنى أختم هذا الحديث بهذه الأبيات التى تكاد تكون وحدها كل ما بقى من غزل كثير، وأنا أرى أن فيها من جودة اللفظ ورصانة الأسلوب شيئا كثيرا ولكنها خالية خلوًا تاما من صدق اللهجة وحرارة العاطفة :

خليلى هـذا رسمُ عزّةَ فاعقِلا * قَلُوصيكما ثم أبكيا حيث حلّتِ

وما كنت أدرى قبل عزّة ماالبكا * ولا موجعاتِ القلب حتى تولّت

فليت قَلوصى عند عزّة قُيِّدت * بحبل ضعيف بان منها فضلّت

وأصبح فى القوم المقيمين رحلها * وكان لها باغ سواى فبلت

فقلت لها ياعزّ كل مصيبة * إذا وُطِّنت يوما لها النفس ذلّت

أسيئى بنـا أو أحسنى لاملومةً * لدينـا ولا مقليّـــةً إن تقلت
يكلّفها الغيْران شمى وما بها * هوانى ولكن للمليك آستذلّت
هنيئا مريئـا غـــيرَ داء مخامر * لعزة من أعراضنا ما آستحلت
تمنيتهـا حـــتى إذا مارأيتهـا * رأيت المنايا شرّعا قـــد أظلت
كأنى أنادى صخرةً حين أعرضت * من الصم لو تمشى بها العُصْم زلّت
صـفوحا فـا تلقاك إلا بخيـلة * فمن ملّ منها ذلك الوصل ملت
وإنى وتهيـامى بعـزة بعـد ما * تخلّيتُ ممـا بيننـا وتخلّت
لكالمرتجى ظـــلّ الغمامة كلما * تبـوأ منها للمقيـــل آضمحلت

زعيم الغزلين (1)

عمـــر بن أبى ربيعـــة

تمهيـــــــــد

نعم ! هو زعيم الغزلين من أهل الحضر فى عصره، لا يختلف فى ذلك الناس. وقد تحس فيما تقرؤه من أخبار هؤلاء الغزلين أن الرواة كانوا يضعون عمر من أهل الحضر بإزاء جميل من أهل البادية ، فكأن عمر كان زعيم الغزل الحضرى حينما كان جميل زعيم الغزل البدوى . ولكن شعر جميل قد ضاع ولم يبق لنا منه إلا شىء قليل جدا؛ فلم يبق سبيل الى المقارنة بينه وبين عمر الذى حفظ الدهر لنا شعره كله أو أكثره، والذى آستقامت لنا أخباره وصحت لنا طائفة من الحوادث المتصلة بحياته؛ فأصبح من اليسير أن ندرسه ونعلن فيه رأيا صحيحا أو مقاربا .

ومهما تكن مكانة جميل من شعراء البادية والحاضرة فليس من شك فى أن عمر ابن أبى ربيعة كان مقدّما عليه عند أهل عصره . ويجب أن يظل مقدّما عليه من الوجهة الفنية؛ لأنا لا نعرف شاعرا عربيا أمويا آفتن فى الغزل افتنان عمر . فعمر اذن زعيم الغزلين الأمويين جميعا لا نستثنى منهم أحدا ولا نفرق فيهم بين أهل البادية وأهل الحاضرة. بل نحن نذهب الى أبعد من هذا، فنزعم أن عمر بن أبى ربيعة زعيم الغزلين فى الأدب العربى كله على اختلاف ظروفه وتباين أطواره منذ كان الشعر العربى الى الآن .

وليس هذا بالشىء الذى يحتاج إثباته الى عسر ومشقة؛ فإن الغزل العربى الخالص لم يوجد مرتين وإنما وجد مرة واحدة فى أيام بنى أمية ، ولم يكن له قبل الإسلام

(1) نشرت بجريدة « السياسة » فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢٤ م .

وجود مستقل ، ولم يكن الشعراء الجاهليون يعنون به إلا على أنه وسيلة شعرية الى ما كانوا يذهبون فيه من مذاهبهم الشعرية المختلفة . ولا نكاد نعرف بين الجاهليين شاعرا قصر حياته الشعرية على الغزل ؛ بل قليل جدا عدد القصائد الجاهلية التى لم يتناول فيها أصحابها إلا الغزل وحده .

أما عصر بنى العباس فلم توجد فيه مدرسة غزلية ، إن صح هذا التعبير الحديث . ولسنا نجهل أن الشعراء العباسيين قد تغزلوا ونسبوا وأتقنوا الغزل والنسيب . ولكنا نزعم أنهم لم ينقطعوا للغزل ولم يسلكوا فيه سبيل أصحابنا هؤلاء الذين ندرسهم فى هذه الأحاديث ، وإنما كانوا كالجاهليين يتخذون الغزل وسيلة شعرية ، أو يتعاطونه كما يتعاطون غيره من الفنون .

واذا كان الشعراء العباسيون قد استحدثوا فى الأدب العربى شيئا ، فهم لم يستحدثوا الغزل . وأكاد أقول إنهم انصرفوا عنه الى شىء آخر ، أو أكاد أقول إنهم حوّلوا الى شىء آخر ، هو العبث والمجون .

أعلم أنك ستذكر العباس بن الأحنف ، وقد ذكرته أنا أيضا ؛ ولكنه استثناء يثبت القاعدة . ويكفى أن تقرأ شعر العباس لتعلم أنه كان غريبا فى عصره ، وأنه «سقط بين كرسيين» كما يقول الفرنسيون ؛ فلم يبلغ إتقان الغزلين من شعراء بنى أمية ، ولم يبلغ إجادة العابثين من شعراء بنى العباس ؛ وإنما جاء فاترا قلما يترك فى النفس أثرا قويا ؛ لأن الفن الذى أراد أن يختص به كان قد انقضى عصره وانتهت الأسباب التى أوجدته ومكنت الناس من إتقانه والإجادة فيه .

واذا كان العصر العباسى قد خلا من مدرسة غزلية خالصة ، فما أحسبك تريد أن تعرض للعصور الأخرى التى جاءت بعده ، فهى فيما أعتقد لا تستحق عنايتنا الآن .

لم يوجد الغزل فى الأدب العربى مرتين كما قلت (واذا كان عمر بن أبى ربيعة هو زعيم الغزلين فى العصر الأموى ، فيجب أن يكون زعيم الغزل فى الأدب العربى كله) على أن هناك وجوها أخرى تحملنا على أن نؤكد أن الغزل لم يوجد مرتين .

ولست أذكر منها إلا هذا الوجه الفني (فأنت مهما تقرأ من الغزل العربى، فلن تجد فى هذا الغزل ما تجده فى الغزل الأموى من صدق اللهجة وصفاء الطبع. ومن التمثيل الصادق الصحيح لنفس الشاعر، بل لنفس الجماعة التى يعيش فيها ، ومن إظهار هذه النفس على ما كانت عليه من سذاجة جذابة وسهولة محببة الى القلوب. لن تجد شيئا من هذا كله فى غزل العباسيين وأهل الأندلس وغيرهم من شعراء البلاد العربية المختلفة) وانما أنت فى هذا الغزل بإزاء فن شعرى ظهر فيه التكلف اللفظى والمعنوى ، وعظم فيه أثر الصنعة ، واصطبغ بهذه الصبغة الحضرية التى تحملك دائما على أن تقرأ الشىء وأنت تقدر أن صاحبه ليس صادقا فيه وأنه يتكلف ويتصنع ليلائم عصره وبيئته، وليرضى الناس أو يفتنهم .

أما الغزل الأموى فقد كان شيئا غير هذا كله . ولا تحسبنى قد فتنت بهذا الغزل فأنا أسرف فى مدحه والثناء عليه وأتجاوز الحد فى تقديمه على غيره من ألوان الغزل العربى . فأنا بعيد كل البعد عن هذه الفتنة ، وأنا مجتهد كل الاجتهاد فى أن يكون رأيى صادقا بريئا من الهوى (وأنا أجد فى هذا الغزل الأموى شيئا هو الذى يحببه إلى ويحملنى على تقديمه ، وهو أنه لم يخلص من السذاجة البدوية ولم يبرأ من تأثير الحضارة الجديدة : ففيه من البداوة سذاجة تستخفك وتستصبيك ، وفيه من الحضارة طلاء يبعث فى نفسك الميل الى الاستقصاء والاستطلاع . وأنت تجد بعد هذا كله عذوبة ولذة فى هذا المزاج الذى يتألف منه الغزل الأموى، والذى يمثل لك هذا الشعب العربى البادى وقد أخذ يحضر ويترف ويحس على بداوته كما يحس الحاضرون المترفون)

قلت : إن هذا الغزل الأموى يمثل نفس الشاعر والجماعة التى كان يعيش فيها تمثيلا صادقا صحيحا . (ومن هذه الناحية أرى أن عمر بن أبى ربيعة هو زعيم الغزلين الأمويين حقا،) وأن الأدباء والمؤرخين لن يستطيعوا أن يقدروا هذه النعمة التى أتيحت لهم حين حفظ الدهر لهم شعر عمر بن ربيعة كله أو أكثره. (فلست أعرف

شاعرا إسلاميا استطاع ان يمثل العصر الذى كان يعيش فيه والبيئة التى كان يحيا فيها كهذين الرجلين اللذين نستطيع أن نتخذهما مرجعا فى درس الجماعة التى كانت تحيط بهما. تريد أن تدرس العراق فى صدر الدولة العباسية ، وأن تدرس مدينة بغداد أيام الرشيد والأمين خاصة، فارجع الى أبى نواس . تريد أن تدرس حياة الحجاز فى صدر الدولة الأموية ،فارجع الى ابن أبى ربيعة . وليس من شك فى أنك ستجد شيئا كثيرا نافعا فى درس «سلم بن الوليد»وفى درس الحسين بن الضحاك ، وأبى العتاهية، كما أنك ستجد شيئا كثيرا نافعا فى درس العرجى،والأحوص، وابن ذُريح . ولكنك لن تجد عند واحد من هؤلاء، بل لن تجد عند هؤلاء مجتمعين ما ستجده عند أبى نواس من تمثيل الحياة البغدادية على وجهها، ولا ما ستجده عند عمر بن أبى ربيعة من تصوير الحياة الحجـازية على حقيقتها . تلك نعمة يتيحها الدهر من حين الى حين للباحثين عن التاريخ الأدبى حين يظهر لهم شاعرا أو كاتبا قد انتهت اليه كل الخلال كما ظهرت فيه كل النقائص التى كانت تمتاز بها بيئته والتى كانت بعيـدة الأثر فى عصره . وإنما يظهر هؤلاء الشعراء والكتاب فى العصور التى تقوى فيها الحياة الأدبيـة قوة خاصة ممتازة، كذلك العصر الأموى فى الحجاز، وكذلك العصر العباسى فى بغداد .

تريد أن تشخص الحياة العباسية أيام الرشيد والأمين، فلن تجد لها تشخيصا أقوى ولا أظهر ولا أصدق من أبى نواس . فإذا أردت أن تشخص حياة القرن الثالث فلن تجد ذلك عند البحترى ولا عنـد أبى تمام ولا عند شاعر من الشعراء، وانمـا أنت واجد ذلك عنـد الجاحظ ؛ لأنه الكاتب الوحيد الذى انتهت اليه كل الخلال كما ظهرت فيه كل النقائص التى كان يتأثر بها العقل البغدادى فى ذلك العصر، والتى جاءته من قوة الحياة الأدبية والفلسفية معا .

ولكنى بعدتُ بك بعض الشىء عن عمر بن أبى ربيعة . وما بعدت بك عنه إلا لأدنيك اليه (فأنا أقول إنه أصدق مثال للعصر والبيئة اللذين كان يعيش فيهما . وإن المؤرخ الذى يريد أن يدرس حياة الأرستقراطية القرشية فى الحجاز أثناء القرن الأول

للهجرة يجب أن يلتمس هذه الحياة فى شعر عمر بن أبى ربيعة قبل أن يلتمسها فى أخبار التاريخ وحوادثه المختلفة . فسيجد فى هذا الشعر كيف كان سراة قريش والحجاز يقضون حياتهم الهادئة الفارغة ، بل سيجد فى الشعر ألوان الصلات المختلفة الحلوة المبتسمة التى كانت تصل بين هؤلاء السراة .

(والمؤرخ الذى يريد أن يدرس حياة المرأة العربية المترفة فى هذا القرن الأول يجب أن يلتمس هذه الحياة فى شعر عمر بن أبى ربيعة ، فلن يظفر فى مصدر آخر من مصادر الأدب والتاريخ بمثل مايظفر به فى هذا الشعر : فيه ترى المرأة العربية المترفة واضحة جلية الصورة تنفق حياتها فى هذه الدعة والنعمة اللتين على عفتهما وطهارتهما لاتخلوان من لهو ودعابة ، ولا من عبث وفكاهة . والمؤرخ الذى يريد أن يدرس الصلة بين الرجال والنساء فى هذا العصر يجب أن يلتمس ذلك عند عمر بن أبى ربيعة ، فسيجد منه فى شعر هذا الشاعر كل ماأراد)

(لاتلتمس فى شعر عمر بن أبى ربيعة وصفا للحياة السياسية الأموية ، فلن تكاد تظفر من هذا بشيء صريح . ذلك لأن صاحبنا هذا قد اجتنب السياسة فى حياته اجتنابا تاما ، وانقطع للحب شطرا من حياته ، وللنسك الهادئ شطرا آخر ، فلم يغضب حزبا من الأحزاب ولم يوال حزبا آخر ، وإنما كان رجلا مترفا من قريش ترك السياسة لأصحابها وانصرف الى الحياة يأخذ منها كل ما كانت تستطيع أن تمنحه من لذة ونعمة ، حتى اذا استوفى من ذلك حظه وأحس أن الوقار خليق به ، انصرف عن الاضطراب والعبث إلى حياة هادئة مبتسمة تزينها الذكرى ، حتى فارق هذه الحياة راضيا كما عاش فيها راضيا).

وكان انقطاعه عن السياسة مصدر خير للمؤرخ الذى يريد أن يدرس الحياة الأدبية والاجتماعية فى الحجاز ، لأنه لن يجد فى شعره هذه الأهواء السياسية التى تلبس الحق بالباطل أحيانا وتظهر الخطأ مظهر الصواب أحيانا أخرى . ومع هذا فنحن مدينون للسياسة الأموية بشعر عمر بن أبى ربيعة وما فيه من آيات أدبية خالصة من كدر السياسة . نحن مدينون بهذا الشعر لهذه السياسة الأموية . فلولا أنها وقفت من

شباب قريش ومترفى الحجاز هــذا الموقف الذى وصفناه لك غير مرة فحالت بينهـم وبين الحياة العاملة وقصرتهم فى الحجاز على اللهو والترف ، وأوجدت منهـم فى مكة والمدينة هذه الجماعات التى جمعت بين ذكاء القلب وحدّة الشعور ورقة الحس وشرف المكانة وضخامة الثروة . لما ظهر شاعر كعمر بن أبى ربيعة (ليس شعره فى حقيقة الأمر إلا خلاصة صادقة لحياة هــذه الجماعات الحجازية المترفة) وكذلك تنتفع الحياة الأدبية أحيانا بما لا تجد منه الحياة السياسية إلا شرا ونكرا . فهذا الذكاء القــرشى الذى حرمت السياسة العربية منافعه حينا ، والذى كان من الممكن أن يغير الوجهة السياسية لحياة المسلمين لو لم يكره على الانصراف الى اللهو — هذا الذكاء انصرف إلى ما أريد أن ينصرف اليه ، فأنتج لنا هذه الحياة الأدبية الباهرة .

كان عمر بن أبى ربيعة من أسرة قرشية عظيمة الحظ من الشرف والمجد ، بعيدة الصوت فى آخر العصر الجاهلى ، ضخمة الثروة جدا ، قد أفادت ثروتها الضخمة من التجارة بين الحجاز واليمن . وكان لهــذه الأسرة رقيق كثير يذكرنا بما نقرأ فى أخبار الاغنياء من اليونان والرومان ، حتى إن من المســلمين من عرض على النبي (صلعم) أن يستعين فى بعض غزواته بأحباش ابن أبى ربيعة . وكان عبد الله بن أبى ربيعة أبو شاعرنا من وجوه قريش وأهل الذكاء فيهم ، يقال إنه عمل فى ولايات النبي (صلعم) وأبى بكر وعمر وعثمان ، ولكن ابنيه الحارث وعمر أُقصيا عن السياسة الأموية إقصاء .

أما الحارث فقد استعمله عبد الله بن الزبير حين كان الأمر اليه على البصرة . ويقال إن عبد الملك بن مروان أكثر الثناء عليه حين علم باستعمال عبد الله بن الزبير إياه . وكأن عمله لابن الزبير قد صرف عنه الأمويين ، فلم يسمع له ذكر فى الحياة العامة بعد أن تم النصر لبنى أمية . على أنه لم يعجب أهل البصرة ، ونحن نجد فى الأغانى شعرا يطلب من ابن الزبير إعفاء البصريين منه

أما عمر فلم تعرض له السياسة ولم يعرض لها، وإنما شب فى الشعر ومضى فى حياة المترفين دون أن يتصل بحزب ودون أن يتخذ شعره وسيلة إلى الخصومة السياسية، كما فعل قرشى آخر هو ابن قيس الرقيات . وكان يتغزل بالقرشيات جميعا، كما كان يتغزل بغير القرشيات، لاتعنيه صلاتهن الحزبية بل لا يعنيه منهن إلا شيء واحد هو الجمال .

لعلك تذكر براعة ابن قيس الرقيات تلك التى أشرت اليها حين حدثتك عنه، والتى أتاحت له أن يتخذ الغزل وسيلة من وسائل الخصومة السياسية، فاخترع ما سميته الغزل الهجائى ، وكان فى هذا الغزل عفيفا حلو اللسان مؤدبا حسن الثناء لا يريد إلا أن يغيظ خصومه السياسيين بذكر نسائهم والتحبب اليهن . أما عمر بن أبى ربيعة فلم يصطنع من هذا كله شيئا، وإنما كان صادق اللهجة فى غزله كله، لا يريد بالغزل إلا الغزل، ولا يذكر النساء إلا لأنه يحب النساء .

وهناك مسألة عنى القدماء بها عناية شديدة ، ولا بد من الاشارة اليها والقول فيها : أكان عمر بن أبى ربيعة صاحب لهو وعبث وفتك، أم كان شاعرا لا أكثر ولا أقل ؟ وبعبارة أخرى : أكان عمر بن أبى ربيعة كالعرجى، أم كان كجميل ؟ .

أما القدماء فيختلفون اختلافا شديدا ، ويرون فيه رأيين متناقضين يضيفونهما إلى عمر نفسه : فمنهم من يقول إن عمر كان صاحب عبث وفجور، ثم يزعم أن سائلا سأله : أكل ما قلته فى شعرك فعلته ؟ فأجاب : نعم، وأستغفر الله . ومنهم من يزعم أنه كان صاحب عفة وطهر، وأنه كغيره من الشعراء، كان يقول ما لا يفعل، ويزعمون أنه أقسم الأيمان المحرجة ما أقدم فى حياته على حرام، ثم يزعمون أنه عند ما أشرف على الموت رأى أخاه الحارث جزعا مشفقا فقال له كلاما هدأ روعه وأكد له أنه لم يأت مما قال شيئا .

وليس بين هذين الرأيين المسرفين فيما نعتقد رأى وسط . فلنكن نحن أصحاب هذا الرأى . لا أستطيع ان أصدق مهما يقسم عمر ومهما يقل الرواة أن هذا الشاعر

المترف الذى قضى شبابه فى غير نسك ولا زهد ولا تدين، والذى كان كل شىء يتيح له اللهو والعبث، فكانت له الثروة وكان له الجمال وكانت البيئة كلها بيئة لهو وترف، لا أستطيع أن أصدق أن هـذا الرجل قضى حياته طاهرا بريئا من كل مجون. ثم لاأستطيع أن أصدق مهما يقل الرواة ومهما يقل عمر نفسه أن هذا القرشى الشريف ذا المكانة العالية والحسب الرفيع والذى كان متأثرا كغيره من الأشراف بطائفة من النظم والعادات الخاصة، والذى كان يعيش فى ظل سلطان دينى قوى من الوجهة السياسية، إن لم يكن قويا من الوجهة الخلقية، لا أستطيع أن أصـدقك أنه أنفق حياته كلها فى عبث ولهو وفى فجور ومجون، وانه فعل كل ما قال.

ولنلاحظ قبل كل شىء أن الحجاز لم يخل فى هذا العصر من شعراء عبثوا ولهوا وأسرفوا فى العبث واللهو مضطرين أو مختارين. ولكن لنلاحظ أن هؤلاء الشعراء لم يعيشوا وادعين كما عاش عمر بن أبى ربيعة ولم يظفروا بإجماع الناس على إكبارهم وإجلالهم كما ظفر عمر بن ربيعة.

ومهما تكن الأسباب التى آقتضت محنة العرجى والأحوص فقد محنا وساء بهما ظن فريق من الناس عظيم، وكان أشدّ النـاس بهما حسن ظن لا يرى فيهما من الوجهه الخلقية خيرا.

أما آبن أبى ربيعة فلم ينـله سلطان آبن الزبير ولا سلطان بنى أمية بمكروه، ولم يرو لنا التاريخ أن الناس غلوا فى لومه أو تشددوا فى النعى عليه.

وقد يشير بعض الرواة الى أن أخاه أو غير أخيه لامه وألح عليه، وإلى أنه سافر الى اليمن آجتنابا لمكة وتأديبا لنفسه، فحنّ الى مكة وعاد اليها. ولكن التكلف فى هذه الأخبار ظاهر. وكل ما نستطيع أن نستيقنه منها هو أن ناسا لاموا عمر من جهة، وأن عمر قد سافر الى اليمن كما سافر الى العراق وكما كان يسافر الى المدينة لبعض شؤونه من جهة أخرى

إذًا لم يجد السلطان السياسى سبيلا على عمر كما وجد سبيلا على الأحوص وعلى العرجى . ومع هذا فقد كان أصحاب التقى والمروءة يدعونه الفاسق مازحين مرة وجادين مرة أخرى، وكان النساء يداعبنه بهذه الصفة، وربما وصفنه بها جادات أيضا . وكان أشراف قريش ربما تحرجوا من شعره وآحتاطوا فى حماية نسائهم من روايته والظهور عليه . .

كان هذا كله . ولكن كان من جهة أخرى أن عمر آبن أبى ربيعة لم يكد يترك امرأة شريفة من نساء قريش إلا ذكرها وأسرف فى ذكرها ؛ فقد تغزل بأخت عبد الملك وبنته، وآمرأة سهيل بن عبدالعزيز بن مروان، وتغزل بعائشة بنت طلحة، وتغزل بسكينة بنت الحسين، وتغزل بلبابة بنت عبدالله بن عباس، وتغزل بزينب بنت موسى الجمحى وهند بنت الحارث المرى، وتغزل بإحدى بنات محمد بن الأشعث الكندى من أهل العراق، ونساء غير هؤلاء كثيرات من اشراف مكة والمدينة والشأم والعراق . وكان يتغزل بهن جهرة فى غير تكتم ولا آستخفاء، إلا ما يروى من أنه تحفظ بعض التحفظ فى أمر فاطمة بنت عبد الملك .

والغريب أنه لم يكن يكتفى بإعلان غزله، بل كان يستعين عليه نفرا من أشراف قريش فيعينونه ويجدون فى هذه المعونة لذة وغبطة .

وسنذكر لك مكان آبن أبى عتيق من غزل عمر بن أبى ربيعة، سنذكر لك مكان هذا الرجل الشريف من قريش من غزل عمر، لا أقول من لفظه، بل أقول من حياته الغزلية، وكيف كان يحرص على التوسط بينه وبين صاحبته الثريا .

ألست ترى أن هذا كله خليق بالتفكير وأننا مضطرون الى أن نتوسط بين الذين زعموا أن عمرا كان مسرفا فى الفجور، والذين زعموا أنه كان مسرفا فى العفة، فنرى أنه لم يكن مسرفا فى اللهو كما أنه لم يكن مسرفا فى حسن السيرة ؛ ونرى أنه صادق كل الصدق حين يؤكد أنه لم يقدم على حرام، ولكن صدقه هذا مقصور على طائفة من شريفات قريش وغير قريش . فليس من شك فى أن صلته

بأخت عبد الملك و بنتــه و بسكينة بنت الحســين ولبابة بنت عبــد الله بن عباس وعائشة بنت طلحة كانت طاهرة كل الطهر بريئة كل البراءة من الإثم، كانت لفظية ليس غير .

بل لست أدرى : أحق ما يروى من أن فاطمة بنت عبــد الملك حرصت على أن تراه وآحتالت فى ذلك الى آخر ما سنذكره ؟ وأكبر ظنى أنه لم يتجاوز أن آحتال فى رؤيتها ثم تغزل بها ،وأن هذا الغزل وقع من فاطمة موقعا حسنا،ولعلها كانت تطمع فيه ، و إذًا فهو لم يقدم على غرام مع هذه الطبقة من النساء .

ولكن أنستطيع أن نقول إن سيرة عمر مع النساء جميعا كانت كسيرته مع هؤلاء الشريفات ؟ أنستطيع أن نقول : إن هــذا الرجل الذى لم يعرف الأدب العربى الإسلامى إلى عصره شاعرا وصف اللهو بالنساء كما وصفه قد أنفق حياته (كما قال بعض الرواة — يصف ولا يقصف و يحوم ولا يرد ؟ كلا ! كان عمر بن أبى ربيعة مسرفا فى وصف اللهو، مقتصدا فى اللهو نفســه . ومن زعم أنه صادق حقا حين يقسم ما أقدم على حرام فهو مخــدوع . ومن زعم أنه صادق حقا فى أنه فعــل كل ما قال فهو مخدوع أيضا)

« إنما كان عمر يعيش عيشة الرجل المترف الذى أتيحت له أسباب اللهو ووسائله ؛ ولكنه مع ذلك مقيد بشرفه ومكانته وما ألف الناس من الأوضاع الاجتماعية، فهو يلهو ولكن بمقدار، وهو يصف ولكن بمقدار أيضا . »

ومن هنا كان من الحق أن يكون عمر بن أبى ربيعة بإزاء جميل،أى أنه كان رئيس مذهب فى الغزل الإباحى كما سميناه غير مرة؛ لأنه لم يكن يتغزل فى الهواء ولا يطمح إلى المثل المعنوى الأعلى ليس غير، و إنما كان يعيش فى الأرض و يستبيح لنفسه من اللذات ما أباح له الدين وما لم يبح ، بينما كان جميل زعيم هذا الغزل العذرى العفيف

الذى لم يكن يطمح إلا إلى المثل الأعلى والى الجمال من حيث هو ، ولا يبتغى لذة ولا يستبيح شيئا لم يبحه الدين ولم ترض عنه الأخلاق .

على أنى لم أحدثك إلى الآن إلا بأشياء عامة ولم أعرض بعدُ لدرس مفصّل دقيق لشعر عمر بن أبي ربيعة . وأنا مضطر الى ذلك ، فليس عمر بن أبي ربيعة بالذى يستطيع الباحث أن يدرسه فى حديث واحد . ولا بد لى أن أحدثك عنه حديثا آخر ، وقد أحتاج إلى غير حديث .

أما اليوم فأنا أختم هذا الفصل بشيء أنقله لك عن القدماء يختصر رأيهم فيه اختصارا حسنا ، وهو رأى مصعب بن عبد الله الزبيرى ، وقد تناقله عنه رواة العصر العباسى ، وحرصوا عليه فكأنهم يقرونه ، بل قل : إنهم يقرونه عليه . و إذًا فهذا الرأى تستطيع أن تأخذه على أنه رأى القدماء جملة فى شعر عمر . ولست أنقل لك كل ما يروى القدماء عن مصعب ، فذلك يقصر عنه هذا الحديث ، و إنما أروى لك منه جملة صالحة . فإذا كان الفصل الآتى فسأجتهد فى أن أفصل بعض التفصيل رأيى فى شعر عمر .

قال مصعب : راق عمر بن أبي ربيعة الناس وفاق نظراءه و برعهم بسهولة الشعر ، وشدّة الأسر ، وحسن الوصف ، ودقة المعنى ، وصواب المصدر ، والقصد للحاجة ، واستنطاق الربع ، و إنطاق القلب ، وحسن العزاء ، ومخاطبة النساء ، وعفة المقال ، وقلة الانتقال ، و إثبات الحجة ، وترجيح الشك فى موضع اليقين ، وطلاوة الاعتذار ، وفتح الغزل ، ونهج العلل ، وعطف المساءة على العذال ، وأحسن التفجع ، و بخّل المنازل ، واختصر الخبر وصدق الصفاء ، إن قدح أورى ، و إن اعتذر أبرى ، و إن تشكى أشجى ، وأقدم عن خبرة ولم يعتذر بغرة ، وأسر النوم ، وغم الطير ، وأغذ السير ، وحيّر ماء الشباب ،

وسهّل وقوّل، وقاس الهوى فأربى، وعصى وأخلى وحالف بسمعه وطرفه، وأبرم نعت الرسل وحذّر، وأعلن الحب وأسرّ، وبطن به وأظهره، وألح وأسفّ، وأنكح النوم، وجنى الحديث وضرب ظهره لبطنه، وأذلّ صعبه، وقنع بالرجاء من الوفاء، وأعلى قاتله، واستبكى عاذله، ونفّض النوم، وأغلق رهن مِنًى، وأهدر قتلاه، وكان بعد هذا كله فصيحا .

فمن سهولة شعره وشدّة أَسْره قوله :

فلما توافَيْنا وسلّمت أشرقت * وجوه زهاها الحسنُ أن تتقنّعا
تَبَالهْنَ بالعِرفان لما رأينني * وقلن آمرؤ باغ أكَلَّ وأوضعا

ومن حسن وصفه قوله :

لها من الريم عيناه وسُنّته * وعزة السابق المختال إذ صهلا

ومن دقة معناه وصواب مصدره قوله :

عوجًا نحيّ الطلل المحولا * والربعَ من أسماء والمنزلا
بسابغ البَوْباةِ لم يعدُهُ * تقادمُ العهد بأن يُؤْهلا

ومن قصده للحاجة قوله :

أيها المنكح الثريّا سُهيلًا * عمرَكَ الله كيف يلتقيان
هي شاميةٌ إذا ما آستقلّتْ * وسهيلٌ اذا آستقل يمان

ومن آستنطاقه الربع قوله :

سائلا الربع بالبُلَيِّ وقولا * هجتَ شوقاً لى الغداة طويلا
أين حيّ حلّوك إذ أنت محفو * ف بهم آهل أراك جميلا
قال ساروا فأمعنوا وآستقلّوا * وبكرهي ولو وجدت سبيلا
سئمونا وما سئمنا جِوارا * وأحبوا دماثة وسهولا

ومن إنطاقه القلب قوله :

قال لى فيها عَتِيــقٌ مقالا * فجرتْ ممــا يقول الدموعُ

قال لى ودع سليمى ودعها * فأجاب القلب لا أسـتطيع

ثم يمضى مصعب فى الاستدلال بالأبيات من شعر عمر على ما قدم من وصفه فيما رويت لك ، وذلك أطول من أن أتم روايته؛ فاقرأه فى الجزء الأول من الأغانى إن شئت. بل أنا أشير عليك أن تقرأه لتتمثل رأى القدماء فى عمر ووجهتهم فى نقده قبل أن نأخذ نحن فى درسه منذ الأسبوع الآتى .

خاتمة القول فى الغزلين[1]

الحب فى شعر ابن أبى ربيعة

أظنك لم تنس حديثنا الماضى عن عمر بن أبى ربيعة. وأظنك تذكر ذلك الرأى الذى ختمت به ذلك الحديث، وقلت: إنه يمثل رأى القدماء فى زعيم الغزلين، وهو رأى مصعب بن عبد الله الزبيرى الذى تناقله الرواة على اختلافهم وتباين أهوائهم وأعجبوا به، وحفظه لنا صاحب الأغانى. فكان هذا كله مرآة لرأى هذه الطبقات فى عمر بن أبى ربيعة، بحيث نستطيع أن نقول: إنه يمثل رأى القرن الثانى والثالث فى هذا الشاعر.

أعترف بأنى قرأت حديث مصعب بن عبد الله هذا مع شىء من اللذة كثير، وأحسست شيئا عظيما من الغبطة، لأن صاحب الأغانى استطاع أن يرويه فى جملته حتى يخيل اليك وأنت تقرؤه أنه فصل كامل من كتاب، أو أنه نص كامل لمحاضرة ألقاها هذا الأديب. ومن ذا الذى لا يغتبط حين يظفر بشىء كهذا! ولست أريد أن أنقد هذا الرأى ولا أن أناقشه. وإنما نقلته لك لترى كيف كان القدماء من أصحاب اللغة والأدب ينظرون فى الشعر ويحكمون عليه. وكيف كانوا يقدرون عمر ابن أبى ربيعة ويعجبون به الى غير حدّ.

وأنا أعلم حق العلم أن طريقة القدماء فى فهم الشعر والحكم عليه لا ترضينا ولا تقنعنا ولا تلائم ذوقنا الحديث وأطماعنا العلمية الواسعة. فهم كانوا يتعجلون الحكم تعجلا، ويجترئونه اجتراء، ويعممون فى غير موضع للتعميم. وهم كانوا

(١) نشرت بجريدة « السياسة » فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٤ م.

لا يستطيعون أن يتصوروا أن لشعر الشاعر وحدة يجب أن تدرس ، ويجب أن يتبين فيها الناقد شخصية الشاعر وقوته . وهم كانوا يجهلون أو يكادون يجهلون هذه الشخصية وينظرون لا الى القصيدة ولا الى المقطوعة بل الى البيت أو البيتين ، فيحكمون بأن الشاعر أشعر الناس فى هذا المعنى . وربما حكموا بأنه أشعر الناس فى كل شئ ؛ لأنه قال بيتا وافقهم أو شطرا وقع منهم موقعا حسنا . وهم كانوا الى هذا كله يغمضون فى ألفاظهم ويعمدون الى معانى مبهمة بحيث لا تستطيع أن تبين آراءهم كما هى ؛ فهم يذكرون الديباجة ، والحاشية ، والأديم ، وما الى ذلك من ألفاظ مستعارة يعجبك وقعها ويخطئك معناها الدقيق .

أعلم هذا كله ولكنى مع ذلك أحب هؤلاء القدماء ، وأحب آراءهم ، وأجد فى قراءتها لذة وبهجة ، والى تفهمها راحة واطمئنانا . واذا أخطأنى رأيهم الدقيق فى الشعر أو حكمهم الصحيح عليه ، فإنى أجد نقدهم مرآة صادقة لنفس جذابة حلوة أحب أن أخلو اليها من حين الى حين .

نعم ! إن رأى مصعب بن عبد الله الزبيرى لا يعطى صورة واضحة من عمر ابن أبى ربيعة ولا من شعره ؛ ولكنه يعطى صورة واضحة من مصعب نفسه ومن أصحابه الذين استمعوا له وحفظوا عنه ، ومن الرواة الذين تناقلوا هذا الحديث وخلدوه . وليس هذا بالشيء القليل . ثم من الذى يستطيع أن يزعم لك أن الأجيال المختلفة تستطيع أن تفهم الأدب على وجه واحد ، وتصدر فى الحكم عليه عن مصدر واحد ! وكيف السبيل الى ذلك وأنت لا تستطيع أن تضمن تشابه أطوار الحياة وظروفها فى الأجيال والبيئات المختلفة ؟ واذن فلا تستطيع أن تضمن تشابه الذوق . واذن فلن تستطيع أن تضمن تشابه النقد . واذن فلن ينبغى لك أن تطلب الى القدماء ما تطلبه الى المحدثين . ولئن عجبت لشيء فانما أعجب لهذه الميول والأهواء التى قد يشترك فيها القدماء والمحدثون على تباين الأطوار واختلاف الظروف وتبدل أحوال الحياة . أقول هذا كله بعد أن فرغت من قراءة رسالة صغيرة ، ولكنها

ممتعة قيمة للدكتور « زكى مبارك » خرّيج الجامعة المصرية ، تناول فيها شعر عمر بن أبى ربيعة فدرسه من بعض نواحيه درسا حسنا يسرنى أن أهنئه به ، ويسرنى أيضا أن أنتهز هذه الفرصة لتسجيل ما للجامعة المصرية من فضل على عقول الشباب . ولكن الدكتور « زكى مبارك » ، وهو شاب حادّ الشباب عنيفه ، قد أسرف فى نقد مصعب بن عبد الله إسرافا جعله الى الظلم أقرب منه الى الإنصاف . وليس مصدر هذا الإسراف الا أنه لم يقدر كما ينبغى اختلاف المُثُل الأدبية باختلاف العصور والاجيال . وما أحسب الا أنه عائد الى هذا النقد فلطف مافيه من حدّة ومزيل ما فيه من جور .

كان القدماء مجمعين أو كالمجمعين على إكبار عمر بن أبى ربيعة وتقديمه ، يستوى فى ذلك خصومه وأنصاره . فقد كان ضربا من الإكبار والتقديم هذا التحرّج من رواية شعر عمر، وهذا الإشفاق من أثره فى الفتيان والفتيات . فلم يكن لهذ التحرّج والإشفاق مصدر إلا الاعتراف بأن هذا الشعر قوى خلاب ساحر للنفوس .

ولكن من أى ناحية نستطيع أن ندرس شعر عمر بن أبى ربيعة : أندرسه من حيث هو مرآة للحياة الاجتماعية الحجازية فى القرن الأوّل للهجرة، أم ندرسه من حيث هو مظهر من مظاهر الحياة الأدبية فى ذلك العصر، أم ندرسه من حيث هو مرآة لنفس المرأة الحجازية وحياتها بوجه عام ، أم ندرسه من حيث قيمته الفنية فى لفظه وأسلوبه ومعناه ، أم ندرسه من حيث عبث الرواة به وإضافتهم اليه، أم ندرسه من حيث تطوره، فقد تطور شعر عمر بن أبى ربيعة كما تطور بن أبى ربيعة نفسه ؟ ولعل أصدق دليل على أن القدماء أنفسهم أحسوا هذا التطور قول جرير : " ما زال هذا القرشى يهذى حتى قال الشعر " .

أما أن ندرسه من حيث هو مرآة لنفس عمر ومظهر لشخصيته ومثال لقوة حسه ودقة شعوره، فكل هذه النواحى خليقة بالدرس . وأنا زعيم لك بأنك ستظفر إن درستها بنتائج أدبية وتاريخية قيمة جدا . ولكنك تعلم حق العلم أنى

لا أستطيع أن أعرض لهـذا كله فى هذه الأحاديث ، فليست هى مما يسع هـذا البحث العلمى الدقيق . ولو أنى عرضت لها لقضيت فيها سنة أو أكثر من سنة . وقد طلب الىّ بعض أصدقائى منذ حين أن أنصرف عن الغزلين الى غيرهم ، فأجبته الى ما أراد . وأنا أريد أن يكون هـذا الحديث خاتمة القول فى الغزلين . ويسرنى جدا أن يعنى غير واحد من رجال الأدب بالبحث عن كل هـذه النواحى التى أرى أنها خليقة بالدرس من شعر عمر بن أبى ربيعة .

أما أنا فلست أدرس فى هذا الحديث الا ناحية واحدة أو جزءا من ناحية واحدة إن صح هذا التعبير . ولكنى ألفتك اليه ، وأود لو استطاع الباحثون أن يتموه ، فان أزيد عن الإشارة الموجزة اليه . أريد أن أبحث عن حب عمر بن أبى ربيعة ماهو ؟ وما سبيله ؟ وما أثره فى البيئة التى ظهر فيها ؟

وقد رأينا فى الحديث المـاضى أن عمر لم يكن عذريا ولم يكن يريد أن يذهب مذهب العذريين ، وإنما كان عمليا محققا يلتمس الحب فى الأرض لا فى السماء . ورأينا كذلك أنه لم يكن يذهب فى حبـه مذهب أصحاب المجون من شعراء العصر العباسى ؛ فلم يكن يسرف فى العبث ، وانمـا كان يقتصد اقتصادا ويتوسط فى حبه توسطا ، فيعف كثيرا ويعبث قليلا . وكانت ظروف حياته نفسها تكرهه على هـذه العفة ؛ لأنه لم يكد يدع امرأة شريفـة من قريش إلا شبب بهـا ؛ وما كان له أن يتجاوز العفة فى هـذا التشبيب . إنمـا الذى نريد أن نتبينه هو طبيعة هذا الحب . فنلاحظ قبل كل شىء أن عمر لم يكن يحب بعقله ولا بقلبه ، وانمـا كان يحب بحسه ، وبحسـه ليس غير . كان موكلا بالجمال يتبعه . وله فى ذلك أحاديث أذكر منها قصته مع عروة بن الزبير ، فقـد سايره ذات يوم وأخذا يتحادثان ، فإذا عمر يسأله عن ابنـه محمد ، فأجابه عروة : لقد تقـدّمنا ؛ فأظهر عمر الرغبة فى أن يلحقـه ويسايره ، وأنكر عروة ذلك ؛ فقال عمر : أنا موكل بالجمال أتبعـه . وكان محمد بن عروة جميـلا رائع الطلعـة ؛ وقد أذن عروة لعمر فلحق بالفتى وسايره .

وله أحاديث أخرى مع الشبان فى البيت الحرامُ وخارج البيت الحرام. وتستطيع أن تقرأ ديوان عمر بن أبى ربيعة كله فلن تجد فيه من وصف بنفس المرأة وجمالها المعنوى الا قليلا جدا . فأما الذى تجده فى هذا الديوان فوصف جمالها المـادى من جهة، ووصف ميولهـا وأهوائها من جهة أخرى . ولم يخطئ نُصَيْب حين قال : (”عمر ابن أبى ربيعة أوصفنا لربات الحجال“ . فلم يعرف العصر الأموى كله شاعرا وصـف المرأة جملة وتفصيلا بمثل ما وصـفها به عمر بن أبى ربيعة جودة وكثرة ودقة بنوع خاص .)

(كانت الصلة الجنسية أساس الحياة الأدبية وغايتها بالقياس الى عمر بن أبى ربيعة. فهو لم يكن يتصور المرأة إلا على أنها مكملة للرجل ، لايستطيع أن يعيش بدونها كما أنها لا تستطيع أن تعيش بدونه، ولم يكن عمر يقصر هذه الصلة الجنسية على معناها المـادى وحده، وانما كان يريدها واسعة متناولة جميع أطراف الحياة . ولست أشك فى أن عمر بن أبى ربيعة كان صـديقا للمرأة بالمعنى الحديث الذى نفهمه لصـداقة المرأة، كان يريد لهـا من الحرية مثل مايريده للرجل، وكان يريد أن تكون صـلة الغزل بين الرجل والمرأة صـلة ظاهرة لاحرج فيها ولا جناح، وكان يريد أن تظهر المرأة فخرها بجمالهـا وروعتها كما يظهر الرجل فخره بشجاعته وبأسه ، وكان يريد أن تستفيد الجماعة الإنسانية من خلال المرأة، كما تستفيد من خلال الرجل ، كان يريد أن تزول الفروق بين الجنسين وألا يكون بينهما حجاب. وسواء علينا أشعر بذلك أم لم يشعر ، أكون فيـه رأيا صريحا أم لم يكون ، فهناك شىء لاشك فيـه وهو أن شعر ابن أبى ربيعة كله ليس الا تغنيا بجمال المـرأة وتأثيرها فى حياة الرجل ومكانها من نفسه. (وكان كل شىء فى حياة عمر وسيلة الى الاتصال بالمرأة وذكرها والتحدث اليها ولا سيما الحج ، فلم يكن ابن أبى ربيعة يفهم من موسم الحج الا أنه معرض إسلامى للجمال ، وكان اذا قرب الموسم اتخـذ أجمل ما كان يستطيع من زينة وظهر فى مظهر الفتوة والقوة وفارق مكة فتعرّض للحجيج فى طريق المدينة والشأم والعراق يتلمس نساءهم ويتبين هوادجهن ويعرض منها لمـا تظهر عليها آثار النعمة والترف،

فإذا وافى الحجيج مكة وغيرها من مواضع المناسك، كان عمر قد أحصى النساء اللاتى يحب أن يكون بينه و بينهم لقاء أو حديث أو مكاتبة، وكانت له رسل تعمل فى ذلك فتأتيه المواعيد فى مكة حينا وفى منى حينا آخر، وكانت أحب ساعات الدهر اليه أوائل الليل من أيام الموسم حين ينتهز النساء فرصة الليل فيخرجن للطواف . هنالك كان عمر بن أبى ربيعة يترصدهن، ومنهن من كانت تترصده . وهنالك كانت تبتدأ الأحاديث لتتم بعيدا عن البيت، حتى اذا انتهى الموسم وأزمع الحجيج العودة الى بلادهم، رأيت عمر مقسما بين نساء المدينة ونساء الشأم ونساء العراق، يشيع هذه ثم يعود فيشيع تلك ثم يترك هاتين ليشيع امرأة أخرى . وهو لا يفرغ من تشييع امرأة إلا قال فيها الشعر الجيد يسبقها الى موطنها، ولا يلبث أن يسقط بين أيدى المغنين فإذا هو مصدر للهو والطرب لهذه الأرستقراطية المترفة من أبناء قريش والأنصار . فكان موسم الحج موسم شعر وغناء فى الحجاز .

وقد ذهب الشعراء مذهب عمر بن أبى ربيعة . وتأثر النساء تأثرا شديدا بهذه الحركة الغزلية فأحببنها وحرصن عليها واجتهدن فى تقويتها وتذكية نارها، واستبقن الى إرضاء الشعراء وتحريضهم على قول الشعر وإغرائهم بالغزل فيه .

أظنك تستطيع الآن أن تفهم السبب فى افتتان النساء بعمر وتنافسهن فيه واستباقهن الى مودته. وأظنك تشاركنى فى الحكم بأن عمر لم يكن مغرورا ولا مفتونا ولا تياها كما كان يظن به بعض القدماء وكما يظن به بعض المحدثين أيضا. كان عمر يصف نفسه كثيرا، وكان يسرف فى هذا الوصف أحيانا حتى قال له ابن أبى عتيق ذات يوم : لم تشبب بها وإنما شببت بنفسك. ولكن مصدر هذا لم يكن غرورا ولا فتنة ولا تيها، وإنما كان حب النساء إياه حقا وتهالكهن عليه حقا . وليس من المنكر أن يكون هذا قد اضطره الى شئ من الغرور والتيه . ولكنى لست أحسب

أن الغرور والتيه وحدهما هما اللذان أنطقاه بهـذا الشعر الكثير الذى اتخذ نفسه موضوعا له .

لم يكن عمر مغرورا ولا تياها كما أنه لم يكن كاذب الحب ولا متكلفه، وإنما كان صادق الحب حقا قويه أيضا. ستقول : فكيف يلائم ذلك مازعمت من أنه لم يكن عذريا ولم يكن يذهب مذهب جميل ؟ بل كيف يلائم ذلك ما ذكرت من أنه كان يتبع النساء جميعا بحبه لايكاد يدع امرأة إلا ليعرض لأخرى، وربما اشتغلت نفسه فى وقت واحد بغير امرأة ؟ كان هذا كله حقا ، وكان عمر بن أبى ربيعة مع ذلك صادق الحب قويه أيضـا . ذلك لأنه لم يكن عذريا : لم يكن يحب بعقله ولا بقلبه كما قلت آنفا، وإنما كان يحب بحســه وبحسه ليس غير . لم يكن حســه يطيع قلبه فيرى الجمال فى عشيقته ويميل اليها وإنمـا كان قلبه طوع حسه، فكان يكفى أن يرى جمال المرأة ليخلع عليها ما شاء له الشعر من الصور الرائعــة الخلابة، وليجد بها ما شاء له الحب من وجد لاحدّ له . كان عمر يرى كلما أحب امرأة أنه لم يحب أبدا امرأة كما أحبها ، وأنه لن يسـلو عنها مهما تبـدل الأحوال وتختلف صروف الحياة ؛ وكان صادقا فى هــذا كله ، ولكنه لم يكن يلبث أن يقول هــذا الشــعر حتى يحب امرأة جديدة حبا ليس له بمثله عهد ولن يكون له بمثله عهـد، ولن يجد سبيلا الى الإنصراف عنه . ومصدر هذا أن قلبه كان كما قلت تبع حسه ، وأن النساء كن مفتونات به ، فكان لايكاد يقف عنــد مظهر من مظاهر الجمال حتى يخلبــه مظهر آخر، وكان لا يكاد يســمع ثناء امرأة حتى يستهويه ثناء امرأة أخرى، فكان طمعه متصلا وأمله لاحدّ له .

ليس عمر بن أبى ربيعة بدعا من الشــعراء ولا من العشاق ، فأنت تجد فى كل عصر من العصور وفى كل بيئة من البيئات عشاقا أفلاطونيين وعشاقا آخرين يحبون بالحس . ولكنى أريد أن التمس لعمر بن أبى ربيعة شبيها من أهل الأدب الحديث، وأعتقد أن هذا الشبيه سيفسر عمر حق التفسير ويوضح نفسه وحبه أحسن توضيح .

منذ سنين كتب صديق الأستاذ ضيف رسالة باللغة الفرنسية قدمها الى السربون وقارن فيها بين عمر بن أبى ربيعة وبين الشاعر الفرنسى (ألفرِدْ دى موسيه) . وقد تكون هذه المقارنة خلابة فى ظاهر الأمر؛ فعمر بن أبى ربيعة أظهر عشاق العرب، و « الفرد دى موسيه » أظهر الغزلين من شعراء فرنسا فى القرن الماضى ، وكلاهما وقف حياته على المرأة وحبها، وكلاهما وقف شعره على جمال المرأة والتغنى به . ولكن الفرق عظيم جدا بين الشاعرين، عظيم الى حدّ أن المقارنة بينهما مستحيلة، فليس بين نفسيهما شبه ما .

أنت محزون حين تقرأ «الفرد دى موسيه» ، يتفطر قلبك لوعة وأسى ، ويأخذك شىء من اليأس والسخط على الحياة والزهد فيها حين تنظر الى هذا الحب القوى المتين فترى أنه على قوّته وصدقه ومتانته جريح يدمى .

ولكنك مبتهج راض مبتسم للحياة حين تقرأ شعر ابن أبى ربيعة؛ فلم يكن قلبه جريحا ولم تكن نفسه كئيبة، ولم يكن يرى فى الحياة إلا لهوا أو سبيلا الى اللهو . وأنت حين تقرأ ما يظهر ابن أبى ربيعة فيه الحزن والأسى مطمئن راض بل مبتسم؛ لأنك تعلم أن هذا الحزن إنما هو وسيلة الى السرور ومذهب من مذاهب الاستعطاف وسبيل من سبل اللذة .

لا أقرن ابن أبى ربيعة الى « الفرد دى موسيه » وإنما أقرنه الى رجل فرنسى آخر هو أخوه حقا ، هو صورته الصادقة لولا ما بينهما من فروق البيئة والجيل ، ولكن نفسيهما نفس واحدة، ولكن حسيهما حس واحد، ولكن مذهبيهما فى الحب وإعلانه مذهب واحد ، ولكن ميليهما فى الحياة يوشكان أن يكونا ميلا واحدا : كلاهما أحب بحسه وأخضع قلبه لحسه، وكلاهما فتن النساء، وكلاهما تحدث بفتنته للنساء حديثا حلوا خلابا، وكلاهما تعمق فى الحب الحسى حتى وصل الى قراراته، وكلاهما أحب حتى كره الحب ، ولذّ حتى زهد فى اللذة ، وكلاهما لم يعرف لحبه موضوعا يقصره عليه ، فكان يترك هذه ليحب تلك ، ويخلص من هذه ليقع فى شراك تلك

ستسألني عن هذا الفرنسي الذي يشبه عمر بن أبي ربيعة هذا الشبه القوى الغريب ليس شاعرا ولكنه ناثر كالشاعر، أنت تعرفه حق المعرفة لأن بينك وبينه صلة قوية لأنه صديق الشرق عاما وصديق مصر خاصة : « بيير لوتى » .

أقرأت شيئا من حب هذا الكاتب؟ أقرأت كتبه عن فتيات قسطنطينية بنوع خاص ؟ إنى أحب أن تقرأ هذه الكتب وأنا واثق كل الثقة بأنك لن تشك بعد قراءتها وقراءة ابن أبي ربيعة فى أن هذين الرجلين يصدران عن مصدر واحد. ولو أن لى أن أومن بالتناسخ لقلت : إن نفس ابن أبي ربيعة قد مرت بها أطوار الحياة المختلفة فهذبتها تهذيبا وصفّتها تصفية ، ثم تمثلت فى هذا العصر الحديث فى شخص « بييراوتى » فكتبت ما كتب « بييرلوتى » .

مكان هذا الكاتب الفرنسى من النساء عامة ومن فتيات القسطنطينية خاصة، كمكان عمر بن أبى ربيعة من المرأة عامة والمكيّات خاصة .

أحب أن تقرأ هذه المذكرات الخاصة التى تنشرها « الالوستراسيون » منذ أسبوع والتى تركها «بييرلوتى»، فسترى فى هذه المذكرات والكتب نصوصا لاتدع فى نفسك موضعا للشك فيما أقول . وقد أتخذ هذه المذكرات موضعا لحديث من أحاديث الأحد .

فى هذه المذكرات ينبئنا «بييرلوتى» فى ألفاظ أشبه بالنار منها بالكلام أنه أحب امرأة حبا حسيا خالصا لم يعرفه من قبل ولن يعرفه بعد، أنساه كل شيء وكل إنسان وكل واجب، وأن هذه المرأة تحبه حبا حسيا أيضا، ولكنها فى الوقت نفسه تحب رجلا آخر وهى صادقة فى الحبين . ثم ينبئنا أنه شديد الألم لأنه لايقف عند امرأة ولايستطيع أن يقصر حياته على حب واحد . ومن غريب الأمر أنك تجد فى هذه المذكرات صديقا « لبيير لوتى » ينصح له ويشير عليه، فلا تستطيع أن تمنع نفسك من التفكير فى عمر بن أبى ربيعة وصديقه ابن أبى عتيق . ثم تجد فى هذه المذكرات فصولا تصف لنا تنكر «بيير لوتى» وإخفاءه نفسه كما تجد ذلك أيضا فى قصة «اليائسات»

فلا تستطيع أن تمنع نفسك من التفكير فى آبن أبى ربيعة وما كان يسلك من سبل وحيل للوصول الى النساء . فاذا وصل « بيير لوتى » الى صاحبته فالأمر بينهما كالأمر بين آبن أبى ربيعة وصاحبته : لهو حينا، وعفة حينا آخر ؛ والمرأة فى كلتا الحالين تعلم حق العلم أن عاشقها لعوب مخلاف لا يكاد يقف عند المرأة إلا حينا كالنحل تنتقل بين الزهر .

اِسمع الى «بيير لوتى» وقد قضى مع صاحبته ساعات يراها أسعد ساعات حياته وهو يقول لها : إنى أحبك، فتجيبه : هذا شىء تقوله .

ثم اقرأ ما شئت من شعر عمر آبن أبى ربيعة وعتب النساء عليه وكلفهن به مع هذا العتب. و إن بين يدى الآن لصحفا من كتاب اليائسات كنت أريد أن أترجمها لك وأروى معها شيئا من شعر آبن أبى ربيعة، لتلمس تشابه النفسين لمسا ؛ ولكن من لى بالمكان الذى يسمح لى بالترجمة والرواية ؛ فحسبى أن أترجم لك هذه القطعة الموجزة من كتاب «اليائسات» لترى كيف كانت الفتيات تتحدث الى «بيير لوتى» ولتعلم أن «بييرلوتى» لم يكن أقل إيمانا بسلطانه على النساء من صاحبه العربى القديم. وهى من كتاب كتبته اليه إحدى عاشقاته وقد شربت السم وهى تموت :

« ... ... أيها الحبيب العزيز أسرع الىّ فأنا أريد أن أنبئك نبئى ... ألم تكن تعلم أنى كنت أحبك من أعماق نفسى؟ يستطيع من مات أن يعترف بكل شىء ... فهو لا يذعن لسلطان ما ... ومالى لا أعترف لك وأنا مفارقة هذه الحياة بأنى كنت أحبك ! ... أى أندريه! فى ذلك اليوم الذى جلست فيه الى هذا المكتب حيث أكتب اليك هذا الوداع أرادت المصادفة أن أميل فألمسك ... حينئذ أغمضت عينى، ومن دون هاتين العينين المغمضتين مرت أحلام ما أجملها! ... وكانت ذراعاك تضمانى إلى قلبك، وكانت يداى اللتان يملؤهما الحب تمسّان عينك فى لطف وتذودان عنهما الحزن... آه لقد كان يستطيع الموت أن يأتى حينئذ، ولقد كان يصادف لو أتى ملاك وسآمتك! ولكن ما كان أحلاه وما كان أملأ هذه النفس التى يجملها بالغبطة

والشكر... ... آه ! كل شيء يختلط و يحتجب ... زعموا لى أننى سأنام ولكنى لا أحس النوم بعد! ولكن كل شيء يضطرب و يتضاعف وكل شيء يرقص ... وإن شمعاتى لكالشموس ... وأرى زهراتى يعظمن، يعظمن حتى لكأنى فى غابة من زهر شائق! تعال أندريه ... أُدنُ منى . . ماذا تصنع بين الورد ؟ ... أُدن منى حينما أكتب ... أريد أن تطوقنى بذراعك وأريد أن تقبل شفتاى عينيك الغاليتين ... هنا أيها الحِبّ فهكذا أريد أن أنام قريبا منك وأن أقول لك إنى أحبك ... أُدن منى عينيك، فإن الموتى مثلى يستطيعون أن يقرءوا النفوس من طريق العيون ... » .

لست أزعم أن إحدى صاحبات عمر تحدثت اليه بشيء يشبه هذا أو يقاربه . وما كان لقرشية أن تحدث فى القرن الأول للهجرة بمثل ما تحدث به هذه التركية المترفة فى القرن الماضى . ولكن هذه التركية تشبه تلك القرشية شبها قويا جدا، فهى تحب صاحبها وتعلن اليه حبها فى قوة وعنف وفى غير تحرُّج ولا تحفظ، أو قل إن « بييرلوتى » يشبه عمر بن أبى ربيعة فهو يُنطق هذه التركية بحبها إياه كما كان يُنطق بن أبى ربيعة القرشيات بحبهن .

ولنختصر حكمنا فى عمر بن أبى ربيعة (كان هذا الحب حسيا صادقا متنقلا بطبعه شديد التأثير فى النساء إلى حد الفتنة . وقد فتن عمر النساء وتيمهن فأخذن يطرينه ويتهالكن عليه حتى فتن بنفسه، فلم يتغن بحبه إياهن كما تغنى بحبهن إياه . هو فى هذا كله مشبه كل الشبه «لبيير لوتى» لا فرق بينهما الا ماينشأ من اختلاف أطوار الحياة. ولكنى لم أثبت شيئا مما قلت عن عمر بشيء من شعره . ولم أروى لك شعر عمر، وأنا لن أروى لك منه الكفاية؟ وأنت تستطيع أن ترجع اليه، فديوانه شائع منشور، وأنا واثق أنك ستنتفع بقراءته انتفاعا جديدا إذا لاحظت ماقدمت لك من أمر حبه .

وأحسب أن قد آن لنا أن ندع الغزلين بعد أن ألممنا بما ألممنا به من حياتهم وفنونهم وشخصياتهم وأهوائهم المختلفة . فلندعهم؛ ولكن الى من؟ ذلك شيء لا أعرفه الآن وقد أعرفه فى الأسبوع المقبل .